

370.962.A394 O. L

علي ، خطاب عطية .

التاريخ في...

370.962

A394

C

506970

1967

-3 Dec 65

~~1 JUN 67~~

التَّعْلِيمُ فِي مِصْرٍ

فِي الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ الْأَوَّلِ

(٣٥٨ - ٤٦٥ هـ = ٩٦٨ - ١٠٧٢ م)

أَلْف:

خَطَابُ عَطِيَّةٍ عَلَى

مدرس التربية بمعهد المعلمين بالزيتون
ماجستير في الآداب (M. A.) من جامعة فؤاد الأول
ودبلوم معهد التربية للمعلمين بالقاهرة

68107

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

تصدير

بقلم

الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى ، ورئيس قسم التاريخ
والعميد السابق لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عنى الناس من قديم الزمان بالتعليم والتعلم ، فقد كان للتربية عند قدماء المصريين مقام رفيع ومنزلة عالية ، وكانت ترمى إلى تخريج المتعلمين فى الفنون والصناعات كالمهندسة والبناء والنقش والتصوير والطب والموسيقى وغيرها مما كان يضمن للانسان فى ذلك العهد عيشة راضية ويكسبه رضا الآلهة ومحبتهم فى الدار الآخرة . أما فى بلاد اليونان فقد كان للمناخ وطبيعة الأرض أثر عظيم فى توجيه التربية والتعليم ، ولا تزال آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان آراء قيمة يرجع إليها المربون فى مختلف عصور التربية . ولما جاء الاسلام اهتم العرب بالتعليم اهتماما بالغاً ، فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن التربية والتعليم ضروريان لنشر الدين الإسلامى ، فحث عليهما واهتم بالعلماء وبين منزلتهم فى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث . وقد كان لهذا أثر عظيم فى العصور الإسلامية التى قامت بعد الرسول فى مختلف البلاد الإسلامية . وعندما افتتح الفاطميون مصر فى القرن الرابع

الهجرى كان لهم أكبر الأثر فى قيام نهضة تعليمية زاهرة فى الدولة المصرية . ولقد كان لثقافة الأستاذ خطاب عطية فى الجامعة وفى معهد التربية فضل فى توجيهه توجيهها سليما كان له أثره فى معالجة هذا البحث ، فقد أتبع له بما حصله من معلومات فى التربية والتعليم ، ومن تجاربه فى التدريس ، أن يلقى ضوءا ساطعا على كثير من مسائل التعليم فى العصر الفاطمى الأول ، الذى يعد بحق من أزهى العصور الإسلامية . ولا غرو فقد نجح الفاطميون فى تأسيس أمبراطورية مترامية الأطراف ، وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل الانادرا ، وكان لتلك الحضارة أثر كبير فى تشجيع العلم والتعليم فى ذلك العصر . وإن الجامع الأزهر ، الذى لا يزال يفد اليه الطلبة من كافة أرجاء العالم ، ليس الا أثرا من آثار هذه النهضة العلمية المباركة .

وعالج الأستاذ خطاب عطية نظم التعليم فى العصر الفاطمى فى السكتاتيب والمساجد ، وفى قصور الخلفاء ، وفى دار العلم التى أنشأها الخليفة الحاكم ، فتسكلم على مناهج الدراسة وأساليبها ، وأغراض التعليم ، وحياة المعلم والمتعلم ، وما كان للعقائد الشيعية التى دان بها الفاطميون من أثر فى توجيه التعليم وجهة خاصة ، ترمى الى تنشئة جيل جديد يخلص للخليفة الفاطمى والدولة الفاطمية .

وقد عنى الفاطميون بنشر عقائد مذهبهم عناية بالغة ، حتى إن بعض الوزراء والقضاة ألفوا الكتب والقوا المحاضرات فى عقائد هذا المذهب ، وحتموا على الاساتذة أن يعتمدوا على هذه الكتب فى التدريس ، وعلى الطلبة أن يرجعوا اليها فى دراساتهم . ومن ثم اتخذ الفاطميون التعليم أداة

لتحقيق اغراضهم السياسية ، ونشر عقائد مذهبهم في البلاد الاسلامية والعمل على اعتراف المسلمين بسيادتهم السياسية والروحية معا ، وقد أدر الفاطميون الأرزاق على الاساتذة والطلبة ، وساعدوا بذلك على ازدهار الحركة الفكرية ، فنبت في ذلك العصر عدد كبير من العلماء من أمثال بنى النعمان ، والمسبحى ، وابن الهيثم ، والقضاعى وغيرهم .

وكان لهذه السياسة التعليمية أثر كبير في حياة المصريين في عهد الفاطميين ، فقد أسرف خلفاؤهم في بناء المساجد التى اتخذوا منها دورا للتعليم ووقفوا عليها الأوقاف وزودوها بالسكتب ، وأسسوا فى القصر الفاطمى بالقاهرة مكتبة حوت مئات الألوف من السكتب فى مختلف العلوم والفنون .

على أنه يجب أن لا ننسى الصعوبة التى يصادفها كل من يتصدى لبحث مسائل التعليم العامة فى العصور الاسلامية . فالغزالي فى « فاتحة العلوم » و « إحياء علوم الدين » ، والزرنوجى فى « تعليم المتعلم طريق العلم » ، وابن خلدون فى « مقدمته » ، وحاجى خليفة فى « كشف الظنون » ، لم يتناولوا التعليم فى عصر معين أو من ناحية معينة ، وإنما تناولوه بصفة عامة ، ومن هنا وقف الأستاذ خطاب عطية أمام صعوبة مادية ، ولم يكن بد إذا من أن يرجع إلى المصادر التاريخية والأدبية الأصلية التى خلفها كتاب يعتمد عليهم ويعتد بآرائهم من أمثال السكندى ، ويحيى بن سعيد الانطاكى ، والمقدسى ، وياقوت ، وابن القفطى ، وابن أبى أصيبعة ، والقلقشندي ، والمقرئزى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى .

أما المراجع الحديثة فينبغى ألا نقلل من أهمية ما كتبه جولتسيهر ، وآدم

متز، وطوطح ، وسليمان رصد ، ومحب الدين الخطيب، و ابراهيم سلامة، وغيرهم .
ويمتاز كتاب الأستاذ خطاب عطية بسهولة العبارة ووضوحها وحسن
الترتيب ، وبسط الحقائق التاريخية وتحليلها وتناولها بالنقد والتعليق عليها بأراء
متزنة ، وبذلك استطاع أن يمدنا ببحث علمي مبتكر ، يلقي ضوءا ساطعا ،
يهتدى به الباحثون في تاريخ التعليم عند المسلمين بوجه عام ، وفي العصر
الفاطمي الأول بوجه خاص .

والأستاذ خطاب عطية يستحق لهذا كله ، كل ثناء وتقدير وتهنئة ، على
ما بذل من جهد ، وما نال من توفيق في سبيل إخراج هذا البحث المبتكر ،
الذي نرجو أن ينال تقدير الأساتذة والطلبة وسائر القراء .

حسن ابراهيم حسن

القاهرة في سبتمبر سنة ١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أما بعد فقد أدركت كثير من الأمم الغربية فضل تاريخ التربية والتعليم منذ زمن بعيد ، وعرفت ماله من عظيم النفع وكبير الأثر في تهذيب النشء وتقديم صناعة التعليم ، فتنافس علماءؤها في جمع فرائده ، ووضعوا فيه الكثير من الكتب الجليلة التي كان من شأنها أن ساعدت العلماء والطلاب على البحث والتنقيب ، ورجال التربية على تعرف أقوم السبل وأوضح المناهج في تربية الأحداث وتقويم الناشئين .

وقد دفعتني حاجة مصر إلى دراسة موضوعات التربية والتعليم في عصورها التاريخية الغابرة الى الكتابة في تاريخ التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول (٣٥٨ - ٤٦٥ هـ = ٩٦٨ - ١٠٧٢ م) ، فتقدمت بهذه الرسالة إلى جامعة فؤاد الأول واستطعت فيها ان أضع صورة واضحة لنظم التعليم وأساليبه وتاريخه في مصر في ذلك العصر المذكور ، الذي يعتبر بحق عصر أزهبياً في تاريخ مصر الإسلامية . ولا يفوتني في هذا المقام ان أذكر بالتقدير والشكر فضل أستاذي الدكتور حسن إبراهيم حسن ، أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، فقيدي أنار لي الطريق وأمدني بفيض من إرشاداته ،

وهداني إلى كثير من المراجع مما كان له أكبر الأثر في إعداد هذا البحث وإخراجه .

ولقد اشتمل هذا الكتاب على خمسة أبواب وخاتمة ، عالجت في الباب الأول منها التعليم في مصر قبيل العصر الفاطمي ، وقدمت فيه شيئاً عن التعليم في البلاد الإسلامية وما كان للقرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم من أثر كبير في قيام كثير من المعاهد ، ثم شرحت في الباب الثاني نظام التعليم بالكتاب وعناية الفاطميين بتعليم الأطفال من أبناء الخلفاء والأمراء وسائر أفراد الشعب . أما الباب الثالث فقد تناولت فيه الكلام على مناهج التعليم ونظمه في المساجد التي كانت بمثابة مدارس للتعليم الثانوي والعالي في مصر في العصر الفاطمي . ثم أتيت في الباب الرابع جامعاً جامعة عظمى ومعهداً كبيراً من معاهد مصر الفاطمية هو « دار العلم » التي أسسها الحاكم بأمر الله للدرس ونشر المذهب الشيعي ، والتي استطاعت بفضل عناية الفاطميين لها أن تبذل كثيراً من المعاهد الشرقية والغربية . ولما كان الفاطميون يتخذون من القصر كذلك مدرسة للتعليم ، فقد أفردت له الباب الخامس وذكرت فيه الكثير عن ديوان الانشاء وخزائن الكتب الفاطمية ومراتب الدعوة الشيعية ، مما كان له صلة وثيقة بالعلم والتعليم والطلبة والمعلمين .

واعتمدت في كتابة هذا البحث على مراجع كثيرة ضمنها ثبتت المصادر في آخر هذا الكتاب ، وكان بعضها معاصراً للدولة الفاطمية وبعضها غير

معاصر لها ، ويمكن أن تنقسم هذه المراجع باعتبار موضوعها الى اقسام خمسة ، وسأشير في هذه المقدمة الى أهمها .

أولا : المراجع التاريخية التي تبحث في التاريخ السياسى للدولة الفاطمية . ومن هذه السكتب « تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى » وهو مؤرخ وطبيب نصرانى معاصر للدولة الفاطمية ، وكتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » لتقى الدين المقرئى . وهو يعد فى الواقع من أهم المصادر التى اعتمدت عليها فى هذا البحث إن لم يكن أهمها جميعا ، وكتاب « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » لجلال الدين السيوطى ، وقد انتفعت به فيما كتبه عن كثير من علماء الدولة الأخشيدية والدولة الفاطمية .

ثانيا : مراجع أدبية تبحث فى الأدب العربى وصناعة الأدباء . ومن هذه المصادر كتاب « قانون ديوان الرسائل » لعلى بن منجب الصيرفى ، وكتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء » للقلقشندى ، وهو سفر جليل القدر عظيم النفع كبير الفائدة .

ثالثا : مراجع عرض فيها مؤلفوها لتراجم الأدباء والعلماء والأطباء والوزراء الذين عاشوا فى كنف الدولة الفاطمية . ومن هذه المصادر كتاب « الولاة والقضاة » لأبى عمر السكندى ، وكتاب « الإشارة الى من نال الوزارة » لعلى بن منجب الصيرفى ، وكتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، وكتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » لابن القفطى ، وكتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة ، وكتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، وكتاب « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » لجلال الدين السيوطى .

وقد استطعت أن استنبط من دراسة هذه السكتب الشئ الكثير عن نظم التعليم في الدولة الفاطمية .

رابعا : مراجع مذهبية دينية أعانتني على دراسة الدعوة الفاطمية . وهي كتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادى ، وكتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم ، وكتاب « الملل والنحل » للشهرستانى .

خامسا : مراجع تربوية خالصة تبحث فى نظم التعليم فى العصور الاسلامية . ومن هذه المراجع كتاب « فاتحة العلوم » للغزالى ، وكتاب « تعليم المتعلم طريق التعلم للزرنوجى » ، و « المقدمة » لابن خلدون . وهى على قلة عددها كانت لها فائدة عظيمة ساعدتني على الوقوف على مبادئ التربية الاسلامية .

ولم يفتنى أن انتفع بالكثير من المراجع الحديثة التى أعانتني على إخراج هذا السكتاب وساعدتني على استيفاء كثير من النقط الهامة . ومن بينها كتاب « الفاطميون فى مصر » للدكتور حسن ابراهيم حسن ، وكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » لجرجى زيدان ، وكتاب « التربية عند العرب » للدكتور خليل طوطح ، وكتاب « تاريخ التربية » للاستاذ مصطفى أمين ، هذا عدا الكثير من السكتب الأفرنجية التى كان لابد لى من الرجوع اليها ، والتى أشرت اليها فى ثبت المصادر .

قامت فى مصر نهضة تعليمية اسلامية على أثر الفتح الاسلامى ، كان مركزها جامع عمرو بالقسطاط ، وكان القائمون بالتعليم فيها الصحابة والتابعين . ثم لم يلبث المصريون أن أصبحوا معلمين يلقون العلم فى مجالسه ،

ولهم تلاميذ يأخذون عنهم العلم ويرحلون الى البلاد في طلبه والتزود منه . ولما دخل الفاطميون مصر وأقيمت الدعوة للمذهب الفاطمي في المساجد الجامعة ، أسس الجامع الأزهر في القاهرة ليكون مركزا هاما لبث عقائد هذه الدعوة ، ولسكنه لم يلبث أن أصبح جامعة علمية جليلة القدر كبيرة الشأن ، وأن يكون ملاذا لطلاب العلوم الاسلامية ليس في مصر فحسب ، بل في كافة أنحاء العالم الاسلامي .

كان التعليم في مصر في العصر الفاطمي يقوم في الكتاتيب والمساجد ، فقد كان الكتاب منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، مدرسة يحفظ فيها أبناء المسلمين القرآن الكريم ، ويتعلمون مبادئ القراءة والكتابة ، ثم ينتقل المتعلم بعد ذلك الى المسجد حيث يدرس على يد مشاهير الأساتذة والمدرسين . وكانت نظم الدراسة في هذه المساجد على اختلافها هي نظام الحلقات العلمية ، ولم تسكن مدة الدراسة محدودة بزمن ، وكان أساس مقياس المستوى العلمي الذي حصله التلميذ أو الطالب يتوقف الى حد كبير على عدد الكتب التي قرأها وعلى قدر شهرة المشايخ الذين درس عليهم . وكان الطلبة لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقة بل كثيرا ما رتبت لهم ولاساتذتهم إعطية وأرزاق تكفي لنفقاتهم الخاصة . وقد حث الكثيرين من أبناء الأقطار الشقيقة على الرحلة الى مصر للتعلم بها ما كانت عليه القاهرة من الحضارة ، وما كان فيها من مشاهير العلماء والمدرسين ، وما اتخذه الفاطميون من توفير أسباب الراحة لطلاب العلم الغرباء . وما عناية الدولة المصرية الآن بطلاب الأزهر ، واسكان الغرباء منهم في الأروقة الملحقة به ، والانفاق على طلابه ، إلا استمرار لما كان يقوم به الفاطميون .

وقد أنشأ الحاكم بأمر الله بالقاهرة في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ معهداً خاصاً عني بتأنيته وزخرفته عناية فائقة ، وحمل إليه من خزائن القصور المعمورة مجموعات عظيمة من الكتب ، ورصد للانفاق عليه وعلى طلابه وأساتذته أموال ضخمة . ذلك هو « دار العلم » التي كان يتلقى فيها الطلاب إلى جانب علوم آل البيت ، وفقه الشيعة ، وعلوم اللغة ، الكثير من علوم الطب والرياضة والفلسفة والمنطق . فبينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية ، كان يصطبغ منهج هذه الجامعة الناشئة بالصبغة العلمية ويساعد على تخرج طائفة من الأطباء والفلاسفة يعملون إلى جانب الفقهاء الذين يتخرجون في المساجد . ولا يفوتني أن أسجل هنا أن إنشاء جامعة الحاكم هذه في مكان مستقل بعيد عن أماكن عبادة الله سبحانه وتعالى ، ليعد خطوة جريئة في تاريخ تطور المدرسة . هذا بالإضافة إلى أن منهجها كان يجمع بين علوم الدين والدنيا ، ويعد المتعلم لهذه الحياة والحياة الآخرة ، ويقوم بالتدريس فيها علماء الدين إلى جانب الأطباء والفلاسفة ، وهو ما لم يكن له وجود في المساجد التي كان من شأنها أن تعد الفرد للحياة الآخرة ، فهي بيوت الله عز وجل ، والقائمون بالتعليم فيها ، هم رجال الدين .

أما عن القصور الفاطمية الزاهرة ، فقد كانت كذلك من أهم معاهد العلم الفاطمية ، لما كان يعقد بها من مجالس الأدب والشعر والمناظرة ، ولما كان يقوم فيها من مجالس الحكمة التي كانت بمثابة مدرسة للتلاميذ الشيعة يتلقون فيها محاضرات في أصول الدعوة الفاطمية ، لاتخلو من دراسة للقرآن الكريم وفقه آل البيت كما تدعوا لى دراسة فلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان القدماء . وكان بالقصر إلى جانب هذه الدراسات ديوان للانشاء يعلم فن الكتابة والأدب للخليفة ولأولاده ولغيرهم من أبناء

الأمراء وأرباب الدواوين . أما خزائن السكتب بالقصر فكان لها أجل الأثر في التعليم ، فهي فضلا عن أنها كانت تساعد الخليفة وأبناءه وخدامه من كتاب ديوان الانشاء والدعاة وغيرهم ، فانها كثيرا ما كانت تمد معاهد التعليم الفاطمية بالسكتب القيمة والمؤلفات النادرة ، لكي تكون في متناول الطلبة والمعلمين يفيدون منها في العلوم والآداب .

وهكذا نرى أن الفاطميين قد عنوا بالعلم والتعليم ، وتفوقوا على غيرهم في هذا الميدان ، وظل الأمر على هذا الحال طوال العصر الفاطمي الأول إلى أن نكبت مصر بكثير من الضعف والاضطراب في عهد المستنصر الفاطمي ، وعانت البلاد ويلات القحط والوباء أعواما طويلة ، فكان لهذا أسوأ الأثر في التعليم ، فقد عجزت الدولة عن الإنفاق على معاهد العلم لنضوب مواردها ، وبددت خزائن السكتب النفيسة ، وانصرف الناس عن طلب العلم إلى طلب القوت . وفي أواخر أيام الدولة الفاطمية أشتد الميل نحو المذهب السني واستطاع أحد وزراء الفاطميين أن يؤسس مدرسة للشافعية بالاسكندرية سنة ٥٤٦ هـ تدعو للمذهب السني وتمهد الطريق لظهور المدارس في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي بعد سقوط الدولة الفاطمية .

تلك هي بعض آثار الفاطميين في العلم والتعليم ، وتلك هي نظمهم ، وهي لم تخل من بعض العيوب والمآخذ التي أشرت إليها في صلب هذا السكتب ، وليسكنها على وجه العموم استطاعت أن تجذب إليها الكثير من الطلاب ، وأن تساعد على تكوين اعلام المفكرين والأدباء . وقد بذلت جهدا كبيرا في الكشف عنها ، وأرجو أن أكون قد وفقت بفضل الله ومعونته .

محتويات الكتاب

صفحة

تصدير الكتاب بقلم الأستاذ حسن ابراهيم حسن أستاذ التاريخ	
الإسلامي ورئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول	٣
مقدمة	٧
محتويات الكتاب	١٤

الباب الأول : التعليم في مصر قبيل العصر الفاطمي

التعليم في البلاد الإسلامية من ظهور الإسلام حتى قيام الدولة

الإخشيدية بمصر	١٨
١ - أثر القرآن في التعليم	١٨
٢ - اهتمام الرسول بالتعليم	٢٠
٣ - النهضة التعليمية في الدول الإسلامية بعد عهد الرسول	٢٢
٤ - معاهد التعليم في الإسلام	٢٣
٥ - التعليم في مصر من الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة	
الإخشيدية (٢٠ - ٣٢٣ هـ)	٢٦
عناية الإخشيديين بالتعليم	٤٢
معاهد التعليم بمصر في عهد الإخشيديين (٣٢٣ - ٥٣٥ هـ)	٤٥
١ - جامع عمرو	٤٧
٢ - جامع ابن طولون	٤٩
٣ - مواد الدراسة - المعلمون وأشهر العلماء	٥١

صفحة	
٥٥	أغراض التعليم في مصر في عهد الإخشيديين
٥٨	قيام الدولة الفاطمية وأثرها في التعليم

الباب الثاني : السكتاتيب في العصر الفاطمي

٦٦	عناية الفاطميين بتعليم الأطفال
٧٠	الكتاب
٧٢	منهج الدراسة بالكتاب
٧٩	معلو السكتاتيب
٨٥	أغراض التعليم في الكتاب

الباب الثالث : التعليم في المساجد

٩٠	أثر المذهب الفاطمي في التعليم
١٠٠	التعليم في المساجد
١٠٠	١ - التعليم في جامعي عمرو وابن طولون
١٠٧	٢ - التعليم في الجامع الأزهر
١١٨	٣ - التعليم في جامع الحاكم وغيره من المساجد
١٢١	مناهج التعليم ونظمه
١٢١	١ - مواد الدراسة والكتب الدراسية
١٣٣	٢ - أساليب الدراسة بالمساجد
١٤١	٣ - المتعلمون
١٤٥	٤ - المعلمون

الباب الرابع : التعليم في دار العلم

١٥٢	تأسيس دار العلم
١٥٥	التعليم في دار العلم
١٦٠	المتعلمون بدار العلم
١٦٥	موازنة بين دار العلم وغيرها من معاهد التعليم في الشرق والغرب
١٦٩	رأينا في نظم التعليم في المساجد ودار العلم

الباب الخامس : التعليم في القصر

١٧٦	عناية الفاطميين بالعلم والآداب
١٨٢	ديوان الإنشاء
١٨٨	خزائن السكتب
١٩٦	الدعوة الفاطمية في القصر
٢١٥	خاتمة
٢٢٥	مصادر الكتاب
٢٣٣	فهرست عام

البَابُ الْأَوَّلُ

التعليم في مصر قبيل العصر الفاطمي

التعليم في البلاد الإسلامية

من ظهور الاسلام حتى قيام الدولة الاخشيديية بمصر

١ - أثر القرآن في التعليم :

لم يكن للعرب قوانين معروفة حتى جاء الاسلام بقانون سماوى هو القرآن الكريم الذى (لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد^(١)) فنظم المعاملات كما شرع للمسلمين العبادات^(٢) ووجههم نحو الخير وعرفهم الصلة بين العبد وربّه .

وقد جاء فى القرآن آيات خاصة بتفضيل العلم والعلماء ، وكانت هذه الآيات من أهم الأسباب فى اقبال الناس على العلم يتعلمونه ويعلمونه حسبة من غير ما نظر إلى منفعة مادية أو أجر على التعليم ، وانما كانوا يطلبون رضا الله وحسن ثواب الآخرة الذى هو خير وأبقى .

والواقع أن القراءة لم تنتشر فى بلاد العرب إلا بعد ظهور القرآن . وكأما كان لفظ القرآن الذى معناه القراءة^(٣) ايذاناً فى الجزيرة العربية بدعوة الناس الى القراءة والكتابة . وقد حث القرآن على تعلمهما حثاً قوياً نلهمه فى أول آية نزلت منه اذ قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم^(٤)) .

(١) سورة فصلت . آية ٤٢ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن — تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٢١٧ و ٢١٨ .

(٣) راجع مادة قرأ فى القاموس المحيط .

(٤) سورة العلق . الآيات من ١ — ٥ .

ومهما يكن من أمر فإن انتشار القراءة والتربية والتعليم راجع الى القرآن فهناك علوم ومعارف استنبطت منه لا يستهان بها . وكما أن النصراني واليهود قبلوا على تعلم القراءة وفتح المدارس في الشرق والغرب لدراسة الكتب الدينية كذلك أهتم المسلمون بنشر التعليم لتعلم القرآن^(١).

وعندما انزل القرآن على العرب وصار لهم هذا الكتاب المبين مرجعا يرجعون اليه في أمور العبادة وفي المسائل الاجتماعية والسياسية اهتموا به اهتماما عظيما وانطبعت أوامره ونواهيها في افئدتهم وأرسمت عباراته على ألسنة أدبائهم فاقبضوا أساليبه في خطبهم ورسائلهم وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم وظهرت آدابه وتعاليمه في أخلاقهم وعاداتهم . وأستشهدوا بأقواله ونصوصه في علومهم اللسانية والشرعية^(٢). ويحسن بنا أن نسوق هنا ما يقوله الدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه « تاريخ الاسلام السياسي »^(٣) ، « رأى العرب في بلاغة القرآن وروعة أسلوبه ما بهرهم واستثار إعجابهم فانساقوا إلى تقليده ومحاكاته ، وما يقوله الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « الاسلام والحضارة العربية »^(٤) ، « والقرآن أبلغ كتاب للعرب ولولاه لما كان لهم أدب ولا شريعة (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) ، » .

وقد عني المسلمون بتدوين القرآن وحفظه عناية عظيمة فكتبوه على صفائح ذهب وعلى صفائح العاج وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباغ

(١) طوطح — التربية عند العرب ص ٨ .

(٢) جرجي زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي . ج ٣ ص ٦٢ .

(٣) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٤) ج ١ ص ٦٧ .

وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ونقشوها على الجدران في المساجد والمسكبات والمجالس (١).

وصفوة القول أن الفضل الأكبر في انتشار القراءة والكتابة وتأسيس المدارس ونشر التعليم في البلاد الإسلامية كان مرجعه إلى القرآن . وقد صدق طوطح (٢) اذ يقول كان القرآن « البراءة الأولى للتربية عند العرب ».

٢ — اهتمام الرسول بالعلم :

راى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الأمر أن لا بد للعرب من تعلم الكتابة والقراءة فحث على تعليمهما وشجع العرب على ذلك ، وكان يرى أن تعليم الكتابة ضرورى لنشر الدين الجديد كما أنه ضرورى لحفظ العلم ، فتراه صلى الله عليه وسلم يقول (٣) « قيدوا العلم بالكتابة » ثم يقول (٤) « اكتبوا ما تسمعون من الحكم ولو في بياض النواظر باطراف الخناجر » ومن قوله (٥) كذلك « طلب العلم فريضة على كل مسلم ».

وبلغ من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم القراءة والكتابة وتقديره للعلم أنه قبل من أسرى قريش أن يفدى الواحد منهم نفسه بتعليم

(١) جرجى زيدان — تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٦٣ .

(٢) التربية عند العرب ص ٨ .

(٣) اراغب الاصفهاني — محاضرات الأدباء ص ٢١ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٥) ابن عيد البر القرطبي — جامع بيان العلم ص ٩ ، حاجى خليفة — كشف

الظنون ج ١ ص ٢٥ ، الزرنوجى — تعليم المتعلم ص ٣ .

عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة^(١). وقد ذكر جولد تسيهر^(٢) في هذا الصدد أنه كان على كل قرشي أسير يستطيع القراءة والكتابة تعليم اثني عشر صبيا يصبح بعد تعليمهم حرا طليقا. ولكننا لم نعثر في أى مصدر من المصادر الأصلية على ما يؤيد عبارة جولد تسيهر.

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على تعليم اللغة العربية بل لقد أثر عنه أنه حث بعض أصحابه على تعلم لغة أخرى غير اللغة العربية لما دعت الحاجة الى ذلك بعد انتشار الإسلام. فقد ورد في البخارى عن زيد ابن ثابت قال^(٣) : « أتى بي النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة فقيل : هذا من بني النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأت عليه فأعجبه ذلك . فقال : تعلم كتاب يهود فإنى ما آمنهم على كتابى ففعلت . فما مضى لى نصف شهر حتى حذفته ، فمكنت أكتب له اليهم وإذا كتبوا اليه قرأت له . » كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث الرجال على أن يعلموا أهلهم وذويهم^(٤).

وكما اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم وتعلمه وتعليمه كذلك اهتم العلماء وبين منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى . فقد قال^(٥) صلى الله عليه وسلم : « ما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيها علما إلا سهل الله له طريقا الى الجنة ،

(١) أحمد أمين — فجر الإسلام ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) Goldziher: Muslim Education, vol.5, Encyclopaedia of Religion and Ethics, p. 198.

(٣) أحمد أمين — فجر الإسلام ج ١ ص ١٧٥ .

(٤) الدكتور حسن ابراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٦٣٥ .

(٥) ابن عبد البر القرطبي — جامع بيان العلم ص ١٣ .

وقال (١) كذلك في موضع آخر « ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وتنزل عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » .

وهناك أحاديث نبوية أخرى يضيق المقام عن ذكرها أحاطت العلماء والمتعلمين بهالة من التبجيل والاحترام وجعلت المتعلم يحب معلمه حبا يوشك أن يكون تقديسا . وهكذا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسن قانونا يتبعه المسلمون من بعده ، وظل هذا القانون نبراسا يستضيئون به ونهجاً يسيرون عليه في حياة البلاد الإسلامية ونهضتها العلمية في العصور التالية (٢) .

٣ — النهضة التعليمية في الدول الإسلامية بعد عهد الرسول :

عنى الدين الاسلامى بالعلم وتشجيعه والدعوة إلى تحصيله ، فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز (٣) (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال (٤) « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا العلم فإن تعلمه لله تعالى خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة » . كذلك قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم البركة بالعلم فقال (٥) « إذا أتى على يوم لا ازداد فيه علما يقربني الى الله زلفي فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم » . وكان

(١) ابن عبد البر القرطبي — جامع بيان العلم من ١٣ .

(٢) راجع جولد تسيهر في مقاله عن التعليم الاسلامى .

(٣) سورة المجادلة آية ١١ .

(٤) حاجي خليفة — كشف الظنون ج ١ ص ١٢ .

(٥) الفزالي — فاتحة العلوم ص ٣ .

الصحابة أنفسهم مشغوفين بسماع الرسول والأخذ عنه حتى كان الرجل إذا لم يستطع أن يذهب إلى مجلسه أناب عنه صديقاله ، ثم يتعلم منه آخر النهار ما قاله الرسول^(١) . وقد استفاد كثيرون من هؤلاء الصحابة من صحبتهم للرسول ونبغوا في كثير من العلوم^(٢) .

وهكذا كان الرسول أول معلم في الاسلام وكانت الصحابة أول من تلقى العلم على يديه ، ثم لم يلبث هؤلاء أن أصبحوا بعد وفاة الرسول معلمين بأنفسهم والتف حولهم تلاميذ يأخذون عنهم العلم وينشرونه بين الناس .

ولم يكن التعليم في ذلك الوقت مهنة أو صناعة عند العرب ، أى أن المعلمين لم يتخذوا التعليم حرفة يكسبون بها عيشهم بل علموا القرآن لغرض ديني هو هو القربى الى الله تعالى وابتغاء مرضاته واحياء دينه ونشر دعوته وخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصلاح أمته^(٣) . ويؤيد هذا القول ما ذكره ابن خلدون^(٤) : « وإن التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعلما لما جهل من الدين على جهة البلاغ ، فكان أهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبرى لا على وجه التعليم الصناعى ، إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم » .

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن — تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٦٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٦٣٦ .

(٣) الغزالى — فاتحة العلوم ص ١٢ .

(٤) المقدمة ص ٣٢ .

ولما انتشر الاسلام واتسعت الامصار تفرق هؤلاء المعلمون من الصحابة والتابعين في المملكة الاسلامية^(١) وقاموا فيها بحركة تعليمية مباركة كان لها صبغة دينية ، وان شئت فقل وزعوا على الامصار قصدا إلى تعليمها . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدن جزيرة العرب^(٢) وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما اتسعت الفتوح وكثرت الامصار^(٣) . هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا في الامصار انشأوا حركة علمية في كل مصر نزلوا به وكونوا مدارس وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم^(٤) .

كان التعليم في البلاد الاسلامية في أول الأمر مقصورا على العلوم الدينية وهي القرآن وتفسيره والحديث وروايته واستنباط الاحكام الفقهية والفتاوى الشرعية . يقول صاحب كشف الظنون^(٥) « فكانت العرب في صدر الاسلام لا تعتنى بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها وبصناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم لحاجة الناس طرا إليها ، وذلك منهم صونا لقواعد الاسلام وعقائد أهله عن تطرق الخلل من علوم الاوائل قبل الرسوخ والاحكام ... واستمر ذلك الى آخر عصر التابعين ثم حدث اختلاف الآراء وانتشار المذاهب فال الأمر إلى التدوين » . ويقول كذلك الدكتور حسن ابراهيم^(٦) « نلاحظ أن ما نشر من العلوم في عهد بني أمية كان مرتبطا منها بالدين بعكس ما كانت عليه الحال في أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٦٣٦ .

(٢) ابن خلدون — المقدمة ص ٣٢ .

(٣) أحمد أمين فجر الاسلام ج ١ ص ١٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٧ .

(٥) ج ١ ص ٢١ .

(٦) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٦٣٧ .

الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول الفقه . وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه ... ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب ... وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية . ولسكن لا يفوتنا أن نذكر هنا أن الفقه والقراءة والتفسير والحديث كانت علما واحدا في أول الأمر ثم استقلت بعضها عن بعض تبعا لناموس الارتقاء (١) .

هذا فيما يختص بالعلوم النقلية أما العلوم العقلية فكانت قليلة في عهد الأمويين ويؤيد هذا القول ما كتبه صاحب كشف الظنون (٢) « واعلم أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية » وما قاله الدكتور حسن إبراهيم (٣) « بيد أن اشتغال العرب بالعلوم العقلية من كيمياء وطب وفلك وتاريخ ونحوها لم يكن له أثر إلا في صدر الدولة العباسية وعلى الأخص في عهد المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) الذي حمل لواء حركة الترجمة والنقل من اليونانية والفارسية والهندية .

وفي الحق أن بني أمية أعدوا البلاد للعباسيين ولولا جهودهم في الفتح والتنظيم والادارة لما تمكن العباسيون من القيام بما قاموا به من تعصيد العلم والتعليم وترجمة الكتب ونشر الثقافة العربية . فاز العباسيون بالخلافة وبنوا بغداد واحتكوا بالفرس ورفعوا شأن الموالي وخاطبوا الأعاجم ، وهكذا

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٧ ، أحمد أمين — ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣٦٢ .

(٢) كشف الظنون ج ١ ص ٢٢ .

(٣) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٦٤٠ .

ابتعدوا عن المحيط العربي المحض وأصبحوا مكتنفين بمحيط جديد وحياة جديدة والمعروف أنهم اكتسبوا ثقافة الفرس وتأثروا بمحيطهم الجديد وفتحوا الأبواب على مصاريعها لنبوغ الاعاجم^(١). وما يسترعى النظر أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم والتعليم كانوا من الموالي^(٢) وقد عقد ابن خلدون في المقدمة^(٣) فصلا عن أن «حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم». وهكذا نجد أن التعليم في هذا العصر العباسي قد تأثر تأثرا عظيما واتجه اتجاهاً جديداً، فقد كان قبل ذلك من أجل الله والدين فاستحال الى صناعة لا ابتغاء الرزق ورفع المنزلة في الدنيا وأقبل عليه من كان في حاجة الى تحصيل رزقه أو طمع في نيل منصب وترفع عنه من لم يكن في حاجة الى ذلك. ويؤيد هذا ابن خلدون فيقول^(٤) «فلما استقر الاسلام ووشجت عروق الملة حتى تناوله الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت برور الأيام أحوالها وكثر استنباط الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف... واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به سواهم وأصبح حرفة للعاش وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدى للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند أهل العصبية والملك».

(١) طوطح — تاريخ التربية عند العرب ص ١٠.

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٣٩ وما يليها.

(٣) ص ٦٣٦ — ٦٣٨.

(٤) المقدمة ص ٣٢.

وقال طوطح في كتابه « تاريخ التربية عند العرب » (١) ، وكان شأن العرب شأن بعض الأمم الأخرى الفاتحة ، اذ اشتغلت بالشئون العسكرية والادارية تاركة مهمة التعليم ومهنة الكتابة في الدواوين للموالى من الفرس والروم والاقباط .

قامت الدولة العباسية على رأس موالىها من أهل خراسان والعراق وكان هؤلاء الموالى شأن كبير في السياسة والعلم والتعليم كما أشرنا الى ذلك ، ودخل في الاسلام عدد كبير من الفرس والروم والمصريين كان منهم القراء الكبار والمحدثون العظام بجانب أخوانهم من العنصر العربى (٢) ، وكان من أثر هذا أن اختلطت علوم الأوائل التى كانت مهجورة فى عصر الدولة الأموية بعلوم الإسلام . فيقول صاحب كشف الظنون (٣) « واعلم أن علوم الأوائل كانت مهجورة فى عصر الأموية ولما ظهر آل العباس كان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) وكان رحمه الله تعالى مع براعته فى الفقه مقدما فى علم الفلسفة وخاصة فى النجوم حبا لأهلها . ثم لما افضت الخلافة إلى السابع عبدالله المأمون بن الرشيد (١٩٨ - ٢١٨ هـ) أتم ما بدأ به جده فأقبل على طلب العلم فى مواضعه واستخرجه من معادنه . . . فدخل ملوك الروم (٤) وسألهم وصلة ما لديهم

(١) ص ٣٧ .

(٢) الخضرى — التشرىع الاسلامى ص ١٧٠ .

(٣) ج ١ ص ٢٢ .

(٤) راجع ابن النديم (الفهرست ص ٢٤٣) فقد ذكر شيئا عما كان بين المأمون وملك الروم وعما قام به علماء ذلك العصر أمثال يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق وكانا =

من كتب الفلاسفة فبحثوا اليه منها بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو
وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم^(١) . واحضر لها مهرة

== طبيين نصرانيين (راجع ترجمة يوحنا بن ماسويه في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ١
ص ١٧٥ ، أخبار الحكماء للقفطي ص ٣٨٠ ، أما حنين بن اسحق فراجع في طبقات الأطباء
ج ١ ص ١٨٤ ، أخبار الحكماء ص ١٧٢) من حمل الكتب الى المأمون والقيام بنقلها وقد
كان جلها في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

(١) هؤلاء هم فلاسفة اليونان القدماء فقد كان أفلاطون أحد أساطين الحكمة وله كتب
كثيرة منها كتاب السياسة وقد فسر له حنين بن اسحق (راجع ترجمة أفلاطون في الفهرست
لابن الفديم ص ٢٤٥ ، أخبار الحكماء للقفطي ص ١٧ وما يليها ، طبقات الأطباء لابن
أبي أصيبعة ج ١ ص ٤٩ وما يليها) .

أما أرسطو فهو تلميذ أفلاطون وكان فيلسوفا عالما خطيبا وطيبيا ومن مؤلفاته التي نقلت
الى العربية كتاب السكون والفساد وكتاب النفس وكتاب الحيوان وغيرها . (راجع
ترجمته في الفهرست ص ٢٤٦ ، أخبار الحكماء ص ٢٧ ، طبقات الأطباء ج ١ ص ٥٤) .
أما بقراط فهو من الأطباء اليونانيين المشهورين وقد عني بعلوم الفلسفة كأبناء عصره
ومن كتبه المنقولة كتاب عهد بقراط وكتاب الفصول وكتاب الأمراض الحادة وغيرها .
(راجع ترجمته في أخبار الحكماء ص ٩٠ ، وطبقات الأطباء ج ١ ص ٢٤ ، تاريخ
التمدن الاسلامي لزيدان ج ٣ ص ١٥٤) .

أما جالينوس فهو الحكيم الفيلسوف اليوناني وهو مؤلف الكتب الجليلية في صناعة الطب
وله ستة عشر ديوانا شرط على طالب الطب حفظها وقد نقلها كلها حنين بن اسحق الى العربية
(راجع ترجمة جالينوس في أخبار الحكماء ص ١٢٢ ، طبقات الأطباء ج ١ ص ٧١) .
أما لأقليدس فهو المظهر للهندسة المبرز فيها (راجع ترجمته في الفهرست ص ٢٦٥ ،
أخبار الحكماء ص ٦٢) .

أما بطليموس فهو صاحب المجسطى وغيره وكان إماما في الرياضة وانتهى اليه علم حركات
النجوم ومعرفة أسرار الفلك وكتابه المجسطى يبحث في علم الفلك وحركات النجوم
وقد عني بتفسيره وإخراجه الى العربية كثيرون . (راجع ترجمة بطليموس في أخبار الحكماء
ص ٩٥) .

المترجمين فترجموا له على غاية ما أمكن . ثم كلف الناس قراءتها ورغبهم في تعلمها ، إذ المقصود من المنع هو احكام قواعد الإسلام ورسوخ عقائد الأنام وقد حصل وانقضى وقامت دولة الحكمة في عصره وكذلك سائر الفنون ،

واذا فقد ساعد الموالى بدخولهم في أحضان الدولة العباسية على أن يكون هذا العصر هو العصر الذهبي في تاريخ الترجمة والنقل عند العرب ، واستطاعوا لا تقاهم السريانية واليونانية أن ينقلوا الى اللسان العربي كل ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدينة^(١)

(ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية أن الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل هذه الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والسكرم بقطع النظر عن مللهم أو نحلهم أو انسابهم^(٢)) حتى ان صاحب كشف الظنون يقول^(٣) في هذه المناسبة « والحق أن أعظم الأسباب في رواج العلم وكساده رغبة الملوك في كل عصر . وثمة عامل آخر كان له القدح المعلن في نشر العلم والتعليم (هو استعمال الورق) ، فما لا شك فيه أن حركة العلم وتدوينه في العصر العباسي ما كانت تصل الى ذلك القدر من الرقي لو ظلت أدوات الكتابة على حالتها الأولى من السداجة

(١) جرجي زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٦٣ ، راجع

Graves : A History of Education during the Middle Ages, p. 41.

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٦٤ .

(٣) ج ١ ص ٢٢ .

أو الندرة^(١). فالتعليم إذن مدين لصناعة الورق الذى به كثرت الكتب والمكتبات وخزائنها وأصبحت مصدرا عظيما للثقافة فساعدت المتعلمين على ارتشاف مناهل العلم ، وربما كان تأثير استعمال الورق فى النهضة العلمية فى الإسلام مثل تأثير فن الطباعة فى النهضة الأوروبية فى أواخر العصور الوسطى^(٢).

ويؤيد تقدم التعليم فى ذلك العصر ما يقوله جولد تسيهر^(٣) فى الفصل الذى عقده فى التربية الإسلامية فقد قال إن تقدم المعارف والعلوم فى الدولة العباسية كان من الطبيعى أن يصحبه تقدم مشابه فى التعليم ، فقد ثبت أن المتعلمين كانوا يقبلون على التعليم قلبا وقالبا كما أنه نشأ فى ذلك العصر معاهد للتعليم العالى .

« وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل حتى لقد بدا أن الناس جميعا من الخليفة الى أقل أفراد العامة شأنًا قد غدوا جفاة طلابا للعلم أو على الأقل أنصارا للأدب . وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا وراء موارد العلم والعرفان ثم يعودون الى بلادهم كالنحل يحملون الشهد الى جموع التلاميذ المتلهفين ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التى هى أشبه شئ بدوائر المعارف^(٤) » .

(١) أحمد أمين — ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢١ وما يليها .

(٢) طوطح — تاريخ التربية عند العرب ص ١١ .

(٣) راجع :

Goldziher : Muslim Education, vol. 5, Enc. of Religion and Ethics, p. 199.

(٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٢٤٠ نقلا عن

Nicholson : A Literary History of the Arabs, p. 281.

ولقد تأثر المسلمون بهذه العلوم التي نقلوها الى اللغة العربية فلم تسكد تعرف لديهم حتى أخذوا في درسها والاشتغال بها ، وكان اشتغالهم بها في أول الأمر لا يتعدى النظر والتلخيص والشرح حتى اذا كسبوا ملكاتها ونضج تمدنهم وانتشرت العلوم في البلاد أخذوا يتدبرون كل علم يدرسونه منها ويحققون مسائله بكل ما أوتوا من قوة عقل وصحة فهم وأصبحت العلوم عمدها النظر والقياس والتحليل والتركيب .

وكانت بغداد أثناء هذه النهضة العباسية كعبة العلم ومقصد العلماء ولما اضطربت أحوال الخلافة بعد زمن المأمون ونشأت الدول الجديدة في مصر والاندلس تفرق العلماء وأصبح للعلم مراكز جديدة . وهكذا أثمرت بذور العلم التي ألقتها خلفاء النهضة العباسية في جميع العالم الإسلامي في خراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر ومصر الشام والاندلس وغيرها . واقتدى خلفاء هذه البلاد بخلفاء النهضة العباسية في ترغيب أهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم كالقاهرة وغيرها (١) .

وقد اعترف الأوروبيون أنفسهم بأهمية هذه النهضة العلمية التي أخذوا عنها عن طريق الأندلس وكانت سببا في حركة إحياء العلوم الأوروبية وقيام الجامعات باوربا فقد ذكر كبرلى (٢) أن من الأسباب الرئيسية التي مهدت السبيل لقيام الجامعات في القرن الثالث عشر الميلادى وحركة إحياء العلوم في القرن الرابع عشر الميلادى هو ذلك التقدم السريع للتمدن الاسلامى

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ص ٣ ص ١٦٧ و ١٦٨ وما يليها .

(٢) Cubberly : Readings in the History of Education, p p. 127, 129.

والعلوم الاسلامية في اسبانيا فقد كان الاوريون تائهين في دياجير الجهالة بعيدين عن العلم الصحيح والأخذ بأسبابه .

وبينما كانت قصور الخلفاء في اسبانيا قد زخرفت وزينت بأبهى المناظر وأجملها كان امراء اوربا في المانيا وفرنسا وانجلترا يكادون يقيمون في أماكن هي أشبه بالاصطبلات منها بالدور والمنازل ، فلا غرابة اذن أن يقبل الأوريون على تعلم اللغة العربية فيتنذوقوا حلاوة علومها وما نقل إليها ويتعلموا العلم على ايدي علماء المسلمين وفلاسفتهم ويدرسونه في تواليهم . وقد نزح الى الاندلس طلبة العلم من ايطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا ثم عادوا إلى بلادهم فأقاموا المدارس والمعاهد التي أقبل الناس عليها سراعا (١) .

٤ — معاهد التعليم في الاسلام :

كان الكتاب أول هذه المعاهد وكان يتعلم فيه الصبيان مبادئ القراءة والكتابة والقرآن (٢) .

ولما كان الباعث على انشاء المدارس في الأزمنة الغابرة دينيا لهذا استعمل الناس قبل الاسلام أماكن العبادة كالكنائس والأديرة للتدريس وقام رجال الدين بمهمة تعليم الأولاد (٣) . ذلك ما فعله النصارى وهو ما فعله المسلمون إذ جعلوا الجامع مكانا للتعليم .

فالمسجد في الاسلام لم يكن مكانا للعبادة فحسب ولكن كانت تؤدي فيه

(١) مصطفى أمين — تاريخ التربية ص ١٦٧ .

(٢) سنعرض للكلام على الكتاب كمهد للطفولة في الباب الثاني .

(٣) مصطفى أمين — تاريخ التربية ص ١٧١ ، طوطج — تاريخ التربية عند العرب

أعمال أخرى ، فقد كان محكمة للتقاضى ومعهدا هاما للدراسة^(١) . فمن مبدأ الاسلام جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد واتخذ منه مجلسا للقضاء ومدرسة للتعليم ، ففي البخارى أنه بينا رسول الله (ص) جالس في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فوقف اثنان على رسول الله (ص) فرأى أحدهما فرجة في الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفه^(٢) .

واستمر المسجد مكانا لتعليم القرآن والحديث والفقہ حتى تنوعت العلوم في العصر العباسي فتنوعت كذلك حلقات الدرس فكان في مسجد البصرة مثلا حلقة للجدل وحلقات أخرى للشعر والأدب^(٣) وكان في كل مسجد خزانة كتب للمطالعة والدرس^(٤) .

لم يكن للمكتبات شأن كبير قبل النهضة العباسية^(٥) ، فلها نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي وتقدمت صناعة الورق كثرت المكتبات التي كانت تزخر بالسكتب الدينية والعلمية والأدبية وصارت هذه المكتبات من أهم مراكز التعليم .

ومن أكبر خزائن السكتب في العراق في العصر العباسي بيت الحكمة^(٦)

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن — الفاطميون في مصر ص ١١٩ و ١٢٠ ، متر الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) راجع أحمد أمين — ضحى الاسلام ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٤) زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٠٠ ، متر — الحضارة الاسلامية

ج ١ ص ٣٨٦

(٥) تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٦) يرجع أن الرشيد هو الذى وضع أساسه وعمل المؤمنون على تنميته فأمدّه بالسكتب

المختلفة والمصنفات العديدة (راجع تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٥٨ ، الدكتور أحمد فريد رفاعي — عصر المؤمنون ج ١ ص ٣٧٥) وسنعود للكلام عليه في الباب الرابع .

ويعد في الواقع معهدا عاليا للعلوم العالية كالرياضيات والفلك وغيرها (١).
فانشاء هذا المعهد العالى كان نتيجة لهذا التقدم العلمى فى العصر العباسى ، ومما
لا شك فيه أنه ساعد على نشر التعليم بين جمهور المسلمين .

ولم يكن انشاء دور الكتب مقصورا على العراق بل قامت فى مصر
والاندلس دور كتب هامة تعيدها الخلفاء والوزراء وكانت عاملا كبيرا فى
تسهيل دراسة العلم والتعليم .

لم يكن التعليم عند المسلمين خاصا بالجوامع والمساجد فكثيرا ما كانوا
ينشئون حلقات التدريس فى المستشفيات (٢) والرباطات وغيرها من الأماكن ،
أما الأغنياء كالخلفاء والأمراء وغيرهم فكانوا يعهدون إلى معلمين لتعليم أبنائهم .
ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نشير إلى ما كان لمجالس المناظرة (٣) فى قصور
الخلفاء ودور الأمراء والوزراء أو المساجد من أثر فى التعليم ، فقد كانت
هناك مناظرات بين العلماء وعلى الأخص فى العصر العباسى فى الفقه والنحو
والصرف وفى اللغة والمشاكل الدينية ، وساعدت هذه المناظرات التى
قامت فى جميع البلاد الاسلامية على توضيح كثير من المشاكل الدينية واللغوية
والعلمية بوجه عام .

أما المدارس المستقلة الخاصة بالتدريس على النحو الذى نعهده اليوم فلم

(١) تاريخ التربية عند العرب ص ١٥

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٠٠ وما يليها ، مصطفى أمين — تاريخ التربية

ص ١٧٢ ، راجع Goldziher: Muslim Education, pp. 199, 200.

(٣) عقد الغزالي فصلا عن المناظرة فى كتابه فاتحة العلوم (ص ٤٧ وما يليها) بين فيه
نشأتها وفوائدها وآفاتهما .

تؤسس الا في زمن متأخر ويكاد يجمع المؤرخون على أن أول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك الطوسي وزير السلطان ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس للهجرة^(١).

٥- التعليم في مصر من الفتح الاسلامي حتى قيام الدولة العثمانية
(٢٠ - ٥٣٣)

فتح المسلمون مصر والثقافة اليونانية الرومانية منتشرة فيها^(٢) فلما تم فتحها أقبل العرب عليها لما سمعوا بثروتها وخصب أرضها وكان استيلاؤهم عليها فاتحة لطجرات عربية متوالية دامت زمنا طويلا^(٣). نزل العرب بالمدن والارياف واتخذوا الزرع معاشا^(٤) وأخذ كثير من الاقباط يدخلون في الدين الاسلامي واختلطت انسابهم بأنساب المسلمين بما كان بينهم من تزواج^(٥). وكان من أثر هذا انتشار اللغة العربية في البلاد المصرية واقبال المصريين على تعلمها وضعف اللغتين القبطية واليونانية ونسيانهما^(٦).

وفد العرب على مصر وكان من بينهم هؤلاء الصحابة العلماء الذين رحلوا للتعليم فكانوا هم الذين قاموا بتعليم المصريين اللغة العربية والقرآن الكريم وما يتعلق به من علوم أخرى.

(١) ساعدو للاسلام على المدارس في الباب الرابع.

(٢) أحمد أمين — فجر الاسلام ج ١ ص ٢٣٣

(٣) المقرئى — الخطط ج ١ ص ١٢٨ و ١٢٩ ، الدكتور زكى محمد حسن — في مصر الاسلامية ص ١٠

(٤) المقرئى : الخطط ج ١ ص ١٢٨ وما يليها

(٥) الخطط ج ١ ص ١٣١ ، فجر الاسلام ج ١ ص ٢٣٣

(٦) الدكتور زكى حسن — في مصر الاسلامية ص ١١

قامت إذن نهضة تعليمية جديدة في مصر على أثر الفتح الاسلامي كان مركزها جامع عمرو بالفسطاط وكان القائمون بالتعليم الصحابة والتابعين وكانت العلوم التي تدرس عندئذ هي علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم ورواية لقراءته ورواية للحديث الشريف، وكان أشهر الصحابة الذين نزلوا بمصر وقاموا بالتعليم فيها هو عبد الله ^(١) بن عمرو بن العاص وكان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول عنه الأستاذ أحمد أمين ^(٢): «ويعده بحق مؤسس المدرسة المصرية فقد أخذ عنه كثير من مصر وكانوا يكتبون عنه ما يحدث». وأول من أقرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن جحيم المغافري ^(٣) وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. تلقى المصريون العلم في أول الأمر على أيدي المعلمين من الصحابة والتابعين ثم لم يلبثوا أن أصبحوا معلمين يلقون العلم في مجالسه ولهم تلاميذ مصريون يأخذونه عنهم ويرحلون إلى البلاد في طلبه والتزود منه ثم يعودون إلى مصر يدرسون ويتدارسون ويستنبطون منه الأحكام، فبنى مثلاً عثمان بن سعيد القفطي المصري المعروف بورش ^(٤) وكان من أصل قبضي وقد ولد بمصر ثم تعلم اللغة العربية وقراءة القرآن ورحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع ثم عاد إلى مصر واليه انتهت رئاسة ^(٥) الاقراء فيها وكانت وفاته سنة ١٩٧ هـ.

(١) أبو المحاسن — النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥٠ و ١٩٢، السيوطي — حسن

المحاضرة ج ١ ص ٩١

(٢) فجر الاسلام ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) الخطط ج ٤ ص ١٤٣

(٤) ياقوت — معجم الأدباء ج ١٢ ص ١١٦

(٥) السيوطي — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧

ونبغ كذلك جماعة من المعلمين المصريين في رواية الحديث وساعدوا على جمعه وتدوينه ورحلوا إلى الأقطار الإسلامية الأخرى في طلبه وقد وردت أحاديثهم في كتب الحديث المشهورة^(١)، كما تخرج في جامع عمرو مركز الدراسة الإسلامية الممتازة في مصر أقطاب الفقهاء والمحدثين مثل الليث^(٢) بن سعد وعبدالله بن وهب^(٣) فقد ولد الأول في إحدى قرى مصر وتعلم بها العلم ثم تراه يطوف البلدان طالبا له ثم يعود إلى مصر فقيها مبرزا ومعلما يعترف الشافعي بعلمه وتوفي بمصر سنة ١٧٥ هـ. أما عبد الله بن وهب فقد ولد بمصر أيضا ورحل إلى الحجاز والعراق طالبا للعلم وأخذ عن مالك ثم عاد إلى مصر وجلس بجامع عمرو وكان أستاذا لكثير من الفقهاء وتوفي سنة ١٩٧ هـ.

وقد نشط التعليم في مصر على أثر تعدد^(٤) المذاهب الفقهية فقد انحاز كل فريق من العلماء المصريين إلى مذهب يأخذ به ويدفع عنه ويعمل على

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٨٥ و ٨٦ ، كامل حسين — في الأدب المصري الإسلامي ص ٣٨

(٢) ابن خليكان — وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٨ و ٤٣٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) يقول روفن جست — Ruvon Guest في مقدمة كتاب الولاية والقضاة للسكندى (ص ٤) ان ثلاث مدارس فقهية كانت بمصر في أواخر الدولة الطولونية : وهى مذهب مالك وقد دخل مصر قبل سنة ١٦٣ هـ وكان له أتباع كثيرون ومذهب أبى حنيفة وقد دخل مصر سنة ١٦٤ هـ وكانت يؤيده العظماء على الرغم من قلة أتباعه ومذهب الشافعى الذى تبعه كثير من المصريين منذ سنة ١٩٨ هـ عند مقدم الشافعى لمصر . وقد بز هذا المذهب المذاهب الأخرى ومما لا شك فيه أن هذه المدارس جميعا كانت تتنافس تنافسا خطيرا عند بداية تكوينها وقد قامت بمصر جنبا إلى جنب خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . (راجع كذلك خطط المقرئى ج ٤ ص ١٤٥ و ١٤٦)

تعليمه ونشره ويؤيد هذا ما يقوله الأستاذ أحمد أمين^(١): « وكان بين هؤلاء المالكيين والحنفية خصام وزاع في التشريع ومسائل الفقه حتى جاء الشافعي وأقام في مصر نحو خمس سنوات يحجر مذهبه ويمليه على تلاميذه المصريين... وكون له حلقة علمية نشيطة... ومال إليه كثير من المصريين لعربيته وقرشيته وفصاحته وقوة حجته، ونشر وهو وتلاميذه مذهبه على الرغم من عداة المالكيين له ولهم. ولكن ظل في مصر فقهاء حنفية ومالكية بجانب الشافعية فاشتدت الخصومة بين بعضهم وبعض وقد أدت الخصومة أحيانا إلى الشر والإيقاع». وكان من أثر هذا التنازع المذهبي أن تهيأ للمصريين جو علمي جديد وكثر الإقبال على التعليم وبدأت مناظرات علمية وفقهية في القصور والمساجد لم يعهدها المصريون من قبل فقد كانوا قبل ذلك يعتنقون مذهباً واحداً فأصبحوا يميلون إلى عدة مذاهب. وقد حفزت مجالس المناظرة هذه العلماء على البحث والنظر وكانوا يتناظرون في الفقه والنحو والصرف واللغة وغيرها فقد ذكر ياقوت^(٢) أن بعض ملوك مصر جمع بين ابن ولاد وابن النحاس وكانا من علماء النحو وأمرهما بالمناظرة.

وظل التعليم في مصر تعليمًا دينيًا خالصًا يقوم على تدريس القرآن والحديث والفقه والقرآت وكان مركزه الفسطاط والإسكندرية في أول الأمر حيث

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ٩١

(٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٠٢

وكانت وفاة ابن ولاد سنة ٣٠٢ هـ أما وفاة ابن النحاس فكانت سنة ٣٣٧ هـ وقبل سنة ٣٣٨ هـ (راجع معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٢٥، ابن خلكان — وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩).

نزلت الصحابة رضى الله عنهم والتابعون . ولم ينتشر التعليم الإسلامى فى قري مصر إلا بعد أن أوقع المأمون بالقبط بعد ثورتهم سنة ٢١٦ هـ (١)

وقد استطاع المصريون كذلك أن يجيدوا دراسة العلوم اللغوية التى تتبع القرآن كعلم النحو واللغة والأدب وغيرها ونبغ من بينهم علماء كثيرون كابن ولاد وأبى جعفر النحاس وقد سبق ذكرهما فقد رحلا إلى بغداد وعادا إلى مصر بعد أن حذا النحو واللغة وألفا عدة كتب فى النحو وغيره من العلوم الأخرى أفادت طلبة العلم فى مصر وغيرها من البلدان (٢).

ولم يقيم بمهنة التعليم فى مصر معلمون مصريون فحسب بل وفد عليها علماء كثيرون من العراق وغيرها من البلاد الإسلامية جاءوا يعلمون المصريين أحيانا أو يطلبون العلم فى مصر أحيانا أخرى ، فقد جاء نافع (٣) فقيه أهل المدينة إلى مصر كي يعلم المصريين وأقام بينهم مدة طويلة كما جاء محمد ابن جرير الطبرى المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ المشهور وكان ذلك سنة ٢٥٣ هـ ويقول ياقوت : (٤) « ثم سار إلى القسطنطينية فى سنة ٢٥٣ هـ وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم فكثر عندهم المكتبة من علوم مالك والشافعى وابن وهب وغيرهم ثم عاد إلى الشام ثم رجع إلى مصر » . ويقول صاحب

(١) المفريزى — الخطط ج ١ ص ١٣٠ وما يليها ، أحمد أمين — ضحى الاسلام ج ٢

ص ٩٣ ، راجع Stanley Lane — Poole: The Story of Cairo, p. 60.

(٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٠١ وما يليها وص ٢٢٤ وما يليها ، ابن خلكان —

وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩ ، السيوطى — بغية الوعاة ص ١٥٧ .

(٣) السيوطى — حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٩

(٤) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٥٢

الفهرست^(١): « أخبرني الثقة أنه رأى أبا جعفر الطبري بمصر يقرأ عليه شعر الطرماح أو الخطيئة الشك مني ». فالطبري جاء مصر لكي يفيد من العلم ويعلم . ومن وفد في ذلك العصر على مصر معلما كذلك النسائي^(٢) وأحمد بن عبد الله بن قتيبة^(٣) وكان أولهما إماما في الحديث ثقة ثبتا حافظا . أما ثانيهما فقد حدث بكتب أبيه وكان مجلسه غاصا بفنون الناس ممن يطلب العلوم والآداب .

أما عن العلوم العقلية فقد غنى الطلبة المصريون بالفلسفة والطب من غير شك وبقى أثر^(٤) مدرسة الاسكندرية وثقافتها اليونانية الرومانية طوال العهد الاموي واستمر إلى العصر العباسي وكان بعض المصريين يجيدون السريانية قراءة وكتابة كاخوانهم في الشام والعراق . (ولكن حركة النقل لم تنشط في مصر كما نشطت في العراق وغيرها من البلدان فقد اعتمد المصريون على الكتب الفلسفية والمنطقية التي وصلتهم منقولة مفسرة^(٥) والتي كانت لها أثر عظيم في ازدهار هذه العلوم العقلية في العصور التالية لهذا العصر) ومن العلماء المصريين الذين اهتموا بهذه العلوم العقلية ذو النون الإخميمي فقد اشتغل بصناعة

(١) ص ٢٣٤

(٢) توفي النسائي سنة ٣٠٣ هـ (راجع ابن خلكان — وفیات الأعيان ج ٢ ص ٢١ ، أبي المحاسن — النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٨٨)

(٣) توفي عبد الله بن قتيبة سنة ٢٢٢ هـ (راجع معجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٣ وما يليها ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٦ ، ابن حجر — رفع الاصر ص ٥٤٦) .

(٤) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٩٥

(٥) كامل حسين — في الأدب المصري الاسلامي ص ٨٤ و ٨٥ .

الكيمياء وغيرها من علوم الفلسفة وكانت وفاته سنة ٢٤٥ هـ^(١).

وفي أواخر هذا العصر أضمحل أمر الدولة العباسية وفقدت سلطانها وانقسمت إلى دويلات صغيرة وصار الأمر فيها إلى حكامها ولم يعد للخليفة العباسي إلا الدعاء في الخطبة وتنافس الأمراء في تشجيع العلماء واتخذوا الشعر وسيلة لنشر سلطانهم. فكان من أثر ذلك أن قامت نهضة علمية في الأقاليم المختلفة ومن بينها مصر التي استقل بها الطولونيون وبنى أول أمراءهم أحمد بن طولون جامع^(٢) المعروف باسمه سنة ٢٦٥ هـ وقد أُملي فيه الحديث الربيع^(٣) ابن سليمان تلميذ الامام الشافعي. وهكذا قامت الدولة الاخشيدية بمصر وكانت بها نهضة علمية أدبية وعلم وتعايم للعلوم الاسلامية على اختلافها ومعلمون وعلماء وشعراء وكتاب ومجالس علم وحلقات درس في جامعي عمرو وابن طولون.

عناية الاخشيديين بالتعليم

أسس محمد بن طغج الاخشيد أسرته سنة ٣٢٣ هـ وكانت مصر في عهده في طمأنينة وهدوء وكان الأمن مستتباً^(٤) والرخاء شاملاً. وقد عمل هو وكافور من بعده على تنمية ثروة مصر مما ساعد الاخشيديين على تشجيع طلبة العلم والعلماء والأدباء والشعراء وبناء المساجد التي كانت دوراً للعبادة

(١) القفطي — أخبار الحكماء ص ١٨٥ ، الخطط ج ١ ص ٣٨٦ و ٣٨٧ .

(٢) سنعود إلى الكلام على هذا الجامع في هذا الباب والأبواب التالية .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٣٦ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم — الفاطميون في مصر ص ٨٨ ، الدكتور علي إبراهيم —

والدرس فقد ذكر ابن سعيد^(١) : « وتولى الأخشيد أمور مصر في الأموال والرجال . . . وكان يحادثه ويسامره سعيد الشاعر المعروف بقاضى البقر ولما دخل شهر رمضان أطلق النفقات للمسجد الجامع وأمر بعمارة المساجد بالحصر والبياض والخلوق والمصباح والائمة، وقال في مكان آخر^(٢) : « وكان الأخشيد بالشام وبلغه خبر أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر فقال جئوني به فأحضره اليه وأكرمه ، وكان يحب الصالحين ويكرمهم ويركب اليهم ويطلب دعاءهم بل وبحب قراءة القرآن ويبكى عند سماعها^(٣) .

أما كافور معلم أبناء الأخشيد وخادمه ووزيره فقد أنفق بسعة على العلماء والشعراء والأدباء كمولاه . ويقول عنه ابن سعيد^(٤) : « وكان عارفا بمقادير العلماء والاشراف والوجوه » وقد قصده سيد الشعراء وأمامهم أبو الطيب المتنبى وقال فيه مدحا فأجزل له العطاء^(٥) . وكانت تقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الدولة الاموية والعباسية وكان مجلسه غاصا بالعلماء وله نظر في الأدب والعلم^(٦) . وعلى الرغم من الاضطراب الذى ساد مصر في أواخر أيامه فإن عهده يعد بحق عهدا ذهبيا من الناحيتين الادبية والعلمية وقد أشار إلى ذلك أوليرى^(٧) فى كتابه عن الدولة الفاطمية .

(١) كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ١٦

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤ و ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧

(٥) ابن خلكان — وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦ و ٤٣١ .

(٦) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ ، راجع Stanley Lane — Poole: A His. of

Egypt in the Middle Ages, p. ٤٨.

(٧) راجع O'Leary. A Short Hisi. of the Fatimid Khalifate, pp. ٩٥, ٩٦.

(ومهما يكن من أمر فقد بالغ الإخشيدون في إعطائهم الأموال والهبات للعلماء المصريين والوافدين على مصر وساعدوا على الرحلة إليهم من الأقطار الإسلامية الأخرى مما أفاد التعليم فائدة عظيمة وأصبحت مصر بفضل الدولة الإخشيدية مركزاً ممتازاً للعلم والتعليم^(١) إذ كانت حلقات الفسطاط حيث يلقي الفقهاء والأدباء دروسهم ومصنفاتهم على تلاميذهم في أوج ازدهارها ونبغ من المصريين كثير من زعماء الفكر والأدب منهم أبو عمر السكندی (سنة ٣٥٠ هـ) وأبو جعفر النحاس المصري (سنة ٣٣٨ هـ) وأبو بكر الحداد (سنة ٣٤٤ هـ) وكثيرون غيرهم^(٢). وكان جامع عمرو هو معهد مصر الأكبر في ذلك العهد. أما المتنبي فكان يعقد حلقاته الأدبية في مسجد ابن عمروس حيث يجتمع إليه الأدباء والشعراء وكانت حلقة المتنبي بلا ريب من أهم مجالس الشعر والأدب والفلسفة في هذا العصر^(٣). وإلى جانب هذه الحلقات العامة كانت ثمة مجالس عليية وأدبية خاصة يعقدها الأمراء والكبراء ويؤمها طلبة العلم والعلماء والأدباء ومن هؤلاء الوزير أبو الفضل جعفر بن القرات المعروف بابن حنزابه الذي وزر لأنوجور بن الإخشيد ثم لأخيه وكان عالماً محدثاً يحب أهل العلم والحديث ويكرمهم كما كانت إليه الرحلة^(٤).

(١) راجع Stanley Lane — Poole: A His. of Egypt in the Middle Ages, p. 90.

(٢) سنعود إلى الكلام على هؤلاء الأقطاب جميعاً في هذا الباب .

(٣) عنان — تاريخ الجامع الأزهر ص ٦٤

(٤) راجع معجم الأدباء . ج ٧ ص ١٦٣ . وسأعود للكلام عليه في هذا الباب .

معاهد التعليم بمصر في عهد الإخشيديين

(٣٢٣ — ٣٥٨ هـ)

اتخذ المسلمون من المسجد كما قدمنا مدرسة للتعليم من أول أمرهم فقد كان الدين هو الدافع إلى العلم والتعليم وكانت مواد الدراسة لا تخرج عن العلوم الشرعية وما يتصل بها من علوم اللغة فلم يجد المسلمون أما كن أصلح لتعليم هذه العلوم من بيوت الله التي شيدت لإقامة شعائر الدين . هذا فضلاً عن أن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم اشتهروا بالقصد في صرف أموال المسلمين^(١) وبمجانبة مظاهر الترف والتبذير فعملوا جهدهم على التقليل من بناء الدور الحكومية واتخذوا من المساجد مواطن لسكث من شؤون الدولة ومصالح المسلمين . ففيها كانت تقام الصلاة ويجلس الخلفاء والولاة والقضاة للفصل في الدعاوى والحكم بين الناس وإقامة الحدود وفيها كذلك ابتداء التعليم . وهكذا كانت الحال في مصر منذ دخلها الإسلام على يد عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط فقد بنى بها مسجده الجامع سنة ٢١ هـ وكان هذا المسجد مركزاً للصلاة الجماعة وللخطب السياسية والمجالس الرسمية وكان به يعقد ديوان الخراج كما كان مركز القضاء الأعلى ثم غدا بعد ذلك مركزاً ممتازاً للعلم والتعليم .

وقد تعددت المساجد الجامعة ومساجد الخس في مصر وزادت زيادة كبيرة منذ الفتح الإسلامي حتى قيام دولة الإخشيد إذ لم يكن الباعث على بنائها منذ ذلك الوقت مقصوراً على الأغراض الدينية وحدها بل كان ذلك راجعاً

(١) تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٢٤ ، مصطفى بيرم — الجامع الأزهر ص ١١

أيضاً إلى أسباب سياسية واجتماعية^(١) كما كان أثراً من آثار السياسة الموضوعية لإنشاء الأمصار الإسلامية وضعها عمر بن الخطاب وكتب بها إلى الولاة ومنهم عمرو بن العاص بأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً^(٢) للجماعة . ومن ثم بلغت المساجد الجامعة في مصر عدداً كبيراً^(٣) ، أما مساجد الخمس فقد أشار إلى كثرتها القلقشندي^(٤) في قوله : « وأما مساجد الخمس فكانت على العدد الذي لا يحصى لكثرتها وخطط القضاء شاهدة بذلك . وقد رأيت في بعض التواريخ أن الفناء وقع في أيام كافور الإخشيدي حتى لم يجدوا من يقبل الزكاة وأتوا بها إلى كافور فلم يقبلها وقال ابنوا بها المساجد واتخذوا لها الأوقاف فكان ذلك سبب زيادة الكثرة فيها » .

واستمرت هذه الزيادة بعد ذلك وعمت المساجد كافة أنحاء القطر المصري حتى كان في الفسطاط وحدها عدد كبير بلغ ستة وثلاثين ألف مسجد في زمن القاضي أبي عبد الله القاضي (سنة ٤٥٤ هـ)^(٥) . وكانت تقام بهذه المساجد شعائر الدين ويقوم رجال الدين بالتعليم . وقد قصرت الكلام هنا على أشهر دور التعليم في مصر في زمن الدولة الإخشيدية وهما جامع عمرو وجامع ابن طولون .

(١) الفاطميون في مصر ص ١١٩ ، تاريخ جوهر الصقلي ص ٩٨

(٢) الخطط ج ٤ ص ٤

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٦

(٥) الخطط ج ٢ ص ١٢٩

١ - جامع عمرو:

كانت الفسطاط أول حاضرة للإسلام في مصر خططها عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ^(١) وكان أول ما اتجه إليه نظره أن يبني للمسلمين مسجداً يقيمون فيه شعائرهم ولكي يكون رمزاً لسيادة الإسلام الروحية ومنبراً للدين الجديد والرسالة الجديدة فبنى جامعاً المشهور سنة ٢١ هـ . فهو اذن أقدم جوامع مصر الإسلامية ومن ثم أطلق عليه « المسجد العتيق » و« تاج الجوامع » و« المسجد الجامع »^(٢) . ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم^(٣) وقد عاصر هذا الجامع جميع العهود والعصور منذ الفتح العربي إلى الآن وشهد جميع التطورات التي حدثت في مصر وأدخل عليه كثير من أمراء مصر العمارات المختلفة^(٤) وظل يؤمه الناس للصلاة طوال هذه القرون الخالية بل ويحرص المصريون إلى الآن على إقامة صلاة الجمعة القيمة به . ولم يبق من البناء الأصلي شيء الآن وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه باعتباره الموضع الأول الذي أقيم فيه أول مسجد في مصر .

(وكان المسجد الجامع مكاناً للدرس كغيره من المساجد فقد بدأت الدراسة

(١) ابن دقاق — الانتصار بواسطة عقد الأعمار ج ٤ ص ٢ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٩ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٥ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣ و ١٣٤ .

(٤) راجع ابن دقاق — الانتصار ج ٤ ص ٦٢ وما يليها ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٤ .

وما يليها .

فيه سنة ٣٨ هـ بذكر قصص دينية خلقية^(١) قصد بها تعليم المسلمين وتهذيبهم ثم اتسع نطاق التدريس به تدريجيا حتى إذا حضره الامام الشافعي رضي الله عنه وجد به ثمانى زوايا^(٢) يدرس فيها الفقه فدرس هو فى واحدة منها . وقد اضطردت زيادة حلقاته العلمية هذه فى العصور التالية . واليك ما قاله ابن سعيد^(٣) فى وصفه للمسجد الجامع عند زيارته له : « واستحسنتم ما أبصرته فيه من حلق المصريين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن » . أضف إلى ذلك ما ذكره المقرئى^(٤) :

« واخبرنى المقرئ الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الله ابن الحسن الأوحى رحمه الله تعالى . قال اخبرنى المؤرخ تاج الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات . قال اخبرنى العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ابن الصائغ الحنفى انه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء السكائن فى سنة ٢٤٩ هـ بضعا وأربعين حلقة لاقراء العلم لا تكاد تبرح منه » .

وقد عنى بنو الأخشيذ بهذا المعهد كما عنى به غيرهم من الأمراء من قبل ومن بعد وزيدت عمارته فى عهدهم وزينت عمدته^(٥) وكانت حلقاته العلمية فى زمنهم أشهر بحال العلم والتعليم ، فقد ذكر ابن سعيد^(٦) : « وفى هذه السنة (٥٣٢٦) »

(١) الخطط ج ٤ ص ١٧ وقد ذكر ابن دقاق (الانتصار ج ٤ ص ٣٢) أن بداية

القصص بمصر كان سنة ٣٦ هـ .

(٢) ابن دقاق — الانتصار ج ٤ ص ١٠٠ ، الخطط ج ٤ ص ٢٠

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٤٨

(٤) الخطط ج ٤ ص ٢١

(٥) الانتصار ص ٦٧ ، ٦٨ ، الخطط ج ٤ ص ٩

(٦) ابن سعيد — المغرب ص ٧٤

وعاد أصحاب مالك والشافعي إلى القتال في المسجد الجامع العتيق وكان في الجامع للهاكسين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقة فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيذ ونزع حصرهم ومساجدهم وأغلق الجامع وكان يفتح في أوقات الصلوات . ثم سئل الأخشيذ فيهم فردهم . وفي هذا القول دلالة واضحة على اقبال الطلبة على العلم فقد كان في المسجد الجامع ثلاث وثلاثون حلقة للعلوم المختلفة وفي هذه الحلقات تخرج معظم المحدثين والفقهاء في ذلك العصر .

٢ - جامع ابن طولون :

هو من أهم الآثار العربية في مصر وقد اختلف المؤرخون في تاريخ انشائه^(١) ولسكن الدكتور زكي محمد حسن^(٢) يرجح ما ذكره المقرئ في من ان الفراغ من بنيانه في سنة ٢٦٥ هـ وقد قام بإنشائه أحمد بن طولون على جبل يشكر تقربا لله سبحانه وتعالى فقد نشأ على مذهب جميل وحفظ القرآن وأتقنه وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة^(٣) .

(١) فقد ذكر المقرئ (المخطط ج ٤ ص ٣٦) أن بنيانه ابتداء سنة ٢٦٣ هـ وخالفه ابن دقاق (الانتصار ج ٤ ص ١٢٢) وأبو المحاسن (النجوم ج ٣ ص ٩) فذهبوا إلى أن الشروع في تشييده كان سنة ٢٥٩ هـ . ويذكر السكندى (الولاة ص ٢١٩) أن ابن طولون ابتداء في تشييد مسجده سنة ٢٦٤ هـ وأتمه في سنة ٣٦٦ هـ .

أما السيوطي (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٦) فذهب إلى أن ابتداء بنيانه كان سنة ٢٦٣ هـ وفرغ منه سنة ٢٦٦ هـ .

(٢) الفن الاسلامي في مصر ص ٣٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤١٣ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٥ .

وعندما تم بناؤه أُملي فيه الحديث الربيع بن سليمان^(١) تلميذ الإمام الشافعي، ويقول المقرئ^(٢) : « إلى أن فرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء والفقهاء » ويقول في مكان آخر^(٣) : « وتقرب الناس إلى ابن طولون بالصلاة فيه وألزم أولادهم كلهم صلاة الجمعة في فوارة الجامع ثم يخرجون بعد الصلاة إلى مجلس الربيع بن سليمان ليكتبوا العلم » ، وقد بقي هذا الجامع إلى اليوم على الرغم من زوال ما حوله وذلك بفضل عناية الأمراء به .

كان إذن جامع ابن طولون معهدا من معاهد التعليم في مصر من بدء إنشائه وقد ظل كذلك في العصور التالية فقد ذكر ابن جبير^(٤) أن المغاربة كانوا يسكنونه زمن صلاح الدين بن أيوب ويحلقون فيه ، وكانت رحلة ابن جبير سنة ٥٨٧ هـ وقال السيوطي^(٥) إن هذا الجامع كان شهيرا بدروس التفسير والحديث والفقهاء والقرآات والطب والميقات في زمن حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦ هـ .

أما في عهد الدولة الأخشيدية فلم يكن هذا المسجد أقل من غيره من دور التعليم الأخرى وإن كان يأتي في المرتبة الثانية بعد جامع عمرو . وكان به أكثر صلاة الأخشيد فقد قال ابن سعيد^(٦) : « وكان أكثر صلاته (أي الأخشيد) في جامع ابن طولون إلا في رجب وشعبان ورمضان » .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٧ . (٢) الخطط ج ٤ ص ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧ .

(٤) الرحلة ص ٤٨ . راجع أيضا عكوش — جامع ابن طولون ص ٩١ .

(٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٧ . (٦) المغرب ص ٣١ .

٣ - مواد الدراسة - المعلومون وأشهر العلماء

لم يكن هناك اختلاف كبير بين هذا العصر والعصر الذى سبقه فالعلوم الدينية كالحديث والفقه كانت تحتل فيه المكانة الأولى ثم تليها العلوم العربية الخالصة من نحو وصرف ورواية للشعار . أما العلوم العقلية فلم تنشط فيه كانشطت في العصر الفاطمى الذى يليه ، ذلك أن مصر لم تساهم كل المساهمة فى حركة النقل بقدر ماساهم به العراقيون . ولم تكن بعد قد وفقت إلى خليفة كالمأمون أو شيد بها نوع جديد من دور التعليم كبيت الحكمة فى بغداد أو دار العلم بالقاهرة لدرس الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والهيئة والطبيعة والكيمياء والفلك وسائر العلوم العقلية الأخرى .

ومن المواد التى كانت تدرس بالمساجد فى عصر الدولة الاخشيدية العلوم الشرعية وتشمل علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والكلام .

وكان من أئمة القرآن فى هذا العصر عامر بن حمدان أبو غانم المصرى لمقرئ النحوى ، قرأ عليه عامة أهل مصر وله مؤلف فى اختلاف السبعة مات سنة ٣٣٣ هـ (١) . وكذلك أبو بكر بن عبد الله بن مالك بن عبد الله بن سيف التجيبى المقرئ المصرى شيخ الاقليم فى القرآن فى زمانه ومات سنة ٣٥٧ هـ (٢) .

ومن الفقهاء الذين اشتهروا بتدريس الفقه والحديث وغيرهما أبو الذكر محمد بن يحيى الاسوانى فقد ولد فى سنة ٢٥٥ هـ واعتنى بالفقه فمهر فيه حتى كان

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٨

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٨ .

المشار إليه في مذهب مالك بمصر، وتصدى للتدريس والافتاء وكانت له حلقة في جامع عمرو كما كان يتناظر عنده الفقهاء (وكان يجلس للاشتغال بالعلم من الصبح إلى الزوال ثم من بعد صلاة الظهر إلى العصر وتوفي سنة ٣٤٠ هـ^(١)) وكذلك أبو بكر بن أحمد بن جعفر السكناني المعروف بابن الحداد الفقيه الشافعي المصري ولد في سنة ٢٦٤ هـ وتولى القضاء والتدريس بمصر وكان فقيها متعبدا يحسن كثيراً من العلوم كعلم القرآن وعلم الحديث والأسماء والسكنى والرواية والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير الجاهلية وأيام الناس والأنساب ويحفظ شعراً كثيراً وينظم وصنف «الباهر في الفقه» في مائة جزء وكتاب «جامع الفقه» وكتاب «أدب القاضي» في أربعين جزءاً ومات سنة ٣٤٤ هـ وقيل سنة ٣٤٥ هـ وحضر جنازته الأمير أبو القاسم انو جور بن الأخشيدي وكافور^(٢). ومن الفقهاء الذين رحلوا إلى مصر وقاموا بالتدريس في مساجدها في زمن الدولة الأخشيديّة أبو اسحق المروزي الفقيه الشافعي وكان امام عصره في الفتوى والتدريس، ارتحل من العراق إلى مصر وجلس في مجلس الشافعي فاجتمع الناس عليه وضربوا اليه أكباد الابل وتوفي بمصر سنة ٣٤٠ هـ^(٣) وكذلك أبو طاهر الذهلي فقد حدث ببغداد ثم ارتحل إلى مصر سنة ٣٤٠ هـ وقد تفقه في مذهب مالك كما كان ثقة ثباتاً مسنداً في الحديث وكان له مجلس يجتمع اليه المخالفون وينظرون بحضرة وكان يتوسط بينهم ويتكلم بكلام

(١) ابن حجر المسقلاني — رفع الاصر ص ٥٣٢ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٨ ، رفع الاصر ص ٥٥١ وما يليها ، النجوم

الزاهرة ج ٣ ص ٣١٣ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٦ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٦ .

سديد ، وقد ظل ينظر في القضاء حتى صرف عنه سنة ٣٦٦ هـ وظل يكتب عنه الحديث حتى توفي سنة ٣٦٧ هـ^(١) ، واذن فقد قام بالتدريس في عصر الدولة الاخشيدية وفي العصر الفاطمي الاول .

ومن الفقهاء الذين رحلوا إلى مصر كذلك وقاموا بالتدريس فيها في عهد الدولتين الاخشيدية والفاطمية أبو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنابة فقد رحل إلى مصر وتقلد الوزارة لبني الاخشيد وإليه رحل أبو الحسن الدارقطني^(٢) وصنف له ما اراد في مصر . وكان جعفر هذا يملئ الحديث ويكرم العلماء وقد ذكر ياقوت^(٣) ان الكاغد كان يعمل بسمرقند ثم يحمل اليه في مصر كل سنة وكان في خزائنه عدة من الوراقين وقد توفي سنة ٣٩١ هـ .

ومن هذه المواد أيضا العلوم اللسانية وتشمل النحو والصرف ومتن اللغة وعلوم البلاغة والخطابة وغيرها .

ومن اشتغل بتدريسها في هذا العصر أحمد بن محمد بن اسماعيل أبو جعفر النحاس الذي نبغ في النحو واللغة وحقق القرآن وما يتعلق به ورحل إلى بغداد وتلقى العلم هناك وصنف كتباً كثيرة منها « إعراب القرآن » و« معاني القرآن » و« أدب الكاتب » و« كتاب الكافي في النحو » وله تصانيف أخرى مفيدة لا يتسع المقام لذكرها ، وكان يملئ أخبار الشعراء فقد روى أنه فسر عشرة دواوين وأملاها على تلاميذه بمصر وكان لا ينكر أن يسأل أهل النظر والفقه

(١) الكندي — الولاة والفضاة ص ٤٩٣ ، ابن حجر — رفع الاصر ص ٥٨١ وما يليها

(٢) مات سنة ٣٨٥ هـ (راجع وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٣١) .

(٣) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٧٦ . راجع أيضا النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٠٣ ، حسن

المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ .

ويناقشهم فيما أشكل عليه في تصانيفه وتوفي سنة ٣٣٨ هـ (١).

وكذلك محمد بن موسى بن عبد العزيز السكندی المصري ويعرف بابن الجبى ويلقب بسبيويه ، وكان عارفاً بالنحو والمعاني والقراءة والغريب والإعراب والأحكام وعلوم الحديث والرواية ، وله معرفة بأخبار الناس والنوادر والأشعار والفقه على مذهب الشافعى ، وجالس ابن الحداد الفقيه الشافعى وتتلذذ له واجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والصلحاء والعباد ومات سنة ٣٥٨ هـ (٢).

أما عن الطب وغيره من العلوم العقلية الأخرى فلم يشتغل بها كثيرون في هذا العصر ، ويذكر لنا ابن أبى أصيبعة بعض الأطباء في هذا العصر أمثال سعيد بن البطريق والبالسى ونسطاس بن جريح . فأما الأول فكان طبيباً من أهل الفسطاط وله دراية بعلم النصارى ومذاهبهم ، وكان مولده سنة ٢٦٣ هـ ووفاته سنة ٣٢٨ هـ ، وله من الكتب كتاب فى الطب وكتاب « نظم الجواهر » ، ويشتمل على ثلاث مقالات كتبه فى صوم النصارى وفطرهم وتواريخهم وأعيادهم وتواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين وذكر البطارقة وأحوالهم ومدة حياتهم . وذيل هذا الكتاب نسيب لسعيد بن البطريق هو يحيى بن سعيد الأنطاكي (٤٥٨ هـ) (٣) . أما البالسى فلم يذكر لنا كتبه ولا مولده أو وفاته ، ولكنه واضح أنه من أطباء الدولة الإخشيدية ، إذ يقول ابن أبى أصيبعة (٤)

(١) راجع معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٢٤ وما يليها ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩ ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠٠ ، السيوطى — بغية الوعاة ص ١٥٧ .

(٢) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦١ ، بغية الوعاة ص ١٠٨ .

(٣) راجع ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٦ وما يليها .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٦ .

انه كان متميزاً في معرفة الأدوية المفردة وأفعالها ، وله من الكتب كتاب « التكميل في الأدوية المفردة » ألفه لكافور الإخشيدى . ونسطاس ابن جريج^(١) كان كذلك عالماً بصناعة الطب في دولة الإخشيد بن طنج .

أغراض التعليم في مصر في عهد الإخشيديين

(بعد التعليم الإنسان للحياة ، والحياة مختلفة المناحي متعددة الوجهات ولذا اختلفت أغراض الناس في التعليم . فكان لكل عصر من عصور التاريخ ولكل أمة من الأمم غرض تمليه عليه أحوالها المختلفة جغرافية كانت أو اجتماعية ، سياسية أو دينية . فقد يكون الغرض إعداد الناس لكسب الرزق أو ثقافتهم وتهذيبهم أو تعليمهم العلم لنفسه أو غير ذلك من الأغراض المتعددة الأخرى . وهذه الأغراض على تعددها متداخلة ومرتبطة بعضها ببعض ، ولسكن واحداً منها أو أكثر يتغلب في العادة على سائرهما ويصبح هو الظاهر البارز فيها وتتضاءل معه الأغراض الأخرى تضاًؤلاً غير قليل . والمسلمون في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية الأخرى في ذلك العصر كانت لهم أغراض متعددة في التعليم ، ولكن الغرض الديني كان هو البارز فيها المتغلب عليها . فقد كان الدين هو الدافع الأول للتعليم ، وما تعلم المسلمون القراءة والكتابة في أول أمرهم إلا من أجل تفهم معاني القرآن الكريم والوقوف على أصول الدين .)

وقد أجمع كتاب المسلمين الذين تعرضوا للكلام على التعليم الإسلامي

على أنه هو الوسيلة الأولى لإرضاء الله سبحانه وتعالى وللسعادة الأبدية وإبقاء الإسلام .

فقد قال الزرنوجي ^(١) : « وينبغي أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضا الله تعالى والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام فإن بقاء الإسلام بالعلم » . وقال صاحب كشف الظنون ^(٢) : « ثم أن المقصود من العلم والتعليم معرفة الله سبحانه وتعالى وهو غاية الغايات ورأس أنواع السعادات » . وقال في مكان آخر ^(٣) : « يجب أن ينوى في تعلمه أن يعمل بعلمه لله تعالى وأن يعلم الجاهل ويوقظ الغافل ويرشد القوى فإنه قال عليه السلام : من تعلم العلم لأربع دخل النار ، ليهامى به العلماء ويمارى به السفهاء ويقبل به وجوه الناس إليه وليأخذ به الأموال » .

أما حجة الإسلام الإمام الغزالي فقد عقد فصلاً في كتابه « فاتحة العلوم » ^(٤) بين فيه الغرض من التعليم في الإسلام وأن تحصيل العلم عبادة ، بل هو أفضل العبادات . فمن قوله : « ان من تعلم العلم لغرض من الأغراض سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى فهو عاص ظالم » .

وجملة القول أن الغرض الأساسي للتعليم في ذلك العصر في مصر كان هو تعليم الدين والتفقه فيه وإرضاء الله سبحانه وتعالى وطلب الآخرة ، وكان يتضمن هذا الغرض بالطبع أغراضاً أخرى ثانوية كانت نتيجة له . فالتعليم الديني من غير شك يهذب الأخلاق ويطهر النفوس ويثقف الأذهان ويرفع

(١) تعليم المتعلم ص ٦ (٢) ج ١ ص ٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨ . (٤) ص ٩ .

مقام صاحبه الاجتماعى ويساعده فى النهاية على كسب الرزق . فالدافع الأول للتعليم إذن كان دينياً ، ولكن كانت هناك دوافع أخرى متعلقة به متممة له ، منها تهذيب الأخلاق والتحلى بالفضائل وكسب المال والجاه وطلب الرزق . فيقول صاحب كشف الظنون ^(١) : « فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق » . ويقول فى مكان آخر ^(٢) : « وللعلم لذة روحانية فى الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فالعز والوقار ، وأما فى الآخرة فهو وسيلة للسعادة الأبدية » . ولم يقلل الدين الإسلامى على أى الأحوال من قيمة السعى لطلب الرزق ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ^(٣) .

(ومهما يكن من شىء فقد أقبل طلبة العلم فى هذا العصر على التعليم طلباً للآخرة أولاً ثم الانصاف بالاخلاق الحميدة ثانياً ثم كسب الرزق أخيراً ، وهذه الأغراض الثلاثة كانت فى الواقع فروعاً لغرض واحد هو الغرض الدينى . ولكن لم يخل هذا العصر أيضاً من طلبة يبتغون من العلم الحصول على الوظائف وكسب المال والجاه وطلب الدنيا .

وهؤلاء كانوا فى الغالب غير مسلمين حتى انك ترى الغزالى يحرم تعليم العلوم الدينية كالتفسير والاختبار وعلم الفقه والأصول والكلام لغير الله عز وجل ، أما الحساب والطب فيجوز عنده تعلمهما لكسب المال والجاه ^(٤) . وكان

(١) ج ١ ص ١٥ (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣

(٣) مصطفى أمين — تاريخ التربية ص ١٦٧ . (٤) راجع فاتحة العلوم ص ١٥

يقوم في الغالب بتعلم هذين العلمين غير المسلمين من الموالى فالاطباء في مصر وغيرها كانوا جلهم من اليهود والنصارى .

قيام الدولة الفاطمية وأثرها في التعليم

لبثت مصر منذ الفتح الإسلامى ولاية تابعة للخلافة غير أنها كانت منذ ذلك الوقت تتبوأ بين الولايات الأخرى مركزاً ممتازاً . ولما اضمحل سلطان الدولة العباسية غدت مصر طعمة لطائفة من الحكام الأقوياء يحكمونها باسم الخلافة بينما ينشئون بها دولا مستقلة لا تسكاد تربطها بالخلافة أية روابط سياسية أو ادارية ، وكان اسطع مثل هذه النزعة الإستقلالية قيام الدولة الطولونية ثم الدولة الإخشيدية تستظل كلتاهما بلواء الخلافة ولكن تستأثر دونها بالسلطان والحكم .

كانت مصر تتمتع بهذا المركز الممتاز وذلك لموقعها الجغرافى بين الشرق والغرب ولوفرة ثروتها واتساعها وغناها ولأنها تصلح لأن تكون مركز دولة مستقلة تستطيع الاحتفاظ باستقلالها عند الحاجة .

ولم تخف هذه الحقيقة على الفاطميين ^(١) منذ استطاعوا أن ينفذوا بدعوتهم إلى إفريقية ويشيدوا بها دولتهم الأولى على انقاض ملك الاغالبة ^(٢) ، فاتجهوا بانظارهم إلى مصر وعقدوا العزم منذ الساعة الأولى على غزوها وامتلاكها ، ذلك أنهم عرفوا أن مصر بموقعها الجغرافى ووفرة ثروتها ستساعدهم على تحقيق

(١) الدكتور حسن ابراهيم — الفاطميون في مصر ص ١٠٤

(٢) راجع المقرئى — انعاظ الحنفا ص ٣١ وما يليها ، الفاطميون في مصر ص ٥٣

أغراضهم وبث عقائد مذهبهم ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية في الشرق ،
ولأن في مصر دون غيرها تستطيع الخلافة الفاطمية أن تقيم ملكها السياسي
وامامتها الدينية على أسس قوية باذخة . ويؤيد هذا مايقولاه الدكتور حسن
ابراهيم ^(١) : غنى الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر لما لموقعها من
عظيم الأهمية سياسيا وحربيا خصوصا وان ولاية هذه البلاد كانت اليهم ولاية
الشام والحجاز فكان امتلاكهم مصر امتلاكا لهذين البلدين العظيمين وتأسيس
نفوذ الفاطميين السياسي والديني في ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة وهي
الفسطاط والمدينة ودمشق . لهذا لانعجب إذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ
خلافة المهدي يدأبون على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البرية
والبحرية لفتحها ^(٢) الا ان هذه الحملات ردت على اعقابها في ذلك الوقت
لان مصر كانت لاتزال قوية ولان العباسيين كانوا لايزالون يستطيعون الدفاع
عنها . هذا فضلا عن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب ^(٣) والتي
كادت من اجلها تنهار هذه . الدولة الفاطمية الناشئة وهي في المهد .

كان الإخشيد شجاعاً قوياً طموحاً وافر الذكاء ، وقد استقرت الأحوال
بمصر في عهده واستطاعت جيوشه أن ترد جيوش الغزاة ^(٤) وسطعت دولته

(١) الفاطميون ص ٨١

(٢) راجع ابن الاثير — الكامل ص ٣٢ و ٣٤ و ٤٢ ، الخطط ٢ ص ١٦٢ و ١٦٣ ،

اتعاظ الحنفا ص ٤١ وما يليها ، حسن المحاضرة ص ٢ ص ١٤١ ، الفاطميون ص ٨١ وما يليها .

(٣) قامت ثورة في بلاد المغرب أضرم نارها أبو زيد مخلد بن كيداد وغيره سنة ٣٣٣ هـ .

وظلت حتى سنة ٣٣٦ هـ (راجع تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ج ٢ ص ١٠٤ ، اتعاظ

الحنفا ص ٤٥ وما يليها ، الفاطميون ص ٨٦ وما يليها) .

(٤) اتعاظ الحنفا ص ٤٥ .

بمصر وكادت تنافس في القوة والبهاء دولة بني العباس ذاتها ، ولكن الأمر لم يستمر على هذا الحال فقد ورث ملك الإخشيد أمراء ضعاف وآل تديز الأمور إلى كافور الإخشيد ، وهو مع دهائه وقوة عزمه لم يستطع أن يحول دون تسرب العوامل المعنوية والاجتماعية الهدامة ، فكثر الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب وظهرت أمارات الذبول والهرم على الدولة الإخشيدية ولاح لها شبح الفناء جائئاً في الأفق^(١).

شغلت الدولة الفاطمية بشئونها الخاصة حيناً من الدهر ، ولم تعاود كرة الهجوم على مصر ولكنها ظلت مع ذلك ترقب سير الحوادث فيها وتعتمد في تنفيذ مشروعاتها على وسائل أخرى هي ترغيب الشعب المصري والاتصال به مباشرة عن طريق دعايتها إذ يقول المقرئ^(٢) : « وإنما قويت أنفس الشيعة بكون المعز بمصر ، وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الإخشيدية والكافورية » . ويقول الدكتور حسن إبراهيم^(٣) : « ولقد صادفت الدعوة للبيت العلوي نجاحاً عظيماً في هذه البلاد بالرغم من القضاء على هذه المحاولات التي قام بها الفاطميون لغزو مصر ... فقد كان الفاطميون يدجون في صفوف جندهم دعاة عهد إليهم أن يختلطوا بالناس ويعلموهم عقائد المذهب الفاطمي ، فلم يلبث أن صار في مصر — قبل فتح هذه البلاد على أيدي الفاطميين بزمن

(١) قاست مصر في أواخر الدولة الإخشيدية البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل فقد انخفض النيل وانتشر القحط والوباء وفشا الموت واشتد الغلاء ونذر وجود القمع وعم السلب والنهب وعجز المصريون عن صد غارات القرامطة أو ملك النوبة وثار الجند لعجز كافور عن دفع رواتبهم وأرزاقهم . وساعدت كل هذه العوامل الفاطميين على فتح مصر (راجع الخطط ج ٢ ص ١٢٨ و ١٢٩ ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢٦ ، الفاطميون ص ٩٥ و ٩٦) .
(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٨٩ . (٣) الفاطميون ص ٨٩ .

طويل — عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويرجو نجاحه .

ولم يقتصر ما قام به الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة فحسب بل كان لحلفائهم أيضا نصيب وافر في تشجيع هذه الدعوة فقد ذكر ابن سعيد (١) أن الخليفة القائم الفاطمي لما انصرف عساكره بالاسكندرية اختار أن يستعطف الاخشيدي ويصطنعه فكتب إليه كتابا وقع به بخطه . ويحدثنا المقرئ (٢) أن كافورا استقبل دعاة المعز أحسن استقبال ولاطفهم أحسن ملاطفة كما اعترف رجال بلاطه وكبار موظفي دولته بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي (٣) . ولما توفي كافور وزادت الأحوال اضطرابا وكثر التنافس على السلطة وقلت أعطية الجند كتب بعض زعماء المصريين إلى الخليفة الفاطمي يدعونه إلى فتح مصر ، ويؤيد هذا ما قاله يحيى بن سعيد الانطاكي (٤) : « وكتب جماعة منهم ومن وجوه البلد إلى المعز لدين الله صاحب المغرب يستدعون منه انفاذ جيوشه إلى مصر ليتسلمها وضمنوا له المعونة والمساعدة على أن يملك البلد بغير حرب ولا قتال » . واشترك في هذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة في عهد كافور هو يعقوب بن كاس (٥) ، وقد كان له فيما بعد أعظم شأن في التعليم والسياسة في الدولة الفاطمية .

(١) المغرب ص ٢٥ و ٢٦ . (٢) الخطط ج ٣ ص ٤٢

(٣) كان كافور في الواقع يظهر ميلا للمعز ولأهل البيت على الدوام (راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ ، الفاطميون ص ٩٥ ، راجع O'Leary: A Short His. of the Fatimid Khalifate, pp. 94, 95, 98.

(٤) تاريخه ج ٢ ص ١٢٩

(٥) سنعود للكلام عليه في الأبواب القادمة (راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣٣ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١) .

رأى الفاطميون في موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد بنى الإخشيد ولم تفتهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التى سرت سراعا الى قوى مصر المادية والمعنوية . وبينما كانت الدولة العباسية قد زاد ضعفها من جراء غارات البزنطيين^(١) عليها كانت الدولة الفاطمية تضطرم بروح وثاب وعلى رأسها المعز الذى اشتهر بحسن التدبير واحكام الامور ودانت لسلطانة كافة قبائل البربر^(٢) واصبحت دولته أحسن ما تكون قوة وفتوة . رأى المعز ذلك فعزم على أن يحقق أمنيته وأمنية آبائه من قبله واستعد لذلك استعدادا عظيما^(٣) وحشد كل ما استطاع من جند وذخيرة وجمع الأموال وأعد الطرق وحفر الآبار وعهد بتلك الحملة الى أعظم قواده جوهر الصقل^(٤) . ولما ذاعت الأنباء بوصول عساكر المعز الى الأراضى المصرية^(٥) اشتد اضطراب المصريين وكثر الخلاف فى رأى ولسكن معظم الزعماء آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم وفضلوا الانضواء تحت لواء دولة قوية كالدولة الفاطمية على الاستمرار فى معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية التى انتشرت فى مصر فى أواخر الدولة الاخشيدية^(٦) .

وهكذا استطاع جوهر أن يسير فى ركبه المظفر إلى القسطنطينية حاضرة

(١) الفاطميون ص ٩٧ وما يليها .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠١ وما يليها .

(٣) راجع اتعاظ الحنفا ص ٦٢ ، الفاطميون ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٤) الخطاط ج ٢ ص ٢٠٥ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٨ وما يليها .

(٥) كان رحيل جوهر من افريقية فى يوم السبت ١٤ شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ .

(٦) راجع أبا المحاسن — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٨) .

(٦) الفاطميون ص ١١١ .

مصر إذ ذاك في يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ^(١) وينزل في ظاهرها من الشمال الغربي ثم يضع تنفيذاً لأوامر مولاه المعز خطط المدينة الجديدة التي قرر الفاطميون انشاءها لتكون لهم في مصر قاعدة ومعقلا، ويحفر اساس القصر الفاطمي ويختط بعد ذلك الجامع الأزهر^(٢) ليكون إلى جانب عاصمة مصر الجديدة — القاهرة — رمزا للدعوة الفاطمية ومنبرا للامامة الجديدة. ولم يلبث جوهر أن ارسل بالبشرى إلى مولاه المعز وأمر بقطع الدعوة العباسية من منابر مصر والشام وبدأت الدعوة للخليفة الفاطمي. ولما استقرت الأحوال كتب للمعز للحضور بنفسه وتسلم زمام حكمه^(٣) فسر المعز سرورا عظيما وسار من افريقية إلى مصر باهله وأمواله في ركب هائل فوصل إلى الإسكندرية عن طريق برقه في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وهرع وفد من أكابر المصريين إلى لقائه وتحيته ودخل المعز القاهرة عاصمته الجديدة في رمضان ولما وصل خر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين شكر الله وانصرف الناس عنه^(٤). وهكذا نرى أن الخلافة الفاطمية قد انتقلت إلى مصر وأصبحت القاهرة

(١) الخطط ج ٢ ص ١٧٩ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١ (اتفق المؤرخون على أن دخول جوهر مصر كان يوم الثلاثاء من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ولكنهم اختلفوا في تحديد تاريخ اليوم ، فيقول ابن سعيد (المغرب ص ٤٦) انه يوم الثلاثاء ١٦ شعبان ويقول أبو الحسن (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٨) انه يوم الثلاثاء ١٨ شعبان ، بينما يقول غيرهما أنه ١٧ شعبان (راجع كذلك ابن دقاق — الانتصار ج ٥ ص ٣٥) .

(٢) سنعود إلى الكلام على هذه المنشآت في الابواب القادمة فلا داعي لذكر تفصيل انشاءها هنا .

(٣) وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٠٢

(٤) ابن الأثير — السكامل ج ٨ ص ٢٤٤ وما يليها ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢

بدل المنصورية في بلاد المغرب مركز هذه الدولة الفاطمية الشاسعة الأرجاء
ومعقل دعوتها الشيعية التي لبث بنو العباس يطاردونها زمنا طويلا . وقد
استطاع جوهر بتشبيده الجامع الأزهر أن يقيم الدعوة الفاطمية في البلاد^(١)
وأن يثبت عقائد المذهب الفاطمي على الرغم مما عترضه في أول الأمر من صعاب^(٢)
إذ كان السواد الأعظم من المصريين يعتقد المذهب السني في حين كان الشيعيون
أقلية صغيرة بالنسبة إلى أهل البلاد .

(ومهما يكن من أمر فإن إقامة الدعوة الفاطمية بمصر كان لها أعظم الأثر في
التعليم فقد اهتم الخلفاء الفاطميون بنشرها إذ عرفوا أن في ذلك اعترافا بسيادتهم
الروحية والسياسية ، فأقاموا المساجد في جميع أنحاء البلاد وأجزلوا العطاء
للمعلمين والعلماء وأنشأوا مجالس الدرس في القصور الفاطمية الزاهرة
وأنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم التي عملت على نشر علوم الحكمة والفلسفة
واستطاع بفضلهم أن يسمو الجامع الأزهر ويصبح معهدا عالميا يأتية طلبية العلم
من جميع أنحاء العالم الإسلامي . وبالجملة فقد قامت في عهد الفاطميين في مصر
نهضة تعليمية زاهرة لا تتخلف عن نهضة العباسيين في زمن المأمون وساعدهم
على ذلك من غير شك أنهم استخلصوا البلاد من دولة بني الاخشيد نصيرة
العلوم والآداب وإليك تفصيل ذلك في الأبواب القادمة .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ ، المخطوط ج ٤ ص ١٤٦ .

(٢) الفاطميون ص ١١٧ ، والدكتور على ابراهيم — جوهر ص ٦٨

البَابُ الثَّانِي

الكتاتيب في العصر الفاطمي

عناية الفاطميين بتعليم الأطفال

كان قيام الدولة الفاطمية القوية الشاحخة في مصر مستهل عصرها الذهبي ومفتتح تلك العظمة ودينك البهاء والبذخ التي نثرتها من حولها وطبعت بها حياة مصر العامة عصرًا مديدًا .

كانت مصر بخصبها ونعمائها وفيض مواردها أعظم دعامة في هذا الصرح الباذخ الفخم ، فالعصر الفاطمي من أسطع عصور مصر الإسلامية إن لم يكن أسطعها جميعاً . ولما كان الأمر قد آل للفاطميين ونجحوا في تأسيس خلافة علوية مستقلة بفضل الدين وبفضل انتسابهم^(١) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلا عجب إذا دفعتهم سياستهم الدينية وحشهم العمل على نشر دعوتهم المذهبية إلى تثقيف عقول الشعب والاهتمام بتعليمه واتخاذ كافة الوسائل التي تحقق لهم هذه الغاية وهي نشر فقه الشيعة .

(١) ان لفظ الفاطميين الذي عرف به أولاد عبيد الله المهدي — مؤسس دولة الفاطميين في بلاد المغرب — يشعر بأنهم من أولاد فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم علويون أيضاً . على أن مسألة نسب هذه الأسرة كانت — ولا تزال — موضوعاً كثرت فيه آراء الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين لما كان من انحياز الكتاب من العرب إلى القول بما يوافق نزعاتهم السياسية وميولهم الدينية بعيدين عن الحقيقة . ففريق ذهب إلى القول بصحة هذا النسب وفريق ناقض هذا القول فخرم بعدم صحته . ولم يسفر بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع عن رأي حاسم نظراً لكثرة أقوال المؤرخين الأقدمين المتباينة .

ولقد عقد الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه « الفاطميون في مصر » (ص ٦٣ — ٧٩) فصلاً ضافياً عالج فيه هذا الموضوع وناقش آراء المؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين القائلين بصحة النسب والطاعنين في صحته . ولم يصل كغيره من المؤرخين إلى رأي قاطع وان كان يميل إلى القول بصحة نسب الفاطميين إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد ساعد على انتشار التعليم في البلاد أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم كانوا من طلبة العلم والمقبلين عليه ولهم حظ وافر من الأدب والشعر يقدمون أهل العلم ويعقدون مجالس المناظرة . وقد فرضوا العلم كذلك على أولادهم وعنوا بتعليمهم على أيدي نخبة من رجال عصرهم ، فزى المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر قد أحاطه في حياته كبار الأئمة والحفاظ^(١) ، فشب محباً للعلم واسع الاطلاع وما روى في مجلس إلا كان بيده كتاب . ويؤيد هذا القول ما حدثنا به المقرئ المقيزى إذ يقول^(٢) : « ولما كان في بعض الأيام استدعى المعز في يوم شات عدة من شيوخ كتامة فدخلوا عليه في مجلس قد فرش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزان كتب وبين يديه دواة وكتب . » وكتب المقرئى^(٣) كذلك في مكان آخر ما قاله جوهر الصقلى عن مولاه المعز فقال : « لما خرجت (أى جوهر) إلى مصر وأنفذت إلى مولانا المعز من أسرته ثم حصل في يدي آخرون اعتقلتهم وهم نيف وثلاثمائة أسير . . . فلما ورد مولانا المعز إلى مصر أعلمته بهم فقال عرضهم علىّ وأذكر في كل واحد حاله ، ففعلت وكان في يده كتاب مجلد يقرأ فيه فجعلت أخذ لرجل من يد الصقالية وأقدمه إليه وأقول هذا فلان ومن حاله وحاله فيرفع رأسه وينظر إليه ويقول يحوز ويعود إلى قراءة ما في الكتاب حتى حضرت له الجماعة ، »

ولم يقف أمر تعليم المعز في حياته عند هذا الحد بل نراه قد درس

(١) إبراهيم جلال — المعز لدين الله ص ٢٨ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ١٦٤ ، انما الحنفا ص ٦٠ و ٦١

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ .

كذلك اللغات (١) الأجنبية كالبربرية والرومية والسودانية والصقلية وأحكم دراستها وحذقها قراءة وكتابة فكان يخاطب رسل الملوك من الروم والإيطاليين ويطالع بنفسه رسائلهم .

وهكذا كان المعز لدين الله فقيها مبرزاً وعلمياً من أعلام الدين والأدب ، خطيباً بليغ الأسلوب حسن البيان والإجادة اعترف المؤرخون (٢) جميعاً بعلمه وفضله .

ولم يكن اهتمام العزيز والحاكم والظاهر والمستنصر بأقل من اهتمام المعز بالعلم والتعليم والعلماء والمعلمين فقد نبغوا جميعاً في مختلف العلوم وعلى الأخص في النجامة ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الخلفاء الفاطميين قد أحاطوا أولادهم بعلماء أفذاذ ومعلمين أقطاب يأخذون عنهم العلم . فترى برجوان مثلاً وهو أستاذ (٣) الحاكم قد خلف كثيراً من السكتب (٤) مما يدل على سعة اطلاعه واهتمامه بالعلم . وقد بلغ بهم الأمر أنهم لم يكتفوا بما حصلوه من العلم في حدائهم بل اتخذوا لأنفسهم أساتذة (٥) يجالسونهم في خلوتهم ويدارسونهم كتاب الله ويتلون عليهم سير الأنبياء والخلفاء والعظماء ويحدثونهم عن مكارم الأخلاق ويعلمونهم تجويد الخط .

(١) الخطط ج ٢ ص ١٦٦ ، واماظ المنفا ص ٦٥ ، ابراهيم جلال — المعز ص ٣٠ ، راجع Stanley Lane-Poole : A His. of Egypt in the Middle ages, p. 99.

(٢) راجع ابن الاثير — الكامل ج ٨ ص ٢١٣ ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٠٣ ، الخطط ج ٢ ص ١٦٧ .

(٣) O'Leary : A Short His. of the Fatimid Khalifate, pp.123, 131.

(٤) وفيات الاعيان — ج ١ ص ٨٨ ، الخطط ج ٣ ص ٥

(٥) كان يطلق على القائم بهذا العمل «صاحب القلم الدقيق» (راجع القلقشندي — صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩١ ، الخطط ج ٢ ص ٢٤٤ ، الفاطميون ص ١٥١ و ١٥٢)

ولم يعن الفاطميون بتثقيف أنفسهم وأبنائهم فحسب بل تراهم قد اهتموا كذلك بتعليم صغار غلمانهم ومماليكهم فقد أنشأ المعز^(١) حجرا لتعليم الصبيان الذين يخدمون منصب الخلافة بالقصر . وهؤلاء الصبيان يختارون من بين وجهاء الناس من كل ما هو شهر معتدل القامة حسن الخلقة وكان عددهم نحو خمسة آلاف نسمة ومتى عرف الواحد منهم بالفضل والشجاعة خرج إلى الإمرة والتقدم . وقد عني الظاهر^(٢) كذلك بتعليم مماليكه مختلف العلوم وسائر فنون الحرب من رماية ومطاعنة ومسابقة ، وكان الأستاذون هم الذين يشرفون على تربية هؤلاء جميعا وتعليمهم^(٣) . ومدرسة صبيان الحجر هذه تعد بمثابة مدرسة خاصة للدراسات العسكرية وغيرها .

وهكذا نرى أن الخلفاء الفاطميين قداهتموا كثيرا بتعليم أنفسهم وأبنائهم ومماليكهم وخدامهم ، وقربوا العلماء وأجروا عليهم الأرزاق . أما أبناء الأمراء والقواد والموسرين والأغنياء فمكانوا يتخذون لأبنائهم مؤدبين يعلمونهم في المنازل وكان هؤلاء يختارون من بين أجل العلماء وأفضلهم ذكرا . فقد ذكر ياقوت^(٤) أن علي بن منصور بن طالب الحلبي ويعرف بابن القارح كان يؤدب ولدى القائد حسين بن جوهر في زمن الحاكم بأمر الله ، وكان ابن القارح هذا شيخا من أهل الأدب راوية للاخبار حافظا للغة والأشعار عالما

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٧١ ، صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨١ ، الخطط ج ٢ ص

٣٠٩ وما يليها .

(٢) الخطط ج ٢ ص ١٦٩ و ٢٧٨ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣١١ و ٣٦٩ .

(٤) معجم الادباء ج ١٥ ص ٨٣ و ٨٤ .

بالنحو وكانت وفاته سنة ٤٦١ هـ . كما ذكر ياقوت (١) أيضا أن علي بن جعفر الذى يعرف بابن القطاع كان يعلم ولد الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر ، وكان امام وقته فى علم العربية وفنون الأدب وكانت وفاته سنة ٥١٤ هـ .

كان أبناء الخلفاء والأمراء والقواد والأثرياء اذن يلقون العلم منفردين على أيدي مؤدبين خاصين يعلمونهم فى المنازل . أما طبقة الشعب من لا يستطيعون أن يتخذوا لأبنائهم مؤدبين خاصين فيظهر أنهم كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب التى كانت لا تخلو منها قرية ولا مدينة . وقد كان لرعاية الخلفاء العلم والعلماء والأدب والأدباء والشعراء أثر كبير فى كثرتها وإقبال الناس عليها حتى يطفئوا ظمأهم للعلم إذ كانت الكتاتيب هى التى تعد النشء للالتحاق بالجامع الأزهر وغيره من معاهد التعليم الأخرى ، فضلا عن أن تلقين الصبية أصول الدين الحنيف ومساعدتهم على حفظ كتاب الله العزيز مما يزيد الناس احتراماً لهم وقد يكون نصيبهم فى النهاية النبوغ فى العلم أو القربى لله وللخليفة .

الكتاب

اتخذ المسلمون منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم الكتاب أو المكتب مدرسة يحفظ فيها أبناءهم القرآن الكريم ويتعلمون مبادئ القراءة والكتابة . وقد ظل الكتاب ينمو شيئاً فشيئاً حتى انتشر انتشاراً كبيراً فى مصر وغيرها من البلدان الإسلامية الأخرى .

(١) معجم الادباء ج ١٢ ص ٢٧٩ وما يليها .

وكان الكتاب في أول أمره يتخذ مكانه في المسجد في زاوية من زواياها أو أمام محراب من محاريبه وذلك لما بين المسجد والكتاب من علاقة دينية تعليمية وثيقة . فالكتاب من غير شك كان يعد النشء للالتحاق بالمسجد أو الانتقال إليه ، ولكنه بعد ذلك انفصل في أماكن مستقلة بعيدة عن المساجد فقد كرهه ^(١) كثير من المسلمين وجود الأطفال بها لما في ذلك من التشويش على المصلين وعلى حلقات الدرس ولما قد يحدثه الأطفال من العبث بجواري المسجد وبنائه وهو المكان المقدس الذي تتلى فيه آيات الذكر الحكيم . ولكنه على الرغم من ذلك ظل كثير من الكتاتيب بالمساجد أو الزوايا أو ألحقت بها وكان الكتاب في المسجد يتخذ شكل حلقة من حلقات الدرس المختلفة فيجلس المعلم ^(٢) إلى سارية من سوارى المسجد ومن حوله الصبيان يعلمهم القرآن الكريم أو كتابة الخط .

أما ذلك الكتاب الذي استقل بنفسه بعيداً عن المسجد فقد اتخذ المعلم في حجرة من داره أو في أى مكان آخر . وما يسترعى النظر أن المسلمين في مصر وغيرها من البلدان لم يعنوا بزخرفة الكتاب أو تنسيقه في العصر الفاطمي أو في غيره من العصور الأخرى بل ظل على سذاجته وبساطته مدى عصور طويلة حتى أننا لا نرى فرقاً كبيراً بين كتاب الماضى وكتاب اليوم — إن كان لا يزال له وجود بالقريبة المصرية .

(١) راجع Goldziher: Muslim Education, vol. 5 Enc. of Religion and Ethics, pp. 203, 204 .

(٢) ظل هذا النوع من الدراسة بالمسجد مدة طويلة بعد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ذكر ابن بطوطة (الرحلة ج ١ ص ٥٦) أن جماعة من المعلمين كانوا يقرءون الصبيان القرآن أو يعلمونهم اجادة الخط بجامع دمشق .

أما أثاث الكتاب فكان يفرش بالحصر غالباً وكان يجلس عليها الصبيان متربعين حول معلمهم . وكانت أدوات الدراسة فيه لا تتجاوز المصحف الشريف وعدة من الألواح يكتب عليها الصبيان وكذلك عدداً من الدوى والأقلام . وكان صبيان الكتاب يلوثون أصابعهم وملابسهم بالمداد وهم في جلوسهم بين انحناء يقوس الظهر أو اهتزاز قد يؤثر في المخ . (وكان المكان الذي يشغله الكتاب يختلف باختلاف المعلمين ومشاربهم فمن مكان متسع طلق الهواء يساعد الصبية على الإقبال على الدرس إلى مكان مظلم لا تدخله الشمس يحد من استعداد الصبية للحفظ والإفادة من التعليم .)

منهج الدراسة بالكتاب

كانت هذه السكتاتيب التي أتينا على وصفها وتاريخ نشأتها تعتبر المرحلة الأولى للدراسة في العصر الفاطمي الأول . أما مرحلة الدراسة التالية فكانت تأخذ مكانها في الجامع الأزهر أو معاهد التعليم الأخرى . فالطفل الذي ينبغي أهله أن يلحقوه في شبابه بالأزهر أو أى مسجد آخر كان عليهم أن يبعثوا به إلى معلم^(١) الكتاب حتى إذا ما أصاب من تلك الدراسة الأولية ما يراه أهله ومعلمه كافياً بعثوا به إلى الجامع الذي يكون المرحلة التالية من التعليم حيث ينفق سنوات طويلة من حياته يتابع فيها ماشاء من مختلف الدراسات . ففي تراجم كثير من العلماء نرى أنهم ذهبوا أولاً إلى المكاتب ثم بعد ذلك إلى حلقات الدرس بالمساجد ، على أن كثيراً من الصبيان كانوا يقنعون بما

(١) كان يطلق عليه « الفقيه » في كثير من الأحيان . (راجع صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٢)

استطاعوا أن يحصلوه في المكتب من الإلمام بالقراءة والكتابة أو حفظ ما تيسر من القرآن الكريم فيعودون إلى ما يحترفون من صناعة أو زراعة وبذلك يقف تعليمهم عند هذه المرحلة الأولى من الدراسة .

ولكان الطفل في الغالب يرسل إلى الكتاب أو يجلس إلى مؤدب يؤدبه فيما بين الخامسة والسابعة من عمره فقد ذكر جولدزير^(١) أن الطفل كان يرسل إلى الكتاب في سن السابعة اذ يكون في ذلك الوقت مسئولاً عن أمور دينه والقيام بها ، بينما ذهب جريفز^(٢) إلى أن الطفل كان يرسل إلى المكتب في الخامسة من عمره فإذا ما بلغ الثامنة وكان ينتمى إلى أسرة معوزة انصرف إلى الصناعة أو التجارة أما إذا كان الطفل موسراً فإنه يواصل الدراسة بالكتاب إلى الرابعة عشرة من عمره . وتشهد تراجم كثير من العلماء المصريين الذين عاصروا الفاطميين بأن الطفل كان يذهب إلى الكتاب في سن مبكرة ، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة^(٣) في ترجمته لعلي بن رضوان^(٤) الطبيب المصري العالم الفيلسوف وكان مولده بمصر وبها تعلم الطب — أنه بدأ دراسته في السنة السادسة من عمره ولما بلغ العاشرة ذهب إلى القاهرة حيث واصل دراسته ، وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره بدأ يتعلم الطب والفلسفة . وقد عاصر ابن رضوان هذا الحاكم والظاهر والمستنصر وكانت وفاته بمصر

Goldziher: Muslim Education, p.200.

(١)

Graves, F.P. :A His. of Education during the Middle Ages, p. 44.

(٢)

(٣) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٩٩ وما يليها .

(٤) ترجم الففطلى أيضا لعلى بن رضوان في كتابه « أخبار الحكماء » ص ٤٤٣ و ٤٤٤ .

سنة ٤٥٣ هـ . ونرى كذلك في ترجمة^(١) الحسين بن علي أبي القاسم المعروف بالوزير المغربي — وكان مولده بمصر سنة ٢٧٠ هـ — أنه حفظ القرآن وعدة كتب في النحو واللغة وكثيراً من الشعر وأتقن الحساب والجبر والمقابلة وأجاد الخط قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره مما يدل دلالة واضحة على أنه بدأ دراسته في سن مبكرة قد تكون قبل السابعة بكثير .

والحياة في الكتاب كانت فطرية في الغالب وأوقات الدراسة فيه كانت تحد بعلاقات طبيعية ، فشروق الشمس يعتبر مبدأ اليوم المدرسي صيفاً وشتاء وأذان العصر نهايته . وهكذا يطول اليوم المدرسي أو يقصر تبعاً لشروق الشمس وأذان العصر فإذا ما بزغت الشمس هرع الأولاد إلى الكتاب صبيحة كل يوم اللهم إلا إذا كان يوم الجمعة^(٢) أو أحد أيام المواسم الرسمية^(٣) .

(١) راجع معجم الادباء ج ١٠ ص ٧٩ وما يليها ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٥٥ وما يليها .

(٢) كان أول من أمر براحة أولاد الكتاتيب من القراءة في يوم الجمعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (مصطفى بيوم — الجامع الازهر ص ٤٧)

(٣) كانت المواكب والحفلات الفاطمية تبلغ ذروة البهاء والبذخ أيام الأعياد والمواسم الرسمية وكان الشعب المعمر يشهد بها بكثير من الاعجاب والحماسة إذ كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بهذه الاعياد في فيض من الروعة والبهاء . فتقام فيها المآدب والحفلات الشائقة ويكثر البذل والعطاء وتقام الاسمطة في قصور متعددة وتوزع الانعامات بمقادير وافرة وكانت الصبية من غير شك تستقبل هذه الاعياد والمواسم فرحة مفرحة .

أما هذه الاعياد والمواسم الرسمية فكانت عديدة متنوعة في عهد الدولة الفاطمية وكان بعضها أعياداً عامة وبعضها أعياداً مذهبية تخص الفاطميين دون غيرهم . وهذه الاعياد جميعها هي — رأس السنة — أول العام — يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين) — مولد النبي صلى الله عليه وسلم — مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه — مولد الحسن عليه —

فكانوا يعطون فيه عطلة لإراحته من عناء الدرس وللاحتفال والتمتع بالأعياد والمواسم المختلفة .

أما منهج الدراسة بالكتاب فكان أساسه وأهم مواده القرآن الكريم فنه يتعلم الصبي القراءة وأصول الدين . يقول ابن خلدون ^(١) : « اعلم أن تعليم الولدان القرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل من بعض الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأسايبه يكون حال ما يبنى عليه . » وكان على الصبي أن يحفظ القرآن مقسما إلى أقسام تختلف طولا وقصرا وصعوبة وسهولة تبعا لتقدم الصبي في السن وقوة حافظته .

لم يكن حفظ القرآن واستظهاره كل شيء في منهج الكتاب بل كان الطفل يتعلم الخط والقراءة كذلك لأنهما وسيلتان لتعلم القرآن الذي كان يعتبر أساسا للمنهج . وكان على الطفل أيضا أن يتعلم قدرأ من الحساب ^(٢) يعينه

— السلام — مولد الحسين عليه السلام — مولد فاطمة — مولد الخليفة الحاضر — ليالى الوقود (ليلة أول رجب — ليلة نصف رجب — ليلة أول شعبان — ليلة نصف شعبان) — موسم ليلة رمضان — غرة رمضان — جبر الخليج — يوم النوروز (عيد فارسي قديم) — يوم القفاس — يوم الميلاد — خميس العهد (راجع صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٨ وما يليها ، الخطط ج ٢ ص ٣٨٤ وما يليها ، الفاطميون ص ٢٨٤ وما يليها)

(١) المقدمة ص ٦٢٩ و ٦٣٠ .

(٢) ابن خلدون — المقدمة ص ٥٣٩ ، طوطح — التربية عند العرب ص ٧٤ .

على معرفة أوقات الصلاة وجمع الزكاة كما كان يتعلم أحياناً اللغة والنحو والشعر^(١). (فنهج الكتاب اذن يتلخص في استظهار القرآن الكريم والوقوف على أصول الدين وتعلم بعض مبادئ اللغة والشعر وإجادة الخط ، وكان الصبي في الغالب يتم هذه المرحلة الدراسية في بضع سنوات لا نستطيع تقديرها على التحديد لأنها تختلف باختلاف استعداد الأطفال وظروفهم . وقد ذهب طوطح في كتابه « التربية عند العرب »^(٢) ، إلى أن الطفل يستطيع أن يتم هذه المرحلة الدراسية الأولى في ثلاث أو أربع سنوات ولكنى أرى أن هذا غير معقول إذ أن مثل هذا المنهج لا يمكن الإلمام به في مدة قصيرة كهذه . وإذا ما ذهب الطفل إلى الكتاب حفظ أولاً سوراً قصيرة من القرآن بطريقة التلقين وتعلم أثناء ذلك كتابة الحروف وهجاية الكلمات ونطقها بطريقة التقليد والمحاكاة ثم يقوم بكتابة وقراءة بعض السور التي حفظها ، ثم يتدرج من القراءة والحفظ بالتلقين إلى القراءة والحفظ عن طريق الكتابة في اللوح والنقل من المصحف الشريف ويعرض كل ما يكتب أو يحفظ على معلمه .

ومهما يكن من شيء فإن الدراسة بالكتاب كانت مظهراً لنشاط دائم فهذا الطفل يقبل ثم يدبر وذاك يقرأ بصوت مرتفع وآخر يكتب في لوحه والمعلم يستمع إلى هذا فيصلح خطأه ثم يملى ذاك أو يعلمه أصول دينه . فالتعليم في الكتاب كان يقوم على مبدأ التعليم الفردي الذي تنادى به التربية الحديثة ، لكننا نأخذ عليه مأخذاً واحداً قد يقلل من شأنه ألا وهو الاعتماد الكلى

Goldziher: Muslim Education, pp. 200, 201.

(١)

Graves: A His. of Education during the Middle Ages, p. 44.

(٢) ص ٧٥

على الحفظ والاستظهار إذ كان على الطفل أن يحفظ القرآن عن ظهر قلب تلقيناً أو كتابة وكان هذا الحفظ يتطلب ذاكرة^(١) لفظية قوية تقلل من الابتكار والتفكير ، فمما لا شك فيه أن هذا النوع من الذاكرة يعتمد على الترابط الآلى^(٢) وحده من غير ما نظر إلى معنى أو فهم . فكثيراً ما كان الأطفال يضطرون إلى استعادة السورة بأكملها كي يعثروا على الجزء الذى يبغون تسميعه للعلم ، وهذا يقلل من قوة التفكير والاستنباط اللذين هما أساس الحياة العقلية . وقد انتبه حاجى خليفة صاحب كشف الظنون إلى ذلك الخطأ واعترف به فتراه يقول^(٣) : « الحفظ غير الملكة العلمية ، اعلم أن من كان عنايته بالحفظ أكثر من عنايته إلى تحصيل الملكة لا يحصل على طائل من ملكة التصرف فى العلم ولذلك ترى من حصّل الحفظ لا يحسن شيئاً من الفن وتجد ملكته قاصرة فى علمه إن فاوض أو ناظر ، ومن ظن أنه المقصود من الملكة العلمية فقد أخطأ وإنما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدوال إلى المدلولات ومن اللازم إلى الملزوم وبالعكس . فإن انضم إليها ملكة الاستحضار فنعم المطلوب وهذا لا يتم بمجرد الحفظ بل الحفظ من أسباب الاستحضار وهو راجع إلى جودة القوة الحافظة وضعفها .

(١) يتميز صاحب الذاكرة اللفظية بقدرته على استظهار ما سمعه أو قرأه من الالفاظ والاحتفاظ به طويلاً على الشكل الذى حفظه به . وهذا النوع من الذاكرة وإن كان يفيد بعض اللغويين أحياناً إلا أنه يكون عقبة كبيرة فى التفكير وفى التذكر نفسه . فصاحبه يضطر إلى استعادة الموضوع كله من أوله حتى يعثر على الجزء الذى يبنى تذكره (راجع قنديل — أصول علم النفس ج ٢ ص ١٠٣) .

(٢) أى أن اللفظة الأولى تدعو اللفظة الثانية والصفحة الأولى تدعو الصفحة الثانية وهكذا دون أعمال الفكر .

(٣) ج ١ ص ٢٨ .

ولا غرو أن حاجي خليفة في مقالته هذه يشير إلى مضار الحفظ ويعبر عما يطالب به المربون اليوم وهو تعويد النشء التفكير والاستنباط لما في ذلك من الفائدة العظيمة في التربية والتعليم (١).

هذا إلى أن حفظ الطفل القرآن في هذه السن المبكرة لا يتفق وأصول التربية الصحيحة في شيء لأن القرآن يحتاج إلى درجة عقلية خاصة تتفق وبلاغة هذا الكتاب المقدس وعلو أسلوبه وما ورد فيه من مجاز وكناية وتشبيه وتشريع . وكان الأجدر بمعلمي الأطفال في ذلك العصر أن يبدأوا بتعليم الصبي القراءة والكتابة والحساب واللغة والشعر حتى إذا ما نضج عقله قليلاً انتقلوا به إلى دراسة القرآن فيستطيع عندئذ أن يفهم ويدرك عباراته ثم يهضم معانيه ويمثلها ، وفهمه لمعان القرآن يساعده من غير شك على سرعة حفظه ويقلل من الجهد الذي يبذله . وقد أيد بعض المربين العرب هذا الرأي القائل بعدم تقديم دراسة القرآن فيبدأ الصبي بتعليم الشعر وعلوم اللغة ثم ينتقل من ذلك إلى تعلم الحساب حتى إذا أتقن ذلك انتقل إلى دراسة القرآن فإنه يتيسر عليه فهمه بهذه المقدمة . ووافق ابن خلدون على هذا المذهب وعلق عليه (٢) بقوله : « وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه وهي أملك بالأحوال ، ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إشاراً للتبرك والثواب وخشية ما يعرض من جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن . . . ولو حصل اليقين باستمراره في طلب

(١) قنديل — أصول التربية وفن التدريس ص ٩٨ — ٩٩

(٢) المقدمة ص ٦٣٢ .

العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب . . . أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق ، . ولم يفت ابن خلدون أن يؤكد إلى جانب ذلك أن تعليم العلم يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا مع مراعاة قوة عقل المتعلم واستعداده لقبول ما يرد عليه (١) .

(وهكذا نرى أن حياة الطفل في الكتاب في العصر الفاطمي كانت مليئة بالنشاط العقلي ولكنها كانت في الوقت نفسه مملّة شاقة خالية من ضروب التشويق ، ولم يكن المعلم في ذلك الوقت يعنى في كثير أو قليل بترقية عقل الطفل أو تدريبيه تدريجياً منظماً يعودده التفسير الصحيح وإتماماً كان غرضه الاسمى مقصوراً على تحفيظ الصبغة القرآن الكريم الذي هو أساس الدين . ولم يكن المعلم في ذلك مخطئاً إذ كانت هذه هي سنة القرون الوسطى حيث كان الدين غالباً على عقول المربين ومؤثراً في التعليم إلى حد كبير .

معلمو الكتاتيب

وقفنا في الباب الأول على ما كان من أمر التعليم في صدر الاسلام وفي عهد الأمويين وصدر الدولة العباسية وعرفنا أنه لم يكن في بادئ الأمر مهنة أو صناعة ولم يتخذها القائمون به حرفة يكسبون بها عيشهم ، وأنه تطور بعد ذلك فاستحال إلى صناعة لا بتغاء الرزق ورفع المنزلة في الدنيا . فالتعليم في العصر الفاطمي اذن كان قد أصبح صناعة اختصت بها طبقة من الناس وفنا لا يقدم عليه إلا أهله ، وكان المعلمون في هذا العصر لهم حظ وافر من الاحترام

والتبجيل فقد عرف الفاطميون أنهم حملة العلم ورسول دعوتهم المذهبية وأنهم بالعطف عليهم يستطيعون أن يحققوا أغراضهم السياسية والدينية والاجتماعية. وكان المعلمون على ضروب وأنواع فمنهم من اختص بتعليم الأولاد، والصيفية ومنهم من كان يؤدب أبناء الخلفاء والأمراء والخاصة، ومنهم من كان يقوم بالتعليم في الجامع أو المسجد. وكانت لهم كذلك ألقاب^(١) مختلفة

(١) كان للمعلمين رتب وألقاب مختلفة منها :

« المعلم » وكان أحط الرتب العلمية وأعماها ، ولم يكن يدل على كثير من العلم أو الأدب أو المقدرة أو المقام الاجتماعي . (راجع طوطح — التربية عند العرب ص ٤٧ ومايلها)
« المؤدب » وكان معلما خصوصا يذهب الى بيوت الخاصة لتأديب أولادهم وكان أحسن حالا من المعلم (راجع منز — الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٠٨) .

« المدرس » وهو الذي كان يتصدى لتدريس العلوم الشرعية وهو أرقى درجة من المعلم ولا شك أن هناك ارتباطا بين هذا اللقب والمدرسة التي استحدثت على يد نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلاجوقي والتي لانراها في مصر الا في عهد صلاح الدين بن أيوب (راجع صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٤) .

« المعيد » وهو يلي المدرس في مكانته العلمية فقد قال القلقشندي : (صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٤) : « وهو ثانی رتبة المدرس فيما تقدم وأصل موضوعه أنه إذا ألقى المدرس الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألفاه المدرس اليهم ليفهموه ويحسنوه . »
« الشيخ » ويطلق على العلماء توقيرا لهم . قال القلقشندي : (صبح الاعشى ج ٦ ص ١٧)
« الشيخ من القاب العلماء والصلحاء ، وأصله في اللغة الطاعن في السن ولقب به أهل العلم والصلاح توقيرا لهم كما يوقر الشيخ الكبير »

« الفقيه » من القاب العلماء ، قال القلقشندي (صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٢) : « أما إطلاقه على فقهاء المبكاتب ونحوهم فعلى سبيل المجاز »

« الأستاذ » أطلق هذا اللقب الفارسي أولا على أصحاب المصانع ثم أطلق على من أظهر مهارة في التعليم (طوطح — التربية عند العرب ص ٥٠) .

« الرحلة » من القاب كبار العلماء وهو الشهير بالعلم والتعليم حتى أن الطلبة ترحل اليه من كل ناحية للاخذ عنه ، وقد استعمله أصحاب التراجم من المؤرخين (راجع صبح الاعشى ج ٦ ص ١٤) =

تختلف باختلاف نوع الدراسة التي كانوا يقومون بها ، فكان منهم المعلم والمؤدب والمدرس والفقيه والشيخ وغير ذلك من الألقاب الأخرى التي قرنت بأسماء المعلمين والعلماء . وكان لقب «معلم» من غير شك أهم هذه الألقاب جميعا وأقلها مرتبة ويطلق في الغالب على معلمي الأولاد والصبية والسكراتيب والسكراتيب .

كان معلم السكراتيب يقوم بالتعليم في أولى المراحل الدراسية حيث لا يتعدى المنهج تحفيظ القرآن الكريم وما يتطلب ذلك من معرفة القراءة والكتابة فلم يتزود من العلم إلا بالقليل . ولم يكن يتخذ مهنة التعليم حبا للعلم ونشره أو ابتغاء لمرضاة الله وإرشاد عباده وإنما وسيلة لكسب الرزق وتحصيل القوت ، ولذلك حط الناس من قدره وقللوا من احترامه وضرب المسلمون الأمثال في حمقه ، فقد عقد الجاحظ فصلا^(١) عن المعلمين بين فيه مقام معلمي السكراتيب الاجتماعي وآراء العامة فيهم . فمن قائل « أحقق من معلم كتاب » الى قائل « الحقيق في الحاككة والمعلمين والغزاليين » الى غير ذلك من الأمثلة الأخرى التي تدل على حماقتهم وضعف عقولهم وقلة علمهم . ولعل السبب الأول في الخط من كرامتهم وما لحقهم من ضروب السخرية والاستهزاء أن المسلمين احتقروا صناعة

«الامام» كان هذا اللقب أعلى درجات السلم العلمي فقد أعطى لمن أظهر نبوغا لامراة فيه ، فالامام في العلم المرجع والثقة في موضوعه ، وقد ذكره السيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » عند ترجمته لكثير من العلماء والفقهاء .

وكانت هذه الألقاب جميعا تقرر عادة بأسماء المعلمين والعلماء ولم تعط لهم في حفل رسمي أو بعد الحصول على إجازة دراسية وإنما استحقوها لمقدرتهم العلمية وحبيهم للعلم واعتراف الناس بهذه المقدرة وذاك النبوغ .

التعليم في بدء حياتهم واهتموا بإدارة شؤون الدولة ، وقد أشار ابن خلدون الى هذه الحقيقة في مقدمته ^(١) فقال : « واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به سواهم وأصبح حرفة للعاش ، وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقراً عند أهل العصبية والملك . » يضاف الى ذلك أن معنى الكتاتيب كانوا في الغالب من طبقة فقيرة وكانوا يظهرون كبرياء وغطرسة على الرغم من جهلهم إذا ما قورنوا بغيرهم من العلماء والشيوخ الذين كرسوا حياتهم للعلم بعد أن تذوقوه واخلصوا له . ويضاف الى هذين السببين المذكورين أن معلم الكتاب كان يلزم الصبية دائماً بما قلل من مستواه العقلي وأثر في طرق تفكيره وكون لديه ميولا خاصة فأصبح ينهى ويأمر ويستبد بسلطانه فيلقى الرعب في نفوس تلامذته بل وكل من يحيط به .

وهكذا نرى أن معلم الكتاب كان من طبقة اجتماعية دنيا تختلف كل الاختلاف عن الطبقة التي كان ينتمي اليها غيره من المعلمين الذين قاموا بالتدريس في غير الكتاتيب ، فهو مثلاً يختلف عن المؤدبين الذين اختلفوا بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء والخاصة وعن الشيوخ الذين كانوا يعلمون في المساجد والذين كانت لهم كرامة واحترام عند عامة القوم وخاصتهم . وقد وضع الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » ^(٢) الفرق بين هؤلاء وهؤلاء فقال : « والمعلمون عندى على

(١) س ٣٢ — وقد أشار اليها كذلك جولد تزيهر في مقاله القيم عن التربية عند

العرب . (راجع Goldziher : Muslim Education, p. 202)

(٢) ج ١ ص ١٠٠ و ١٠١ .

ضربين منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة السكسائي^(١) ومحمد بن المستنير^(٢) الذي يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ، ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم . فان ذهبوا الى معلى كتاتيب القرى فان لكل قوم حاشية وسفلة فما هم في ذلك إلا كغيرهم ، وكيف نقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء .

(كان المؤدب مما لا شك فيه معلما خاصا للأطفال فكان يقوم بمثل العمل الذي يقوم به معلم الكتاب، ولكنه كان من طبقة أخرى تفضل طبقة معلم الكتاب كثيراً . وكان يختار في الغالب ممن اشتهروا بالعلم والنجابة ومن يتحلون بالخلق المتين ، وكان يظل تحت إشراف من اختاره ويغلب على الظن أن مؤدب الأطفال كان يقوم بالعناية بأخلاقهم وآدابهم كما كان يقوم بتعليمهم ، وهو ظاهر من التسمية .)

(والتعليم بالكتاب لم يكن في الواقع يدر شيئاً كثيراً من المال وقد قال متر^(٣) : « أما إذا كان أحد معلم صبيان أو معلم كتاب ... فمعنى هذا عيش مر وحرقة محتقرة » . ولم يكن لهذه الطبقة من المعلمين حظ وافر من أرزاق الخلفاء

(١) كان اماما في النحو واللغة والقرآت ولم يكن له في الشعر يد وكان يؤدب الأمين ابن هارون الرشيد ويعلمه الأدب . وتوفي سنة اثنين أو ثلاث وثمانين ومائة هجرية (راجع وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٣٠ و ٣٣١)

(٢) كان من أئمة عصره وتوفي سنة ٢٠٦ هـ (راجع وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٩٤ و ٤٩٥)

(٣) الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٠٦ .

أو عنايتهم الخاصة لفقرهم وقلة علمهم وقلة شهرتهم ولبعدهم عن مركز الخلافة .
أما ما كان يدفعه الصدية أجر^(١) لهم فكان قليلا كذلك ، وكان بعض
الصدية لا يدفعون شيئا وكثيرا ما كان يدفع لهم بعض ما يأكله الناس
وينتفعون به ، لذلك كانت رغفان المعلم مثلا يضرب في الاختلاف وشدة
التفاوت لأن رغفان المعلم تختلف باختلاف آباء الصديان في الغنى والفقر
والجود والبخل^(٢) . أما المؤدبون فكانوا من غير شك أحسن حالا من معلمي
السكراتيب لقربهم من الخلفاء والامراء ولقدرتهم العلمية وشهرتهم الفقهية .
ومهما يكن من شيء فإن معلمي السكراتيب على الرغم من احتقار الناس

(١) اختلف بعض المسلمين في جواز الاجر على التعليم وعلى الاخص التعليم الديني فذهب
بعضهم إلى أن التعليم يكون حسبة من غير أجر . قال صاحب كشف الظنون (ج ١ ص ٣٠) :
« اعلم أن الافادة من أفضل العبادة فلا بد له من النية ليكون ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى وإرشاد
عباده ولا يريد بذلك زيادة جاه وحرمة ، ولا يطلب على إفادته أجرا اقتداء بصاحب الشرع
عليه الصلاة والسلام . » بينما ذهب آخرون إلى جواز أخذ الاجر . وقد قال الغزالي في فاتحة
العلوم (ص ١٦ و ١٧) : « فإن قلت اليس يجوز عند الشافعي رضي الله عنه أخذ الاجرة
على تعليم القرآن والنكاح بتعليم القرآن . . . وهذا تعليم لغير الله تعالى ، فأقول هذا جائز
ونزهد على هذا فنقول : يجوز أخذ الاجرة على الاذان وإقامة صلاة التراويح ويجوز للمعيد
أخذ الاجرة على مسائل معينة يكررها والمدرس على مسائل بعينها يتعب نفسه فيها ، ولا ينبغي
أن نظن أن امام صلاة التراويح يأخذ الاجرة على الصلاة وأن الصلاة لغير الله جائزة بهذا
الدليل ، فذلك حرام بالاتفاق ، ولكن اتعابه نفسه في حضور موضع معين وقيامه به في وقت
معين ليس بواجب عليه وليس من نفس العبادة وإنما الاجرة في مقابلة ذلك التعب . . . وكذلك
اتعابه نفسه في تلقين سورة القرآن شخصا معينيا ليس بواجب فله أن يتقرب إلى الله تعالى بهذا
التعب وله أن يأخذ العوض عليه . . . فكذلك التعليم »
لم يبق أخذ الاجر على أي الأحوال مبدءا نظريا بل طبق فعلا وكان عدد المعلمين بالاجر
كثيرا لحاجتهم اليه .

لهم لعدم تعمقهم في العلم ولما اتصفوا به من كبرياء وقسوة ، كانوا يقومون بأعداد النشء للمرحلة التالية من التعليم في الجامع أو المسجد وتلقين الصبغة كتاب الله العزيز وتعليمهم قواعد الإسلام وأصول الدين وتعويدهم الصلاة والصوم . هذا بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا ليخرجوا على إتيان منكر أو إهمال غرض ديني ، فكانوا بذلك ينشرون الفضيلة بين جوانح الأطفال ويطبعونهم على حب الله والخير والتجمل بالصفات الطيبة وإحياء الدين الحنيف . وأظن أن في هذا انصافاً لهم فقد قاموا بتحقيق الغرض من التربية في ذلك العصر .

أغراض التعليم في الكتاب

كان التعليم في الكتاب في العصر الفاطمي يصطبغ بصبغة دينية ويرمى إلى غرضين أساسيين أولهما غرض علمي وثانيهما غرض خلق .
أما الغرض العلمي فكان يرمى إلى تزويد الصبي باستظهار القرآن الكريم وما يتبع ذلك من تعليم القراءة والكتابة وتحسين الخط وقليل من الحساب والنحو واللغة والشعر . وكان لهذا المنهج من غير شك عيوب وقفنا عليها في هذا الباب وانهينا إلى أن مواده كانت تعتمد على الذاكرة اللفظية ، وأنها كانت فوق المستوى العقلي للطفل ، وإن وسيلة تعليمها كانت لا تعود الطفل التفكير الصحيح . ولكن هذا المنهج على الرغم من ذلك أفاد الصبي إفادة لا غبار عليها فقد أعده لمرحلة الدراسة التالية بالجامع أو المسجد ، أو للحياة العملية إن كان يود أن يكون زارعا أو تاجرا أو صانعا . فهذه المواد جميعا ضرورية في كلتا الناحيتين ، هذا فضلا عن أن طريقة التعليم التي كانت تتخذ

وسيلة لتعليم مواد هذا المنهج ساعدت الصبي على تكوين نفسه وعودته عدم الاعتماد على غيره كما عرفته أن تحصيل العلم لا يكون إلا عن طريق المذاكرة والاستظهار .

أما الغرض الخلق فقد اهتم بتحقيقه المعلمون والآباء ودفعهم إلى ذلك ما جاء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية من الحض على حسن الخلق والتمسك بأهداب الفضيلة ، فأحاطوا الضنية بسياج متين وأخذوهم بالفضائل وشددوا عليهم في اتباعها . ولا عجب في هذا فقد كان المعلمون من رجال الدين وكان عليهم أن يبشوا في الأولاد حب الآخرة وإن الدنيا دار فرار والآخرة دار قرار ، وأن التعليم وسيلة للتقوى والنعم الأبدى . ففرضوا على الطفل الصلاة والصوم واحترام الكبير وإطاعة الوالدين والمعلمين والمؤدبين وأخذوه بالشدة إن فرط في اتباع هذا ، ولذلك اتصف معلم الكتاب بالقسوة بما كان له الأثر السيء في حياة الطفل ، فقد أدى هذا أحيانا إلى تنفيره من الكتاب أو تعويده الذل والاستعباد واضطراب التفكير^(١) . وكان

(١) لقد عقد ابن خلدون فصلا في مقدمته (ص ٦٣٢) بين فيه أن الشدة مضرّة بالأطفال فقال : « وذلك أن أرواف الحد في التعليم مضر بالتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المالك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى العكس وحمل على الكذب والخبث وهو النظار بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعمله المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا فسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانياتها »

الفاطميون يعهدون إلى المحتسبين^(١) بمراقبة معلمي الكتاتيب ومنعهم من اتخاذ وسائل القسوة مع الصبية وإصدارهم بالألا يضربوهم ضرباً مبرحاً ولا في مقتل.

وهكذا كان التعليم بالكتاب يرمى إلى هذين الغرضين العلى والخلق، وكان الصبي يؤخذ بالشدة أحياناً كثيرة، وكانت تغلب على طبائع المعلمين القسوة والغلظة. (أما التربية الجسمية والصحية فكانت على قيمتها مهمة^(٢)) كل الإهمال فلم يكن يستطيع الطفل الحركة أو الرياضة أثناء الدرس، هذا فضلاً عما كان يحدثه الجلوس طوال اليوم من تقويس في ظهره وتشويه في جسمه ولم ينتبه معلمو الكتاتيب للملحناية الصحية من أثر في التقدم الذهني لاتصال العقل بالجسم ولأن العقل السليم في الجسم السليم.)

وخلاصة القول أن التعليم بالكتاب عني بالناحيتين العلمية والاخلاقية ولم يعن بنواحي التربية الحديثة الأخرى، ولكن هذا كان أجل ما يعمل على تحقيقه المعلمون والآباء في القرون الوسطى أو العصر الذي نحن بصددده، فقد كانت الناحية الدينية تغلب على جميع مظاهر الحياة الأخرى كما كان الشعور الديني متسلطاً على النفوس والعقول. وقد أقبل الصبية على الدرس على الرغم

(١) المقدمة ص ٢٥٠، الخطط ج ٢ ص ٣٤٢.

(٢) تنبه الغزالي إلى عيوب التربية في هذا العصر، فعقد فصلاً في كتاب الأحياء (ج ٣ ص ٥٤ وما يليها) أتى فيه بآرائه في تربية الطفل وتأديبه. وقد حث معلمى الكتاتيب على أن يأخذ الصبي حظاً وافراً من الرياضة البدنية يقوى جسمه ويملاّه نشاطاً، فقال: «وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي عن اللعب وارهاقه إلى التعلم دائماً يمت قلبه ويبطل ذكاهه وينقص حليته العيش حتى يطلب الجيلة في الخلاص منه»

بما يلاقونه من ضروب القسوة والعنف وما يقاسونه من وسائل التعليم الشقية على النفس . وساعد الكتاب على اجتذاب عدد كبير منهم أن التعليم به كان بالمجان أو ما يقرب من ذلك ، فأجر المعلم لم يكن كبيراً كما ذكرنا من قبل وكان في غالب الأحيان يكتفى بالقليل من الخبز يعطى له بين آونة وأخرى وهذا لا يكلف والد الصبي شيئاً . والظاهر أن التعليم لم يكن عاماً ولا الزامياً بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، ولم يكن للحكومة تدخل قليل أو كثير إلا فيما يختص بالاشراف على وسائل العقاب والتأديب . ولم يكن هناك لوائح أو قوانين تربط مراحل التعليم المختلفة أو تحدد منهجاً خاصاً أو غير ذلك من الأمور التى نراها اليوم .

الباب الثالث

التعليم في المساجد

أثر المذهب الفاطمي في التعليم

لم يكد يتم للفاطميين فتح مصر ويستقر سلطانهم في البلاد حتى أخذ جوهر في بث الدعوة للخليفة المعز الفاطمي خاصة وللعلويين عامة بيد أنه لم يكن من السهل عليه أن يجعل المصريين جميعا يعتنقون المذهب الفاطمي لأن السواد الأعظم كان يدين بالمذهب السني ، أما الشيعة فإنهم كانوا لا يزالون في أول الامر أقلية صغيرة بالنسبة إلى المصريين ، ولا غرو فإن المصريين دانوا بالطاعة للفاطميين لأسباب سياسية لا غير ولما حاق بالبلاد في أواخر أيام الإخشيديين من مصائب متتابعة في وقت لم تتمكن فيه السلطة المركزية في بغداد من صد غزو الفاطميين.

كانت الدعوة للمذهب الفاطمي تقام في المساجد^(١) الجامعة وغيرها كما كانت تذاع على يد داعي الدعاة^(٢) وأعوانه من النقباء والنواب في كافة أنحاء البلاد ، وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر في القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة ليكون مركزاً لبث عقائد مذهبهم واجتماع أشياعهم سيما وأن بعض المساجد الأخرى كان لا يزال يؤمها كثير من المصريين السنيين .

(١) الخطط ج ٤ ص ١٥٦

(٢) كان يلقب قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزبه في اللباس وغيره ، وكان يقرأ عليه مذاهب أهل البيت ويأخذ العهد على من يفتقل الى المذهب الشيعي . وكان يساعده في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً كما كان له نواب ينوبون عنه في البلاد (راجع صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٨٧ ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ ، الفاطميون ص ١٤٢ .)

ولما كان الغرض الأول الذى كانت ترمى اليه سياسة الفاطميين فى مصر لتحقيق غاياتهم السياسية هو جذب الناس اليهم وادخالهم فى حظيرة مذهبهم، فانهم لم يألوا جهداً فى بث تعاليم هذا المذهب فى نفوس المصريين واتبعوا فى ذلك شتى الوسائل والطرق المرغبة للشعب وعلى الاخص ما كان يتعلق منها بالتعليم فى المساجد . فقد اتخذوها منبعاً لنشر دعوتهم، وكانوا يعلمون فيها العقائد الفاطمية، وكانت كذلك مثابة لفقهاء المذهب الشيعى الذى كان عليهم أن يحاضروا الناس فى أصول هذا المذهب . كما كان بعض الوزراء والقضاة يشتركون فى تأليف كتب فى الفقه الشيعى كان على الطلبة والأساتذة أن يتدارسوها فيما بينهم .

فقد ذكر لنا المقرئى^(١) أن قاضى القضاة أبا الحسن على بن النعمان القيروانى^(٢) جلس فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ بالجامع الأزهر وذلك فى أواخر عهد المعز لدين الله، وقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت وهو المسمى «بالاقتصار» فى جمع حافل من العلماء والكبراء واثبت أسماء الحاضرين . كما ألف يعقوب بن كلس^(٣) وزير العزيز بالله الفاطمى كتاباً فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله وهو المعروف «بالرسالة الوزيرية» نسبة الى مؤلفها الوزير، وهذا الكتاب محبوب على أبواب الفقه ويبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخارى

(١) الخطاط ج ٤ ص ١٥٦

(٢) تولى قضاء مصر فى أواخر عهد المعز لدين الله وأقام فى منصبه حتى توفى سنة ٣٧٤ هـ فى عهد العزيز بالله، وكان من غلاة الشيعة وأقطاب دعائها . (راجع السكندى — الولاة والقضاة ص ٤٩٥، ابن حجر — رفع الاصر ص ٥٨٧ و ٥٨٩ وما يليها .

(٣) الخطاط ج ٤ ص ١٥٧ .

ويشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وكان هذا الوزير يجلس بنفسه لقراءته على الطلبة وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء ، وجعله مرجع القضاء وأفتى الناس به ودرسوا فيه في الجامع العتيق . ولقد استطاع ابن كلس هذا بما أوتي من علم ومقدرة أن يقوم بأعمال جليلة في سبيل تأييد دعوة الفاطميين المذهبية حتى ان العزيز عاده في مرضه وقال له : « وددت لو انك تبتاع فأبتاعك بملكى أو تفدى فأفديك بولدى » (١)

فلا غرابة اذن إذا بذل الخلفاء الفاطميون جهداً خاصة لبناء (٢) مساجد جديدة تكون دوراً لتعليم هذه العقائد الدينية ، أو وقفوا الأوقاف وبنلوا العطايا والهبات لها ، أو أنفقوا الأموال في زينة زخرفوها بالمصاييح والتنانير التي كان بعضها يصنع من الفضة ، أو نقلوا اليها من مكتبة القصر نسخاً من القرآن الكريم مختلفة الاشكال والاحجام بعضها مكتوب بالذهب ، أو أضاءوها بالأنوار الساطعة في المواسم والاعياد ، وغير ذلك من الأمور الأخرى التي كانت من دواعي حب الشعب وتقديره للخلافة الفاطمية مما أثار روح الاقبال على العلم والتعليم ، وإن كان ذلك التعليم قد اصطبغ بصبغة مذهبية .

دأب الخلفاء الفاطميون على العناية بالمساجد وغيرها من دور التعليم الأخرى وساعدتهم على ذلك ما جمعوه من الأموال والثروات الطائلة من

(١) ابن منجب الصيرفي — الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ ، المقرئى — الخطاط ج ٢ ص ١٠

(٢) يقول القلقشندي (صبح الاعشى ج ٣ ص ٥١٢) عند كلامه على ركوب الخلفاء الفاطميين لمسألة الجمع الثلاث الاخيرة من رمضان أنه كان من من عاداتهم أن يمنحوا ديناراً لموظفي كل مسجد يمررون عليه في طريقهم إلى القصر في هذه الجمع ، وكانت هذه المساجد كثيرة حتى ان القلقشندي يلاحظ أن عدد الدنانير التي كانت تنفق في هذا السبيل كان عظيماً .

الجواهر والتحف الباذخة ما يفيض في وصفه المؤرخون المعاصرون^(١)، كما يشهد بهذه العناية ما جاء به المقرئى^(٢) عن المسبحى في حوادث سنة ٤٠٣ هـ ٤٠٥ هـ في أيام الحاكم بأمر الله، فقد قال: «وأمر الحاكم بأمر الله باثبات المساجد التي لا غلة لها ولا أحد يقوم بها، وماله منها غلة لا تقوم بما يحتاج إليه، فاثبت في عمل ورفع إلى الحاكم بأمر الله، فكانت عدة المساجد التي على الشرح المذكور ثمانمائة وثلاثين مسجداً ومبلغ ما تحتاج إليه من النفقة في كل شهر تسعة آلاف ومائتان وعشرون درهما، على أن لكل مسجد في كل شهر اثني عشر درهما... وقرى يوم الجمعة ثامن عشر صفر (سنة ٤٠٥ هـ) سجل بتجيبس عدة ضياع... وعدة قياسر وغيرها على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجامع...» وقال المقرئى^(٣) في مكان آخر: «كان القضاة بمصر اذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوماً على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة يبدؤون بجامع المقس ثم القاهرة ثم المشاهد ثم القرافة ثم جامع مصر ثم مشهد الرأس لنظر حصر ذلك وقنادهله وعمارته وما تشعث منه وما زال الأمر على ذلك الى أن زالت الدولة الفاطمية...»

(١) راجع المقرئى (الخطوط ج ٢ ص ٢٥١ — ٢٨١) فيما نقله عن السبعى وغيره من مؤرخى الدولة الفاطمية عن ثروة هذه الدولة وبذخها وبهاؤها، أبا المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢ و ١٩٣) فقد ذكر الكثير عن ثروة الحاكم بأمر الله وعمائه، الدكتور حسن ابراهيم (الفاطميون في مصر ص ٢٤٤ وما يليها) ففيه وصف ضاف لثروة الخلفاء الفاطميين ويسرهم وما كانوا يحوزون من نفائس، وفيه كذلك ما أمدا به ناصرى خسرو ذلك الشاعر الفارسى حين زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ في عهد المستنصر — من وصف لثروة البلاط الفاطمى وأبنته وما كانت عليه القاهرة من يسر وورخاء.

(٢) الخطوط ج ٤ ص ٨٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٨٤.

ومن مآثر الحاكم كذلك وقفيته الشهيرة على مساجد القاهرة وفي مقدمتها الجامع الأزهر ودار العلم^(١)، ففي سنة ٤٠٠ هـ وقف الحاكم على تلك المعاهد طائفة من أملاكه ورباعه بالفسطاط لينفق عليها من ريعها، وقد أورد لنا المقرئى^(٢) نص هذه الوثيقة .

ولم ينس الخلفاء الفاطميون نصيب المعلمين والطلبة من العطف عليهم والعناية بشئونهم، فهم أداة لنشر دعوتهم وعن طريقهم يستطيعون التأثير في عقول النشء وغزوها، فسكان الطلبة فضلا عن أنهم لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقة أو كلفة فانه كان يرتب لهم إلى جانب الدراسة إعطيات وازراق تسكني للانفاق عليهم في حياتهم الخاصة، وكانوا يتمتعون بقسط وافر من الأطعمة والخلوى في جميع المواسم والأعياد^(٣) مما كان له أعظم الأثر في الاقبال على التعليم لم يقف أمر نشر الدعوة الفاطمية عند حد العناية بالمساجد وتشجيع العلماء والطلبة وإجراء الأرزاق عليهم والقيام بدراسة الفقه الشيعي بالمساجد ودور التعليم الأخرى، وإنما عمل الخلفاء الفاطميون منذ اللحظة الأولى على إحلال الشيعيين محل المصريين السنيين في المناصب الهامة، وعلى نحو كل أثر من آثار المذهب السني سواء كان ذلك من الوجهة الدينية أو المدنية، ونظروا إلى معتنقي المذهب السني نظرة الخارجين على الدين^(٤)، وألزم جميع الموظفين

(١) انشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ، وسنعود للكلام عليها في الباب الرابع

(٢) الخطط ج ٤ ص ٤٩ — ٥٢ .

(٣) صبح الاعشى ج ٧ ص ٥٠١، الخطط ج ٢ ص ٣٠٠ و ٣٤٥

(٤) عمل جوهر بعد أن تم له فتح مصر على أن يحل المغاربة الشيعيون محل المصريين السنيين في المناصب الهامة، وقد نجح جوهر في سياسته نجاحا كان من أثره أن أصبحت أمور =

أن يعتنقوا المذهب الفاطمي، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب. وكان من أثر هذه السياسة والرغبة في الحصول على مناصب الدولة أن اعتنق كثير من المصريين المذهب الشيعي، كما دفعت تلك الرغبة بعض الذميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ الشيعة مذهبا^(١).

لا ريب أن هذه السياسة الفاطمية دفعت كثيرا من المصريين إلى التنافس في الدرس والاقبال على حلقات العلم والتفقه في علوم الشيعة التي كانت تحتل المكان الأول في الجامع الأزهر ودار العلم وغيرهما من مجالس التعليم الأخرى. فقد حدثنا المقرئ^(٢) أنه في شهر ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضي محمد بن النعمان^(٣) على كرسي بالقصر^(٤) في القاهرة لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب، فمات في الزحمة أحد عشر رجلا. وذكر^(٥) في مكان آخر: «وتسارع الناس إلى الدخول في الدعوة فجلس لهم

الدولة على اختلافها في أيدي الشيعيين وذلك في سنة ٣٧٩ هـ أي بعد الفتح بنحو عشرين سنة (راجع الدكتور حسن إبراهيم والدكتور علي إبراهيم — النظم الإسلامية ص ٢٠٩ ، الدكتور علي إبراهيم — جوهر ص ٧٣ و ٧٤)

(١) الفاطميون ص ٢١٨

(٢) الخطط ج ٤ ص ١٥٧

(٣) هو نزيل القاهرة، ولد بالمغرب وقدم القاهرة في صحبة والده مع المعز، وولاه العزيز القضاء بعد موت أخيه علي بن النعمان في رجب سنة ٣٧٤ هـ وكانت وفاته سنة ٣٨٩ هـ. أما والده فهو النعمان بن محمد الذي قدم القاهرة في صحبة المعز من المغرب وكانت وفاته بمصر سنة ٣٦٣ هـ. (راجع الولاة وانفاة ص ٤٩٥ ، رفع الامر ص ٥٨٦ و ٥٩٢ وما يليها).

(٤) اتخذ الفاطميون القصر مكانا لتعليم أصول مذهب الاسماعيلية. وسنعود إلى الكلام على التعليم في القصور في الباب الخامس.

(٥) الخطط ج ٤ ص ١٥٨

قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان^(١) فقدموا من سائر النواحي والضيايع فكان للرجال يوم الأحد وللنساء يوم الأربعاء وللأشراف وذوى الأقدار يوم الثلاثاء، وازدحم الناس على الدخول فى الدعوة، فمات عدة من الرجال والنساء^(٢)

على أن أمر نشر هذه الدعوة المذهبية لم يخل من استعمال العنف والشدة ومن القوانين الجائرة التى كان لها أثر غير محمود فى التعليم فى مصر فى ذلك العصر . فقد أقبل الناس فعلا على تعليم العلوم الفاطمية لكنهم قللوا من الاهتمام ببعض العلوم التى تمت بصلة إلى المذاهب الأخرى، كما أن المؤلفات كان لا بد لها من أن تنحون نحواً شيعياً وإلا كان نصيبها الحرق أو الإهمال ونصيب صاحبها الموت أو الأعدام . ويؤيد هذا ما ذكره القفطى^(٣) فى ترجمته لمحمد بن عبد الله العتقى إذ قال : « محمد بن عبد الله بن محمد أبو عبد الرحمن العتقى . رجل فاضل كامل متفنن فى عدة علوم ... وهو من أهل أفريقية وقدم منجماً مع أبى تميم القيروانى المستولى على مصر ... ولم يزل على ذلك إلى أيام العزيز بن المعز . واتفق أن صنف كتاباً تاريخياً ذكر فيه أخبار بنى أمية وبنى العباس وذكر فيه أشياء من محاسن القوم وجميل أفعالهم على عادة المؤرخين واطلع الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز على شىء من ذلك

(١) ولى القضاء سنة ٣٩٤ هـ وقتل فى نصف رجب سنة ٣٩٨ هـ وقيل سنة ٤٠١ هـ فى أيام الحاكم بأمر الله (راجع الولاة والقضاة ص ٤٩٥ ، تاريخ يحيى الانطاكى ج ٢ ص ١٩٩ ، الخطوط ج ٣ ص ٣٤) .

(٢) كان ذلك سنة ٣٩٥ هـ وكان يرجع هذا النزاحم الى الجهود الكبير الذى بذله الحاكم بأمر الله . وقد لاقت الدعوة الفاطمية نجاحاً عظيماً فى خلافته لتعصبه .

(٣) أخبار الحكماء ص ٢٨٥ .

فأنهائه إلى العزيز في شهر سنة ٣٧٧ هـ ، فوبخ على ذلك وتوابع للعتقى مؤلفه ، وجمع الوزير الناس إلى داره وخاطبهم وضم العتقى فلزم العتقى منزله ، وقبضت ضيعة كانت له وفي يده . ولم يزل ملازماً لمنزله تحت الغضب إلى أن توفي يوم الثلاثاء لأربع خلون من شهر رمضان سنة ٣٨٥ هـ .

ولقد أمدنا المقرئ كذا بوصف سيااسة الفاطميين إزاء الفقهاء الذين لا يدينون بالمذهب الشيعي ، فقد ذكر^(١) أنه في سنة ٣٨١ هـ ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه الله . كما ذكر^(٢) في مكان آخر أن في سنة ٤١٦ هـ أمر الظاهر فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكية وغيرهم وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب «دعائم الإسلام» و«مختصر الوزير» وجعل لمن حفظ ذلك مالا^(٣) .

ولا ننسى في هذا المقام أن نشير إلى سيااسة الحاكم الظالمة وما كان لها من أثر سيء في التعليم فقد تناولت عدداً غير قليل من العلماء الشيعيين والسنيين وغيرهم كان نصيبهم القتل والتشريد ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة كثير من المؤرخين ، فقد ذكر يحيى الأنطاكي في تاريخه^(٤) : « وقتل (الحاكم) رؤساء

(١) الخطط ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٩ .

وراجع كذلك O' Leary : A Short His. of the Fatimid Khalifate, p. 191 .

(٣) هذه المؤلفات لاشك أنها وضعت في فقه الشيعة وكتاب «دعائم الإسلام» هو من تأليف النعمان بن محمد المتوفى سنة ٣٦٣ هـ . وأما «مختصر الوزير» فهو الكتاب المعروف بالرسالة الوزيرية التي وضعها ابن كاس في فقه آل البيت عن المعز والعزيز . (راجع عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٨٢ و ٨٣ و ٨٥) .

(٤) ج ٢ ص ٢٠٨ .

دولته من الأمراء والقواد وأماثل الكتاب ومن اصطنعه من الركابية جماعة يطول الشرح بتعديدهم . ومن قوله ^(١) أيضاً : « وأورد (الحاكم) بالقاهرة دار العلم وحمل إليها من خزائنه كتباً كثيرة تحتوي على سائر العلوم والآداب وقر فيها خزانا وبوابين وأجرى عليهم الأرزاق من ماله وأباح سائر الناس كافة نسخ ما أحبوا وأرادوا قراءته ورتب فيها أيضاً قوما يدرسون الناس العلوم ، وبعد مد يده قتل بعضهم واستخفى الباقون خوفاً من القتل » .

وقد أمدنا أبو المحاسن ^(٢) بوصف خلافة الحاكم فقال : « وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام وجبن وإحجام ومحبة للعلم وانتقام من العلماء وميل إلى الصلاح وقتل الصالحاء . كما ذكر ^(٣) أنه لما أرسل المعز بن باديس ^(٤) إلى الحاكم ينسكرك عليه أفعاله أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل في كفه الدفاتر وطلب إليه فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع ثم بدا له فقتلهما صبراً .

أما السيوطي فقد قال ^(٥) : « ومن قبائح الحاكم أنه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخرّبها » . ومن قوله ^(٦) أيضاً : « وفي سنة

(١) تاريخ يحيى الانطاكي ج ٢ ص ١٨٨

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧٨

(٤) هو المعز بن باديس بن منصور بن بـاـكـين الحميري الصنهاجي صاحب أفريقية وكان

يميل لمذهب مالك وتوفي سنة ٤٥٤ هـ (راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥)

(٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥١

٤٠٠ هـ بنى الحاكم داراً للعلم^(١) وفرشها ونقل إليها الكتب العظيمة مما يتعلق بالسنة وأجلس فيها الفقهاء والمحدثين وأطلق قراءة فضائل الصحابة . . . فكثرت الدعاء ، له ثم بعد ثلاث سنين هدم الدار وقتل خلقاً ممن كان بها من الفقهاء والمحدثين وأهل الخير والديانة . وهكذا كانت سياسة الحاكم وحبه لسفك الدماء سبباً في قتل كثير من المعلمين ومشاهير العلماء ممن كان لهم فضل كبير على العلم والتعليم .

وخلاصة القول (أن الفاطميين كانت لهم في العصر الفاطمي الأول سياسة تعليمية عليا توحى إلى المربين والمعلمين انتهاز خطة خاصة في تربية أبناء البلاد وإعدادهم للحياة . وكان غرضهم الاسمي هو تشقيف النشء بثقافة تصطبغ بصبغة دينية شيعية لكي يخلصوا للدولة الفاطمية وللخليفة الفاطمي الذي هو الإمام الأكبر ، ولكي ينشروا المذهب الفاطمي ويكونوا سفراء لدى المصريين وغيرهم يحركونهم لتأييد كلمة الفاطميين ويعملوا على الاعتراف بسيادتهم الروحية والسياسية ، فكان التعليم إذن أداة هامة لتحقيق غايات سياسية .

وهكذا كان الفاطميون يشجعون الاقبال على دراسة علوم الشيعة في المساجد ودار العلم ويجزلون العطاء على اساتذتها ويجرون الأرزاق على طلبتها ويقصرون الوظائف عليهم ويضربون على أيدي الذين لا يعملون على تحقيق هذه السياسة التعليمية العليا وهذه الأغراض المذهبية الخاصة . على أن انتهاز هذه السياسة^(٢) لم يمنع الاشتغال بالعلوم الأخرى التي لا تتصل

(١) كان لإنشائها ستة ٣٩٥ هـ كما قدمنا ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الباب القادم .
 (٢) ذكر الفقه شندى (صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٤) أن الفاطميين كانوا يستميلون قلوب مخالفينهم وكانوا يتألفون أهل السنة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم وما إلى ذلك من الأمور الأخرى .

بالمذهب الشيعي في شيء وعلى الأخص العلوم العقلية التي لم يكن لها حظ وافر من النشاط في العهد السابق ، وشجعوا العلماء على السير إلى مصر وأجروا عليهم الأرزاق ، فقامت في عهدهم بذلك حركة تعليمية عظيمة في جامعي عمرو وابن طولون وفي الجامع الأزهر ودار العلم وغيرها من معاهد التعليم الأخرى . ونبغ في هذا العصر عدد كبير من العلماء والفقهاء أمثال الحسن بن زولاق والمسبحي والشابشتي وابن يونس وابن الهيثم وبنو النعمان والقضاعي والحوافي وابن بابشاذ ، وكثير من الأطباء أمثال منصور بن مقشّر والمبشر بن فاتك وعلى ابن رضوان وغيرهم من أعلام الطب في مصر في ذلك العصر . وسنقف على تفصيل حياتهم جميعا في هذا الباب والأبواب القادمة بيد أن هذه الحركة التعليمية ضعفت في أواخر القرن الخامس في عهد المستنصر بالله لما انتاب مصر في أيامه من المحن والاحداث والفتن الداخلية والخارجية ، فلم يلق التعليم في عهده شيئا من الرعاية أو التعزيز ولكنه لم يلبث أن دبّت فيه الحياة من جديد في العصر الفاطمي الثاني واستمر الأمر على هذا الحال حتى نهاية الدولة الفاطمية .

التعليم في المساجد

١ - التعليم في جامعي عمرو وابن طولون

قدمنا في الباب الأول جامع عمرو كعهد من أهم معاهد التعليم في مصر في عصر الدولة الأخشيدية ، وعرفنا أنه كان مركز الحلقات العلمية والأدبية منذ نشأته تقريبا ، وأنه ظل كذلك أعواما طويلة وأصبحت هذه الصفة الجامعية

من أهم مهامه وصفاته . وكان هذا المسجد في الواقع قلب الفسطاط الفكرى ومركزا من أهم مراكز التعليم والدراسة في العالم الإسلامى حين قيام الدولة الفاطمية بمصر ، ولبثت ساحاته مدى عصور بعد ذلك الحين ندوة فكرية أدبية جامعة ، وفيها كانت توجه حركة التعليم والتفكير في مصر الإسلامية . وقد أقيمت صلاة الجمعة في جامع عمرو وخطب فيه للعز في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة ، وقطعت خطبة بنى العباس من منابر الديار المصرية ولبس الخطباء الثياب البيض^(١) وحرم لبس السواد شعار بنى العباس . وفي رمضان سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن تنقش جدران هذا المسجد باللون الأخضر شعار العلويين^(٢) .

وكان نصيب جامع عمرو كمسجد للعبادة ومعهد للدراسة والتعليم من عناية الفاطميين عظيما جداً فقد جاء بسجل فاطمى^(٣) بولاية مصر ما يأتى :
« وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصونه وتوفيره على ما يليق به وتوفيره ، وامنع من ابتذاله في غير ما جعل له ونصب له من الإعلان بذكره فيه وأهله ، ووفر تام العناية وشامل الرعاية على من به من الفقهاء والعلماء والمتصدرين والقراء وحضهم بالشكرمة على المبالغة في طلب العلوم والتزود من صالح الأعمال ليوم الوقت المعلوم . »

ولم يكن نصيبه كذلك من الإصلاح والترميم أو التجميل والتحسين في

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٨ وما يليها ، الفاطميون ص ١٢٠ ، راجع

Stanley Lane- Poole : A His. of Egypt in The Middle Ages, pp. 103,104.

(٢) المفريزى — اتعاظ الحنفا ص ٨٠

(٣) راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٢٣ و ٤٢٤ .

ذلك العصر بقليل ، ففي عهد العزيز زاد فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس الفوارة التي تحت قبة بيت المال وذلك سنة ٣٧٨ هـ ^(١) ، واستبدل منبره في ربيع الأول سنة ٣٧٩ هـ بمنبر آخر مذهب بقى إلى أن استبدل به منبر آخر أكبر منه سنة ٤٠٥ هـ ^(٢) .

وفي عهد الحاكم بأمر الله كان حظ هذا المسجد من العناية والتجميل وافراً جداً .

ففي سنة ٣٨٧ هـ بيض ونقشت ألواحها وذهبت ، وفي سنة ٤٠٣ هـ نقل إليه من القصر ألف ومائتان وثمانية وتسعون مصحفاً في أجزاء مختلفة الشكل والحجم مكتوب بعضها بالذهب كله وسمح للعامة بالقرأة في هذه المصاحف ، كما أنزل إليه تنوير قيم فيه ١٠٠ ألف درهم فضة وعلق بالجامع بعد أن قلعت عتبة الباب حتى أدخل به ، وكان اجتماع الناس لذلك عظيماً ^(٣) .

أما في عهد المستنصر فقد عملت منطقة من الفضة في صدر المحراب الكبير سنة ٤٣٨ هـ وجعل لعمودي المحراب أطواق من الفضة ^(٤) كذلك ، هذا فضلاً عما وقفه الخلفاء الفاطميون على هذا الجامع وغيره من المساجد من الأوقاف والعطايا التي أشرت إليها في مطلع هذا الباب . وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يؤموا الناس في الصلاة في جامع عمرو

(١) ابن دقاق — الانتصار ج ٤ ص ٦٨ ، الخطط ج ٤ ص ١١ ، حسن المحاضرة

ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) الانتصار ج ٤ ص ٦٤ .

(٣) الانتصار ج ٤ ص ٦٨ ، الخطط ج ٤ ص ١١ و ١٢ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٥

(٤) الخطط ج ٤ ص ١٢ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٥

في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان (١).

قامت في مصر في العصر الفاطمي الأول إلى جانب جامع عمرو معاهد جديدة للتعليم كبيرة الشأن عظيمة القدر ، وكانت عناية الخلفاء الفاطميين بها تفوق غيرها من المداهد الأخرى ، إذ كانت في الواقع مرا كز هامة لتعليم المذهب الفاطمي ، بل قام بعضها خاصة من أجل تعليم هذا المذهب كدار العلم . ولكن رغم هذه المنافسة ظل المسجد الجامع بالفسطاط محتفظاً بنشاطه العلمي كما أن حلقاته العلمية والأدبية كانت تعقد بانتظام ويشهدها عدد كبير من الأساتذة والطلاب والأدباء والشعراء . والأدلة كثيرة على هذا فقد أمدنا المقدسي عند زيارته لمصر سنة ٣٧٥ هـ (٢) في عهد العزيز الفاطمي بوصف ضاف لجامع عمرو في ذلك العصر (٣) فقال : « وهذا الجامع يسمى السفلاني من عمل عمرو بن العاص وفيه منبره حسن البناء ، في حيطانه شيء من الفسيفس على أعمدة رخام ، أكبر من جامع دمشق والازدحام فيه أكثر من الجوامع الستة (٤) . . . » ثم قال : (٥) « وبين العشائين جامعهم مغتص بحلق الفقهاء وأئمة

(١) كان الخلفاء الفاطميون يركبون أصلاة الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالي ، وكان الناس ينالون منهم في هذه الجمع الثلاث هبات وصدقات عظيمة (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٩ وما يليها ، الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ ، الفاطميون ص ٢٨١ وما يليها) .

(٢) المقدسي — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٥٩ ، متر — الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٩ .

(٤) لعله يعني جامع عمرو وجامع القرافة وجامع ابن طولون وجامع العسكر والجامع الأزهر ، ولعل لفظة « الستة » محرفة (راجع يوسف أحمد — جامع سيدنا عمرو بن العاص ص ١٥٨) ،

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٠٥

القراء وأهل الأدب والحكمة ، دخلتها مع جماعة من المقادسة فرمما جلسنا
فتحدث فنسمع النداء من الوجهين دور وواجوهكم إلى المجلس ، فننظر فإذا نحن
بين مجلسين ، على هذا جميع المساجد ، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس ، فذاصلوا
العشاء أقام البعض إلى ثلث (الليل) ... ولا ترى أجلا من مجالس القراء به .
أضف إلى ذلك ما قاله ناصري خسرو عن جامع عمرو عند زيارته لمصر
سنة ٤٣٩ هـ في أيام المستنصر الفاطمي ، فقد ذكر أنه يزوره في اليوم خمسة آلاف
رجل ما بين معلم ومقرئ وطالب وزائر وناسخ^(١) .
وهكذا كان جامع عمرو مركزاً ممتازاً للدراسة في العصر الفاطمي الأول
وكانت تدرس به كثير من العلوم والفنون . فقد ذكر ياقوت^(٢) أن علي بن
نصر بن سليمان الزنقي اللغوي كان معلماً بجامع عمرو بمصر سنة ٣٨٤ هـ في
زمان الخليفة العزيز ، وقرئ عليه كتب كثيرة أدبية لغوية ونحوية . كما ذكر أبا
أسامة جنادة بن محمد النحوي وأبا الحسن طاهر بن بابشاذ ، فقد كان الأول
عظيم القدر شائع الذكر عارفاً باللغة ، وكان رئيس المؤذنين بجامع عمرو وله
مجلس به وتلاميذ كثيرون ، وقتله الحاكم سنة ٣٩٩ هـ^(٣) . أما الثاني فكان
نحويًا كذلك وكان يتأمل ما يصدر من السجلات في ديوان الإنشاء بالقاهرة
فيصلح ما فيها من خطأ ، كما كانت له حلقة غاصة بالطلاب بجامع عمرو وتوفي
سنة ٤٦٩ هـ^(٤) .

(١) راجع Encyclopaedia of Islam, vol. 3, p. 352.

(٢) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٩٧ .

(٣) معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٠٩ وما يليها ، ج ١٨ ص ٢٦٣ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٧

(٤) معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٧ وما يليها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٥ ، النجوم

الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ ، بغية الوعاة ص ٢٧٢ .

ولم تخل حلقات العلم بهذا المعهد من دراسة علوم الشيعة كذلك ، فقد جلس به كثير من الفقهاء ودرسوا فيه الرسالة الوزيرية التي ألفها الوزير يعقوب بن كلس في الفقه الشيعي ^(١) ، وكان ذلك في عهد العزيز الفاطمي كما تقدم ، وكان القاضي الحسين بن علي بن النعمان والقاضي عبدالعزيز بن محمد بن النعمان ممن قاموا بتدريس هذه العلوم بجامع عمرو في زمن الحاكم بأمر الله ^(٢) وكانا من الشيعة الغلاة .

على أنه يجدر بنا أن نذكر في هذا المقام أن علوم الشيعة لم تكن محببة لدى كثير من طلاب هذا المعهد إذا قورن بغيره من معاهد التعليم الأخرى كالجامع الأزهر ودار العلم . وليس هذا بغريب فجامع عمرو يقوم وسط الفسطاط ملاذ السنة طوال العصر الفاطمي . وكان طلبة هذا المعهد في أغلب الأحيان يقبلون اقبالا عظيما على حلقات الفقهاء السنيين فقد ذكر السيوطي ^(٣) أن أبا بكر النعماني امام المالكية بمصر المتوفى سنة ٣٨٠ هـ كانت تدور حلقاته في الجامع على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها . ولعل هذا هو السبب في الضرب على أيدي الفقهاء المالكية طوال هذا العصر . وقد أشرت في بداية هذا الباب إلى ما كان من ضرب رجل بمصر لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك ، كما ذكرت ما كان من اخراج كثير من الفقهاء المالكية في زمن الظاهر

(١) يحيى بن سعيد الانطاكي — تاريخه ج ٢ ص ١٧٣ ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣٥ ،

الخطط ج ٣ ص ٩ ، ج ٤ ص ١٥٧

(٢) كان القاضي الحسين بن علي بن النعمان من علماء الفقه الشيعي ، تولى القضاء سنة ٣٨٩ هـ وقتله الحاكم سنة ٣٩٥ هـ ، أما عبدالعزيز بن النعمان فهو ابن عمه وقد سبق ذكره وقتله الحاكم كذلك سنة ٣٩٨ هـ (راجع رفع الاصر ص ٩٦ و ٦٠٣ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩١)

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩١

الفاطمي . وقد عرف الحاكم بأمر الله هذه الحقيقة تمام المعرفة ، إذ أنه في سنة ٤٠٠ هـ عند ما أراد أن يظهر الميل إلى السنين ركب بنفسه إلى جامع عمرو وصلى فيه الضحى وأظهر الميل إلى مذهب الإمام مالك والقول به ، وهو ما لم يفعله خليفة فاطمي من قبل (١) .

ومهما يكن من شيء فقد كان جامع عمرو مدرسة عظيمة قبيل العصر الفاطمي وظل كذلك طوال العصر الفاطمي ، وقام بتأدية رسالته كمعهد دراسي أحسن قيام ، ولم يقلل من أهميته العلمية قيام معاهد التعليم الفاطمية الجديدة كالجامع الأزهر أو دار العلم أو غيرهما ، بل بقيت تدرس فيه مختلف العلوم الدينية من شيعية وسنية .

أما عن جامع ابن طولون فقد اقيمت الدعوة فيه (٢) عند مقدم جوهر الصقلي كما اقيمت في غيره من المساجد الأخرى ، ولم يكن حظه من عناية الخلفاء الفاطميين بأقل من حظ غيره ، فقد ذكر المقرئ (٣) أن العزيز بالله أمر في سنة ٣٨٥ هـ ببناء فوارة به عوضاً عن التي احترقت ، وأن الحاكم بأمر الله أنزل إليه ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً .

ولقد شارك هذا الجامع مصر في ضرائها عند ما اجتاحتها الوباء والقحط في خلافة المستنصر فتشعثت جدرانها ولحقه الخراب إلى أن تداركه الوزير الخطير

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ ، الفاطميون ص ١٢٣

(٣) الخطط ج ٤ ص ٤٠

بدر الجمالى (١) بحكمته فأصلح ما تداعى من أركانه وقوم بنائه فى هذا الوقت العصبى (٢).

أما عن التعليم بجامع ابن طولون فقد كان هذا المسجد مركزا للدراسة منذ انشائه كما ذكرنا فى الباب الأول ، وقد ظلت الدراسة قائمة به فى العصر الفاطمى الأول (٣) وبعده . ولكن يغلب على الظن أن التعليم به لم يكن له من النشاط والسعة ما كان للتعليم فى جامع عمرو أو الجامع الأزهر أو دار العلم ، إذ لم يحدثنا كثير من المؤرخين عمن تحلقوا به من مشاهير علماء ذلك العصر الذى نؤرخه .

٢ — التعليم فى الجامع الأزهر

لعل خير ما خلفه الفاطميون لمصر وللعالم الإسلامى أجمع ذلك المسجد الكبير « الجامع الأزهر » فقد كان بيتا من بيوت الله يعمر النفوس بالإيمان ويهديها سواء السبيل وصار جامعة دينية إسلامية كبرى يؤمها طلاب العلم من جميع الأقطار الإسلامية ويتخرج فيها العلماء والأئمة فى جميع العلوم والفنون . كان قيام الأزهر فى نفس الوقت الذى قامت فيه الدولة الفاطمية ذاتها ، انشأ غداة ظفرها بملك مصر وغداة قيام القاهرة عاصمتها الجديدة . ولما قدم صلاح الدين بن أيوب وقامت دولته بمصر خبا نجم الدولة الفاطمية بعد أن

(١) قدم مصر ووزر للمستنصر سنة ٤٦٦ هـ فأصلح الأحوال ورتب الدواوين وتوفى سنة ٤٨٨ هـ . (راجع ابن منجب الصيرفى — الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٥ و ٥٦ ، الخطط ج ٢ ص ١٧١ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٧) .

(٢) الخطط ج ٤ ص ٤٠ ، عكوش — جامع ابن طولون ص ٨٩

(٣) Encyclopaedia of Islam, vol. 3, p. 352.

سطع مدى قرنين وذوى غصنها ومحيت آثارها المادية والمعنوية ، ولكن الأزهر
نجا من عواقب المحنة رغم ما لحقه من ركود ^(١) ، واستطاع أن يخرج من غمر
الإنقلاب بعد فترة من الزمن سليماً قوياً وأن يتابع حياته الطويلة غير حافل
بما يعترضه من الصعاب والعثرات .

كان أهم ما يرمى إليه ولاية المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد
الإسلامية الأخرى التي فتحوها أن يؤسسوا قاعدة للملكهم تسع جندهم
وتأوى أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً
يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاية مصر منذ فتحها عمرو
ابن العاص الذي أسس القسطنطين سنة ٢١ هـ وبنى فيها جامعته المشهور . وجاء
بعده صالح بن علي العباسي فأسس مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ وفي سنة ١٦٩ هـ
أسس الفضل بن صالح مسجد العسكر ^(٢) ، ولما قامت الدولة الطولونية بمصر
سنة ٢٥٤ هـ أخذ أحمد بن طولون في تخطيط حاضرة جديدة فأسس مدينة
القطائع في سنة ٢٥٦ هـ ^(٣) وبنى فيها جامعته المشهور المعروف باسمه ، ولما جاء
جوهر سار علي سنة عمرو بن العاص وصالح بن علي العباسي وأحمد بن طولون
فأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ وبنى بها الجامع الأزهر سنة ٣٥٩ هـ .

(١) حل الدمار بهذا الجامع في عهد الأيوبيين لما قام به هؤلاء السنيون الغلاة من إزالة
آثار الفاطميين الشيعة ، فأبطل صلاح الدين الخطبة في الأزهر ، كما انتزع كثيراً من الأوقاف
التي وقفها عليه الخلفاء الفاطميون . ولم تقم الخطبة فيه من جديد إلا بعد مضي قرن تقريباً
في عهد الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ ، فاستعاد الأزهر بذلك حياته من جديد (راجع
الخطط ج ٤ ص ٥٣ ، الفاطميون ص ١٢٨) .

(٢) الخطط ج ٤ ص ٣٣ و ٣٤ .

(٣) ابن دقاق — الانتصار ج ٤ ص ١٢١ .

دخل جوهر الصقلي مدينة الفسطاط كما قدمنا في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وعسكر في الفضاء الواقع شمالها، وفي تلك الليلة وضع أساس المدينة التي عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ومركزاً لنشر دعوتها الدينية ولكي تكون حصناً ومعقلاً منيعاً. ووضع أساس قصر مولاه المعز واختطت كل قبيلة من البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها^(١). ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وإقامة السور سمي المدينة كلها بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبي المعز، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر فسماها القاهرة^(٢).

وأقام جوهر بالعاصمة الجديدة مسجداً جامعاً على نحو ما اتبع في إنشاء الفسطاط والعسكر والقطائع، وبدأ بإنشائه في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان ٣٦١ هـ^(٣). وسمى المسجد الجديد بجامع القاهرة اسم العاصمة الجديدة، أما تسميته بالجامع الأزهر فالظاهر أنه أطلق عليه هذا الاسم لسكونه محاطاً بالقصور الزاهرة^(٤). وذهب بعض المؤرخين إلى أنه سمي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه^(٥). على أننا نرجح أن يكون هذا الاسم قد أطلق

(١) راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠، الانتصار ج ٥ ص ٣٦، الخطط ج ٢ ص ١٧٩

(٢) الانتصار ج ٥ ص ٣٥، الخطط ج ٢ ص ٢٠٤

(٣) الخطط ج ٤ ص ٤٩، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٢٠

(٤) كان يقال لمجموع القصرين المشرق والمغرب القصور الزاهرة، وكان يقال للجامع

الأزهر جامع القاهرة والجامع الأزهر نسبة إليها. (راجع الخطط ج ٢ ص ١٨٠)

(٥) مصطفى بيرم — الجامع الأزهر ص ٦.

على هذا الجامع تيمنا باسم فاطمة الزهراء جدة الفاطميين بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١). وظل مسجد القاهرة الجامع يعرف بهذين الاسمين المذكورين ثم تقاص الاسم القديم شيئا فشيئا وغلب عليه اسم الجامع الأزهر^(٢).

كان الأزهر في أول عهد الفاطميين المسجد الفذ الذي يخطب فيه الخليفة، فلما تم بناء الجامع الحاكمي في سنة ٣٨٠ هـ صارت الخطبة تقام بانتظام في أربعة مساجد هي: جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع الحاكم^(٣). وفي عهد الفاطميين زين الأزهر ومناراته بأفخر زينة وأثير بالأنوار الساطعة في أيام المواسم العامة، مما حدا بالمعز إلى بناء منظره في قصره يشاهد منها هذه الزينات، فاطلق عليها منظره الجامع الأزهر^(٤).

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون هذا المسجد الجامع بالتجديد والعمارة وخصوه بالكثير من رعايتهم وعنايتهم، وذلك لما كان يعقد فيه من مجالس الدرس ولأنه كان يعتبر المسجد الرسمي الذي اتخذ الفاطميون مكانا يتلقى فيه الناس عقائد المذهب الفاطمي، ففي سنة ٣٧٨ هـ جده العزيز ورتب الأرزاق للأساتذة الذين عهد إليهم بالتعليم فيه، ثم جده ولده الحاكم من بعده وزوده بمجموعة من التناوير الفضية، كما قام الخليفة المستنصر أيضا بتجديده والعناية به^(٥).

(١) الدكتور علي عبد الواحد — لمحة في تاريخ الأزهر ص ٢، محب الدين الخطيب —

الأزهر ص ٦، دائرة المعارف الإسلامية المنقولة إلى العربية — المجلد الثاني — العدد الأول ص ٥٢

(٢) راجع المقرئ — الخطاط ج ٢ ص ١٨١، فقد أشار إلى هذه الحقيقة.

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٨

(٤) الخطاط ج ٢ ص ١٨١ و ٣٤٥، الفاطميون ص ١٢٤.

(٥) الخطاط ج ٤ ص ٤٩ و ٥٢، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٨.

ولا ننسى أن نشير في هذا المقام بوجه خاص إلى السجل الذى أصدره الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ ، وهو الذى يعد بحق أول وقفية ملكية صدرت للانفاق على الجامع الأزهر ودار العلم ، المعهدين العظيمين اللذين هما من غرس هذه الدولة الفاطمية . فقد حبس الحاكم بأمر الله بعض املاكه من دور وحوانيت ومخازن لينفق من ريعها على الجامع الأزهر وجامع راشدة وجامع المقس ، اللذين أمر بانشاءهما وتأسيس بنائهما وعلى دار العلم ، وأفرد لكل منها نصيبا خاصا ينفق على الاثاث والانارة والاصلاح ، كما يدفع منه رواتب الخطيب والمشرف والائمة وغير ذلك (١) .

ولم يحظ جامع آخر من جوامع مصر التاريخية بمثل ما حظى به الأزهر من رعاية الخلفاء والأمراء منذ العصر الفاطمى ، فقد تعاقبت الزيادات على البناء الاصلى حتى تحول الأزهر إلى مركز عظيم للعلم ، وغدا يشغل مساحة كبيرة قدرها ١٢٠٠٠ متر مربع وبلغ عدد أعمدته ٣٧٥ عمودا (٢) .

انشئ الجامع الأزهر ليكون مسجد الدولة الرسمى وموطن الدعوة المذهبية ، ولكنه لم يلبث أن أصبح جامعة علمية يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب مختلف العلوم والفنون ، وسبق بذلك غيره من المساجد الأخرى التى كانت تقوم إلى جانبه وظل مدى قرون ولا يزال إلى اليوم مقصد طلاب العلم من كافة أرجاء العالم الإسلامى .

(١) راجع هذا السجل فى المخطوط ج ٤ ص ٤٩ وما يليها .

(٢) الفاطميون ص ١٢٧ ، الدكتور عبد الواحد وافي — لمحة فى تاريخ الأزهر

ص ٢ وه ، مصطفى بيرم — الجامع الأزهر ص ٦ و ٧

وفي^(١) أواخر عهد المعز لدين الله جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ بالجامع الأزهر ، وقرأ مختصر أبيه فى فقه آل البيت وهو المسمى بكتاب « الاقتصار » فى جمع حافل من العلماء والكبراء ، وأثبت أسماء الحاضرين^(٢) ، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر وكان أبو الحسن على بن النعمان أول من قام بالتدريس . ثم توالى حلقات بني^(٣) النعمان به بعد ذلك وكانت فى الواقع دروسا مذهبية خالصة أعدت للدعاية السياسية والدينية .

وقد أتاح الله لهذا المسجد يعقوب بن كلس^(٤) وزير العزيز الفاطمى ، فقد كان هذا الوزير من فحول العلماء ومن خدام هذه الدولة الفاطمية الذين عملوا

(١) توفى المعز بالقاهرة فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ (وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٠٣ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢) .

(٢) الخطط ج ٤ ص ١٥٦ .

(٣) سبق الإشارة إلى بعض الأساتذة الأعلام الذين اصطفاهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعايتها وأسلحتها الروحية ، والذين استأثروا برئاسة القضاء فى ظلها سنين طويلة ، وكان عميدهم أبا حنيفة النعمان الذى قدم مع المعز من المغرب (راجع وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦ وما يليها ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩١) .

(٤) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس وكان يهوديا من أهل بغداد محافظا على دينه جميل المعاملة ، اتصل بخدمة كافور الأخشيدى فأظهر خبرة وبراعة ، ولما أسلم بعد ذلك زادت حضوته عند كافور وخاض عليه . ثم لأنه سار إلى المغرب وخدم المعز لدين الله وتولى أموره ووزر للعزيز فاستقامت أحواله . ولما اعتل علة الوفاة ركب العزيز اليه عائدا ولما مات سنة ٣٨٠ هـ صلى عليه وانصرف حزينا لفقدته وأمر أن تغلق الدواوين أياما بعده وقيل أنه رثاه مائة شاعر . وقد خلف ابن كلس ثروة طائلة وكان فى الحق من أكبر بناء الدولة الفاطمية بمصر (راجع ابن منجب الصيرفى — الإشارة إلى من نال الوزارة ص ١٩ وما يليها ، وفیات الأعيان ج ٢ ص ٣٣٣ وما يليها ، الخطط ج ٣ ص ٧ وما يليها ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨) .

على نشر دعوتها بكل الوسائل والطرق ، وقد رتب ابن كلس هذا في داره العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى عليهم الأرزاق ، ونصب له مجلسا يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل وتجري بينهم المناظرات . أما يوم الجمعة فكان يقرأ مصنفاته^(١) على الناس وكان من بين هاته المصنفات رسالته الوزيرية التي وضعها في الفقه الشيعي ، وكان يجلس عنده خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والشعراء والنحاة وأصحاب الحديث ووجوه أهل العلم ، فإذا انقضى المجلس من القراءة قام الشعراء لإنشاد مدائحهم فيه^(٢) .

لم يقف أمر نشر الدعوة الفاطمية على يد هذا الوزير عند ذلك ، بل نراه في سنة ٣٧٨هـ^(٣) يسأل الخليفة العزيز في صلة رزق جماعة من الفقهاء عدددهم يربو على الثلاثين^(٤) فقيها يحضرون مجلسه ويلازمونه ويأخذون عنه الفقه الشيعي ، وأمر لهم ببناء دار^(٥) إلى جانب الجامع الأزهر فإذا كان يوم الجمعة حضروا

(١) قال المقرئ (الخطط ج ٣ ص ٩) : « فن تأليفه (ابن كلس) كتاب في القراءات وكتاب في الأديان ... وكتاب في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتاب في علم الأبدان وصلاحها في ألف ورقة وكتاب في الفقه مما سمعه من الإمام المعز لدين الله والإمام العزيز بالله (الرسالة الوزيرية) » .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٨ و ٩ ، ج ٤ ص ١٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٩ .

(٤) ذكر القلقشندي (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧) أنهم كانوا سبعة وثلاثين فقيها بينما ذهب المقرئ (الخطط ج ٤ ص ٤٩) إلا أن عدددهم كان خمسة وثلاثين فقيها .

(٥) لابد أن تكون هذه الدار قد ألحقت بالجامع الأزهر فيما بعد وصارت من أروقته ، ولعل السبب في إطلاق لقب « مجاورين » على طلبة الأزهر هو سكن علماء الأزهر وطلبته في مثل هذه الدار المجاورة لهذا المسجد الجامع من قديم الزمان .

إليه وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى صلاة العصر لقراءة الفقه^(١) ومدارسة الحكمة وعقائد الدين ، وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة ، وخلع عليهم العزيز يوم عيد الفطر وحملهم على البغال احتراماً لهم وتقديراً لتعليمهم .

وهكذا بدأت الدراسة بالجامع الأزهر وجاءه طلاب العلم واستطاع بما فيه من هؤلاء الأساتذة الرسميين الذين تجرى عليهم الأرزاق الدائمة والذين يقومون بالتعليم تحت إشرافها — أن يكون معهدا للدرس وإن يبدأ حياته الجامعية الحافلة المديدة .

كانت الصبغة المذهبية من غير شك تغلب على الدراسة بالأزهر ولا سيما في بداية عهده ، فقد كان هذا المسجد مركزاً هاماً لمجالس الحكمة^(٢) التي كان يعقدها الدعاة فيه وبالقصر والتي كانت غايتها بث دعوة الدولة الفاطمية وتوطيد إمامتها — وكانت علوم الشيعة وفقه آل البيت تحتل من حلقاته الدينية المقام الأول والأساتذة به من غلاة الشيعة كذلك .

فأول كتاب درس بالجامع الأزهر كما عرفناه هو كتاب « الاقتصار » الذي وضعه النعمان بن محمد في فقه آل البيت والذي كان يتولى قراءته وتدريسه بالأزهر ولده أبو الحسن علي بن النعمان ، وكان للنعمان كذلك كتب أخرى^(٣) في فقه الشيعة ككتاب « اختلاف أصول المذاهب » وكتاب « ابتداء الدعوة للعبيدين » وكتاب « الأخبار في الفقه » وهذه المؤلفات

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧ .

(٢) راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٧ ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ — وسنروض

لمجالس الحكمة في الباب الخامس .

(٣) راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦ .

جميعها لا بد أن تكون قد درست بالأزهر الى جانب كتاب «الاقتصار» ، حيث أنها تمت اليه بصلة وثيقة ، وكان من بين الأساتذة من غير شك بنو النعمان أنفسهم غلاة الشيعة ودعاتها^(١) . هذا بالاضافة الى ما كان من أمر الأساتذة الذين أجرى عليهم العزيز الأرزاق والذين كان عليهم القيام بدراسة الفقه الشيعي بالأزهر .

بيد أن هذه الصبغة المذهبية لم تسكن دائماً مانعاً من دراسة علوم أخرى ، فالأزهر من غير شك كان موطناً لدراسة العلوم الدينية على اختلافها^(٢) . بل ان هناك ما يدل على أن الفلسفة والمنطق والطب والرياضات كانت تدرس فيه في هذا العصر وإن كان ذلك في حدود ضيقة . فقد ذكر القفطى وابن أبي أصيبعة^(٣) أن أبا علي محمد بن الحسن بن الهيثم كان في العصر الفاطمي الأول يشتغل بالتصنيف والنسخ والافادة في الجامع الأزهر . وكان ابن الهيثم هذا ممن نبغ في دراسة الرياضيات والفلسفة والمنطق والطب وغيرها من العلوم العقلية الأخرى . وقد رحل الى مصر في زمن الحاكم بأمر الله وتوفي سنة ٤٣٠ هـ أو بعدها بقليل .

ومن المرجح أيضاً أن كتب كثير من أساتذة هذا العصر أمثال العلامة الخوفي إمام العربية والنحو وابن بابشاذ وغيرهما ممن انتهت إليهم الرياسة في

(١) قام كل من علي بن النعمان وعبد العزيز بن محمد بن النعمان بتعليم الفقه الشيعي في زمن الحاكم الفاطمي كما مر بنا ، وكان عبد العزيز بن النعمان يقرأ كتاب جده « اختلاف أصول المذاهب » (راجع رفع الأصرص ٥٩٦ و ٦٠٠) .

(٢) الخطط ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) راجع القفطى - أخبار الحكماء ص ١٦٥ وما يليها ، ابن أبي أصيبعة - طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠ وما يليها .

العلوم الدينية وآلاتها من نحو وصرف وبلاغة قد درست بالأزهر . يضاف إلى هذا ما كان من تعاون وارتباط وثيق بين أساتذة المعاهد المختلفة في هذا العصر ، فقد حدثنا ابن خلدكان^(١) أنه كان بين الحافظ عبد الغنى بن سعيد^(٢) وأبي أسامة جنادة بن محمد اللغوى رئيس المؤذنين بجامع عمرو والأستاذ به مؤانسة واتحاد ، وكانا يجتمعان في دار العلم وتجري بينهما المذكرات والمفاوضات في الآداب ، ولم يزل ذلك دأبهما حتى قتل الحاكم أبا أسامة جنادة سنة ٣٩٩ هـ . كما ذكر المقرئى^(٣) أن فقهاء الجامع الأزهر كانوا يتحلقون في جامع الحاكم ، فليس ببعيد إذن أن يكون من بين أساتذة دار العلم وجامع عمرو ممن لهم اهتمام خاص بالعلوم العقلية أو النقلية من يتحلق في الجامع الأزهر لدراسة هذه العلوم .

ولقد كان لقيام دار العلم في زمن الحاكم بأمر الله تأثير في سير الدراسة بالجامع الأزهر ، إذ كانت منافس له شديد الوطأة لما قام بها من دراسات مختلفة للغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة^(٤) كما سنعرض لذلك في حينه ولتشجيع الحاكم لطلابها . واسكن الأزهر على أى حال ظل ملاذاً للعلوم الدينية التي كانت تغلب على صفته ولم يقلل قيام دار العلم بما استحدث فيها من

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٧ (راجع كذلك ياقوت — معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٠٩ ، ج ١٨ ص ٢٦٣) .

(٢) كان امام زمانه في علم الحديث وحفظه وله مؤلفات منها « المؤلف والمختلف » وتوفى سنة ٤٠٩ هـ (راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠٥ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٤ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٨) .

(٣) الخطاط ج ٤ ص ٥٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

دراسات جديدة من شأنه كمعهد للقراءة والدرس ، سيما أن الدراسة بدار العلم لم تكن مستقرة لما انتابها من اضطرابات مختلفة أخلت بالتعليم فيها .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع الأزهر أن يكون جامعة علمية جليلة القدر وأن يوجه الحياة الدينية والعقلية في العصر الفاطمي الأول إلى جانب جامع عمرو ودار العلم ، وأن ينشر العلوم على اختلافها . واستطاع بما حظى من عطف الخلفاء والأمراء والوزراء أن يسدى إلى اللغة العربية أجل الخدمات على مر السنين ، وأن يكون ملاذاً لطلاب العلوم الإسلامية منذ نشأته ليس في مصر فحسب بل في كافة أنحاء العالم الإسلامي . ويكفينا دلالة على هذا أن نسوق في هذا المقام قول المقرئ ^(١) : « ولم يزل في هذا الجامع (الأزهر) منذ بنى عدة من الفقراء يلزمون الإقامة فيه ، وبلغت عدتهم في هذه الأيام (سنة ٨١٨ هـ) ٧٥٠ رجلاً ما بين عجم وزبالة ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم ، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاستغفار بأنواع العلوم والفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفوس اعانة للجوارين فيه على عبادة الله تعالى ، وكل قليل يحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لا سيما في المواسم . »

٣ - التعليم في جامع الحاكم وغيره من المساجد

ومن بين معاهد التعليم في مصر في العهد الفاطمي جامع الحاكم بأمر الله الذي أسسه أبوه العزيز بالله في سنة ٣٨٠ هـ^(١) تحت إشراف وزيره يعقوب ابن كلثوم ، وخطب فيه العزيز وصلى بالناس الجمعة سنة ٣٨١ هـ قبل أن يتم بناؤه . وكان يعرف أولا بجامع الخطبة ثم أطلق عليه جامع الحاكم والجامع الأنور^(٢) . ولما ولي الحاكم الخلافة أمر بتمام بنائه في سنة ٣٩٣ هـ فتم له ذلك في سنة ٤٠٣ هـ^(٣) . وفي سنة ٤٠٤ هـ حبس الحاكم على هذا المسجد عدة قياس وأملك^(٤) .

كذلك أسس الحاكم جامع راشدة في سنة ٣٩٥ هـ وأقام فيه الجمعة وخطب فيه في رمضان سنة ٣٩٨ هـ^(٥) . كما بنى جامع المقس في سنة ٣٩٣ هـ^(٦) ، وقد وقف الحاكم الأوقاف على مساجد الأزهر ودار العلم وعلى جامعي راشدة والمقس كما تقدم^(٧) .

(١) ذكره المقرئ عن السبكي (الخطط ج ٤ ص ٥٥) وأبو الحسن (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧) والسيوطي (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٣) . وقيل إن وضع أساسه كان في سنة ٣٧٩ هـ (راجع القلقشندي - صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ ، الدكتور حسن إبراهيم - الفاطميون ص ١٢٩) .

(٢) الخطط ج ٤ ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٦ و٥٥ - وقيل إنه فرغ من بنائه سنة ٣٩٦ هـ (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤) وقيل في سنة ٣٩٣ هـ (راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٩) .

(٤) الخطط ج ٤ ص ٥٦ .

(٥) الانتصار ج ٤ ص ٧٨ و٧٩ ، الخطط ج ٤ ص ٦٣ .

(٦) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٥ .

(٧) الخطط ج ٤ ص ٤٩ وما يليها .

وكان بمصر عدا هذه المساجد الجامعة الكبيرة مساجد أخرى كثيرة في المدن المصرية^(١) المختلفة ، فقد اشار المقدسى^(٢) عند زيارته لهذه البلاد في زمن العزيز الفاطمى إلى ما مر به من مساجد كثيرة في مدن مصرية مختلفة كالخلة الكبرى والاسكندرية والجيزة وغيرها . واتى القلقشندى^(٣) كذلك على ذكر هذه المساجد عند كلامه على كور الديار المصرية وقال^(٤) ان مساجد الاسكندرية احصيت في وقت من الاوقات فكانت عشرين الف مسجد . هذا بالاضافة إلى ما مدنا به ابن دقاق في كتابه « الانتصار لواسطة عقد الامصار » والمقرئى في كتابه « الخطط » من وصف هذه المساجد العديدة بمصر .

وخلاصة القول ان مصر كانت غاصة^(٥) بمساجدها في العصر الفاطمى الأول ، وكان التعليم بهذه المساجد شاملا وإن كان يقل نشاطا عن التعليم في الجامع الأزهر أو جامع عمرو ، فقد ذكر المقرئى^(٦) عند كلامه على جامع

(١) كانت مصر في زمن الدولة الفاطمية تنقسم الى أربعة ولايات هى — ولاية قوص وهى أعظمها وكانت تشمل الوجه القبلى كله . وولاية الشرقية وهى دون ولاية قوص في الرتبة وكان متوليها يحكم على عمل بليس وقلوب . وولاية الغربية وكانت دون ولاية الشرقية في الرتبة وكان متوليها يحكم على عمل المحلة ومنوف . وولاية الاسكندرية وهى دون الغربية في الرتبة وكان متوليها يحكم على أعمال البحيرة بأجمعها (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧ و ٤٩٨) .

(٢) راجع أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٥ وما يليها .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٦ وما يليها .

(٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٠٨ .

(٥) الخطط ج ٤ ص ٢٦٤ .

(٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٥ .

الحاكم أنه خلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون في الجامع الأزهر ، وذلك بعد بداية بنائه على يد العزيز الفاطمي . وقد أشار^(١) إلى هذه الحقيقة كذلك ناصري خسرو عند زيارته لمصر في زمن المستنصر الفاطمي ، مما يدل على ان التعليم بجامع الحاكم كان يسير سيراً طبيعياً كما في غيره من المساجد .

وذكر المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»^(٢) : «والرسوم بجوامع هذا الاقليم إذا سلم الامام كل يوم صلاة الغداة وضع بين يديه مصحفاً يقرأ فيه جزءاً ويجتمع الناس عليه كما يجتمع على المذكرين . . . وبين العشائين جامعهم (جامع عمرو) مختص بخلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة . ودخلتها مع جماعة من المقادسة فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين دوروا وجوهكم إلى المجلس ، فننظر فإذا نحن بين مجلسين ، على هذا جميع المساجد . وما يدل على أن التعليم في مصر لم يكن مقصوراً على العاصمة الفاطمية ، ما كان من أمر أبي بكر الطرطوشي^(٣) الاندلسي الذي نزل الاسكندرية وأقام بها معلماً ، وكان من أئمة العلم ، وقد تفقه عليه كثيرون منهم سنده بن ابراهيم الازدي^(٤) الذي جلس في حلقة من بعده في بالاسكندرية وأفاد المصريين بها . وما أمدا

(١) راجع Encyclopaedia of Islam, vol. 3, p. 352.

(٢) ص ٤٠٥

(٣) ينسب الطرطوشي إلى مدينة طرطوشة التي ولد فيها سنة ٤٥١ هـ ، وهي مدينة بالاندلس . وقد تنقل هذا الفقيه في الحجاز والشام والعراق وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء في أمهات العواصم الاسلامية ، ثم رحل أخيراً لمشاهدة مصر ونزل بالاسكندرية واستوطنها وبقي بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ وكانت له بضعة تصانيف (راجع ياقوت — معجم البلدان ج ٦ ص ٤٢ ، ٤٣ وابن خلكان وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠) .
(٤) كانت وفاته سنة ٥٤١ هـ (راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٢) .

به القلقشندى^(١) من سجل فاطمي بتدريس جاء به أن بشغرا الاسكندرية كثيراً من القراء والفقهاء وطلاب العلم . هذا بالإضافة إلى ما ذكره السيوطي^(٢) حين ترجمته لمحمد بن حيدرة بن الارقط النحوي المتوفى سنة ٥٤١ هـ من أنه قرأ الادب بأسوان .

(ومهما يكن من أمر فانه كان ينذر أن تكون المساجد المصرية خالية من مدارس العلم أثناء النهار ، وعلى الأخص في المدن ، وكانت أشبه بنواد أو مجتمعات للناس وخصوصاً المساجد الجامعة حيث كان القاضي يجلس في النهار للحكم بين الناس والعلماء يعقدون مجالس العلم وحلقات التدريس ، وكان يبلغ النشاط في المسجد أقصاه في المساء.^(٣))

مناهج التعليم ونظمه

١ - مواد الدراسة والمكتب الدراسية

كان المسجد معهداً من أكبر معاهد التعليم في مصر في العصر الفاطمي الاول ، وكان يعتبر المدرسة التالية التي يختلف إليها التلاميذ وقد انتهوا من مرحلة الدراسة الاولى بالكتاب أو على يد مؤدب خاص . وأغلب الظن انه لم يكن هناك في ذلك العصر مراحل متميزة للتعليم كما نراها اليوم ، أو حواجز تفصل بين نوع التعليم والنوع الآخر . فلم يكن هناك مرحلة للتعليم الاولى أو الابتدائي أو الثانوي أو الجامعي ، ولم يكن محظوراً على الطالب قراءة أى

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٨ .

(٢) بغية الوعاة ص ٣٩ وما يليها .

(٣) متز — الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

كتاب أو الجلوس في حلقة دون أخرى ، بل كان بالمسجد حلقات يقرى فيها المعلم صغار التلاميذ إلى جانب حلقات أخرى يقرى فيها كبار العلماء طلبة أو شكوا أن ينتهوا من الدراسة. ولم يكن أمام الباحث لقياس المستوى العلمي الذى وصل إليه طالب ما الا عدد السنين التى قضاه ذلك الطالب بالكتاب أو المسجد والكتب التى قرأها على أساتذته ، وكلا المقياسين غير دقيق ، فان الطالب فى ذلك العهد لم يكن مقيدا بامتحانات سنوية يظهر فيها مقدار انتفاعه بما درسه. ولكنه على الرغم من ذلك فقد كان من المتعارف بين العلماء والطلبة أن الدراسة بالمسجد تنقسم إلى ثلاث مراحل . مرحلة ابتدائية يحفظ فيها المبتدئون القرآن ويدرسون الكتب السهلة على طائفة من صغار الاساتذة ، ومرحلة ثانوية يدرس فيها الطلبة الكتب المتوسطة على اساتذة أكثر ثقافة من السابقين ، ومرحلة نهائية أو قل عالية يدرس فيها كبار الطلبة أمهات الكتب وأصعبها على طائفة من جها بذة العلماء . وكان الطالب إذا ما فرغ من دراسة الكتب الصغيرة وأنس من نفسه القدرة على الانتقال إلى ما هو أرقى منها انتقل من نفسه إليها . وهكذا ينتقل من حلقة إلى أخرى حتى يتم دراسته التى لم تكن تحذب من خاص أو عدد معين من السنين .

وكانت مواد الدراسة فى المساجد متأثرة إلى حد كبير بأغراض التعليم فى القرون الوسطى التى ترمى إلى تهذيب روحانى وإلى تربية دينية أخلاقية ، لا تعد الفرد لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحياة بل للعالم الآخر ، وترمى كذلك إلى تخريج طلبة عالمين بالأحكام الشرعية ملهين بالعلوم العربية ، محافظين على التعاليم الدينية قادرين على نشرها بين الناس ، وكان ذلك الغرض الدينى

في عهد الدولة الفاطمية مصطبغا دون شك بهصبغة شيعية تعمل على إعداد الفرد إلى جانب ذلك لنشر المذهب الفاطمي والولاء للفاطميين وتقديس مبادئهم كما ذكرنا في أول هذا الباب . فلم يكن غريبا إذن أن يملئ هذا الغرض الديني المذهبي مناهج الدرس في المساجد ويوجه الأساتذة إلى ضرورة دراسة العلوم الدينية التي تحتل فيها علوم الشيعة وفقه آل البيت المقام الأول ، وإلى دراسة العلوم الأخرى التي تتعلق بها .

في كانت مواد الدراسة بالمساجد في هذا العصر إذن هي العلوم الشرعية كعلوم القرآن من تفسير وقرآيات ، وعلوم الحديث والفقه والكلام . والعلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وغيرها ، والقليل من العلوم العقلية كعلوم الطب والرياضة والمنطق والفلسفة وما إليها . ولم تكن الدراسة في ذلك الوقت دراسة موضوعات محددة في مناهج موضوعية كما نعهد اليوم ، بل كانت دراسة كتب على أيدي أساتذة ، فكان أساس التعليم الكتاب والاستاذ . وإليك ترجمة بعض الأساتذة الأعلام ممن نبغوا في هذه العلوم ، وكانت لهم مؤلفات تصدروا لقراءتها في مجالس العلم بالمساجد الفاطمية المختلفة .

فمن أئمة القراءات في ذلك العصر محمد بن علي بن محمد أبو بكر الأدفوي المصري المقرئ النحوي المفسر . برع في علوم القرآن وكان سيد أهل عصره بمصر ، وقد انفرد بالأمامة في وقته في قراءة نافع مع سعة علمه وبراعة فهمه وصدق لهجته وتمكنه من علم العربية وبصره بالمعاني ، وله كتاب «التفسير» في مائة وعشرين مجلداً ومات سنة ٣٨٨هـ^(١) .

وكذلك عبد المنعم بن عبد الله بن غلبون^(١) المتوفى سنة ٣٨٩ هـ المقرئ المحقق مؤلف كتاب «الإرشاد في القرآنات»، وقد رحل إليه مكي بن أبي طالب وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاختلف إليه وإلى غيره من المؤدبين والعلماء، ثم رجع إلى القيروان سنة ٣٧٩ هـ وحفظ القرآن واستظهر القرآنات وغيرها من العلوم بمصر^(٢).

ومن هؤلاء أبو الحسن طاهر المتوفى سنة ٣٩٩ هـ، وقد صنف «التذكرة في القرآنات»، وعبد الجبار بن أحمد الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ وله كتاب «المجتبى في القرآنات»، والحسن بن محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٨ هـ وقد صنف كتاب «الروضة في القرآنات» واسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران المتوفى سنة ٤٥٥ هـ وقد صنف «العنوان في القرآنات» وتصدر للأقراء زمانا ولتعليم العربية وكان رأسا في ذلك. وغيرهم كثيرون ذكرهم السيوطي في كتاب «حسن المحاضرة»^(٣).

ومن أئمة الحديث والفقه في ذلك العصر أبو طاهر الذهلي الذي أشرنا إليه في الباب الأول عند الكلام على التعليم في الدولة الإخشيدية، وقد تفقه في مذهب مالك كما كان كثير الحديث واسع الذاكرة وظل يكتب عنه الحديث في بداية الدولة الفاطمية إلى أن وافته المنية سنة ٢٦٧ هـ^(٤). كذلك الوزير الكامل الحافظ أبو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنابة، فقد

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٩.

(٢) معجم الادباء ج ١٩ ص ١٦٧ وما يليها.

(٣) ج ١ ص ٢٠٩ وما يليها.

(٤) رفع الاصر ص ٥٨١ وما يليها.

حدث في أواخر الدولة الاخشيدية وأوائل الدولة الفاطمية ، ورحل إليه على ابن عمر الدارقطني^(١) الحافظ المشهور في وقت كان فيه ابن حنزابة يريد أن يصنف مسندا ، فلم يزل الدارقطني عنده حتى فرع من تأليفه ، وتوفي ابن حنزابة في سنة ٣٩١ هـ في عهد الحاكم بأمر الله^(٢) .

ومنهم عبد الغنى بن سعيد المتوفى سنة ٤٠٩ هـ الامام الحافظ ، وكان من أساتذة دار العلم ومن مؤلفاته « المؤلفات والمختلف » وغيره^(٣) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى وكان من أقطاب الحديث والفقهاء الشافعى ، تولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى العصر الفاطمى الأول ، وكان متفنا فى عدة علوم وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقهاء والتاريخ ، منها كتاب « الشهاب » وكتاب « مناقب الامام الشافعى وأخباره » ، وكتاب « الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » ، وله كتاب « خطط مصر » وهو الكتاب المنعوت « بالمختار فى ذكر الخطط والآثار » ، وتوفى سنة ٤٥٤ هـ فى عهد المستنصر الفاطمى^(٤) .

وكان من أئمة فقه الشيعة بنو النعمان الذين مر ذكرهم فى مناسبات كثيرة

(١) توفى سنة ٣٨٥ هـ (راجع ترجمته فى وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٣١) .

(٢) راجع : مجمل الادباء ج ٧ ص ١٦٣ وما يابها ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٠ وما يابها ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٨ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٣) راجع وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٠٥ ، الخطط ج ٢ ص ٣٣٥ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٤ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٨ .

(٤) راجع وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٦٢ ، الخطط ج ١ ص ٦ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٩ .

في هذا الباب . وكانوا جميعاً من غلاة الشيعة ودعاتها ، وكان في مقدمتهم النعمان ابن محمد صاحب التصانيف الكثيرة التي منها كتاب « اختلاف أصول المذاهب » ، وكتاب « ابتداء الدعوة للعبيدين » ، وكتاب « الأخبار » في الفقه وكتاب « الاقتصار » في الفقه أيضاً وغيرها ، وكانت تدرس جميعاً في المساجد والقصور وتوفي سنة ٣٦٣ هـ ، وقام بقراءة كتب الفقه الشيعي من بعده على ابن النعمان المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ومحمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ والحسين ابن علي بن النعمان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وعبد العزيز بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤٠١ هـ^(١) وغيرهم من الفقهاء . ومن المؤلفات الشيعية كذلك « الرسالة الوزيرية » لابن كلس وقد مر ذكرها ، وكان يجلس لقراءتها بالمساجد كثير من الفقهاء^(٢) . وكذلك كتاب « دعائم الاسلام » الذي أمر الخليفة الظاهر الفاطمي الدعاة بتدريسه ورتب لمن يحفظه مالا^(٣) . اُضيف الى ذلك الكثير من كتب الفقه الأخرى التي تنافس فقهاء الشيعة في وضعها وقراءتها على طلبة العلم في المساجد وغيرها من دور التعليم الفاطمية .

أما العلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة فقد كان من أساتذتها وأصحاب التصانيف فيها أبو الحسن علي بن ابراهيم بن سعيد الحوفي النحوي اللغوي ، وكان إماماً في العربية والنحو والأدب واشتغل مدة طويلة بالتدريس ، وله من التصانيف كتاب « الموضح في النحو » وهو كبير حسن وكتاب

(١) راجع الكندي - الولاة والائضة ص ٤٩٥ وما يليها ، وفيات الأعيان ج ٢

ص ١٦٦ وما يليها ، رفع الاصر ص ٥٨٦ وما يليها .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣٥ ، الخطط ج ٤ ص ١٥٧ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٦٩ ،

« البرهان في تفسير القرآن » في ثلاثين مجلدا وكتاب « اعراب القرآن » في عشرة مجلدات ، وقد تنافس العلماء والطلبة في تحصيل هذه التصانيف جميعها وقرأتها - وتوفي الحوفي سنة ٤٣٠ هـ (١) .

ومنهم محمد بن أحمد أبو سعيد العميدى الأديب النحوى اللغوى ، وقد تولى ديوان الانشاء في أيام المستنصر الفاطمى ، وله تصانيف كثيرة في الأدب قرأت عليه ، منها كتاب « تنقيح البلاغة » في عشر مجلدات وكتاب « الارشاد الى حل المنظوم والهداية الى نظم المنشور » وكتاب « انتزاعات القرآن » وكتاب « العروض » وكتاب « القوافى » وتوفي سنة ٤٣٣ هـ (٢) .

ومن أئمة اللغة كذلك أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوى الشهير ، وقد اشتغل حينما بديوان الانشاء في عهد المستنصر الفاطمى ، وكان يتصدر للاقراء والافادة بجامع عمرو وكما مر بنا ، وله تصانيف ضخمة مفيدة منها « المقدمة في النحو » و « شرح الجمل للزجاجى » و « شرح النخبة والتعليق في النحو » وهو في خمسة عشر مجلدا وقد سماه تلامذته من بعده « تعليق الغرفة » وكذلك « المحتسب في النحو » وغيره من التصانيف وتوفي ابن بابشاذ سنة ٤٦٩ هـ (٣) .

ومن المرجح أن تكون تصانيف كل من الحسن بن زولاق

(١) راجع معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢١ وما يليها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٢ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢١٢ ، بغية الوعاة ص ١٩

(٣) معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٧ وما يليها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٥ ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ ، بغية الوعاة ص ٢٧٢ .

والمسبحي المؤرخين المصريين القديسين كذلك بالمساجد الفاطمية. فأما الحسن بن زولاق فهو من أعيان مصر وعلمائها، وكان قد سمع الحديث ورواه، وله عدة تصانيف في التاريخ منها كتاب في «خطط مصر»، وكتاب «أخبار قضاة مصر»، جعله ذيلًا على كتاب أبي عمر بن يوسف بن يعقوب السكندی وكتاب «سيرة محمد بن طنج الأخشيد»، وكتاب «سيرة جوهر»، وكتاب «التاريخ الكبير على السنين»، وكتاب «فضائل مصر»، وكتاب «سيرة كافور»، وكتاب «سيرة المعز»، وكتاب «سيرة العزيز»، وغيرها وتوفي سنة ٣٨٦ هـ وقيل سنة ٣٨٧ هـ^(١).

أما المسبحي فهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله الحرائي، وكان من أقطاب الأمراء والعلماء، اتصل بالحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه وكانت له معه عدة مجالس ومحاضرات، وقد شغف المسبحي بتدوين التاريخ فألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير «أخبار مصر» ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء، وما بها من العجائب والأبنية، وذكر نيلها وأشعار الشعراء وأخبار المغنين ومجالس القضاة والحكام والأدباء وغيرهم، وكان يقع هذا الكتاب في ثلاث عشرة ألف ورقة. ومن تصانيفه كتاب «التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره»، وهو ألف ورقة وكتاب «درك البغية في وصف الأديان والعبادات»، ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة و «قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم»، ألف وخمسمائة ورقة وكتاب «الأمثلة للدول المقبلة»، يتعلق بالنجوم والحساب خمسمائة ورقة وكتاب «السؤال والجواب»

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٥ وما يليها، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٤، حسن

ثلثمائة ورقة وكتاب « مختار الأغاني ومعانيها » وكتاب « المصباح وأصناف الفقه والفرائض » وكتاب « العبارة من أمر الوزارة » وغيرها من السكتب الأخرى ، وقد قيل إن عدد الأوراق التي تشتمل عليها هذه المصنفات تسعة وثلاثون ألف ورقة ومائة ورقة . وتوفي المسيحي سنة ٤٣٠هـ^(١) .

أما ما صنف في علم الجغرافيا في هذا العصر فهو كتاب في الطرق والمسالك كتبه المهلبى للخليفة العزيز الفاطمى سنة ٣٧٥هـ وهو أول كتاب وصف السودان وصفا دقيقا ، وكان علماء الجغرافيا في القرن الرابع الهجرى لا يعرفون من أخبار بلاد السودان إلا القليل ، وقد سمي هذا الكتاب « العزيزى » نسبة إلى العزيز الخليفة الفاطمى^(٢) . وما يذكر في هذا المقام أن خزائن القصور الفاطمية كانت تحتوى على الكثير من التحف الفنية التي تدل دلالة واضحة على ما كان يجده الخلفاء الفاطميون من لذة خاصة في الجغرافيا والتاريخ ، فقد قيل إن مكتبتهم كانت تحتوى على كرتين سماويتين إحداهما من الفضة والأخرى من النحاس يقال إن صانعها بطليموس الفيلسوف نفسه^(٣) وعلى خرائط جغرافية ثمينة كالتى ذكرها المقرئى في قوله^(٤) : « وصار إلى فخر العرب^(٥) »

(١) راجع ابن سعيد — المغرب فى حلى المغرب ص ٩٨ وما يليها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٥ وما يليها ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧١ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨ .

(٢) مئز — الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٨ .

(٣) القفطى — أخبار الحكماء ص ٤٤٠ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ .

(٥) أى صار إلى ابن حمدان زعيم الأتراك فى أيام المستنصر الفاطمى — أما لفظ تسترى فهو نسبة إلى تستر أشهر مدن خوزستان . وأما لفظ قرقوبى فهو صفة لقماش مشهور بألوانه اللامعة وكان يصنع غالبا فى دمياط وتنيس (راجع الفاطميون ص ٢٥٧) .

مقطع من الحرير الأزرق التستري القرقوبي غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر
الوان الحرير، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة ٣٥٣ هـ، فيه صورة أقاليم
الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومسالكها شبه جغرافيا، وفيه
صورة مكة والمدينة مبينة للناسر مكتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر
وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير، كما كان بالقصور كذلك
كثير من السطور الحرير المزركشة بالذهب تمثل الممالك المختلفة بملوكها وأسمائهم
وموجز لحياة كل منهم^(١). وهذه الآثار جميعها من غير شك تبين لنا أن الفاطميين
كانوا يلبون بمالك العالم المعروفة في ذلك العصر ويتعلمون تاريخها وجغرافيتها.
كانت المساجد مراكز هامة للتعليم الديني المذهبي ولسكنها لم تكن تخلو
مع ذلك من العناية بتدريس علوم الرياضة والمنطق والفلسفة وما إليها وإن
يكن في حدود ضيقة. فقد سبقت الإشارة إلى ما كان من أمر اتصال
ابن الهيثم بالجامع الأزهر والتعليم به وما كان من الارتباط الوثيق والتعاون
بين أساندة المعاهد المختلفة، هذا فضلا عن أن الدعاة وهم القائمون بنظارة
دار العلم والإشراف على التعليم بها كانوا يجلسون لتعليم فقه آل البيت
بالمساجد^(٢)، فليس ببعيد إذن أن يتحلق أساندة دار العلم التي كانت تعني إلى
جانب مهمتها في نشر علوم آل البيت بتدريس العلوم العقلية من طب ورياضة
ومنطق وفلسفة في المساجد على اختلافها ليفيدوا الطلبة من هذه العلوم.
وما يدل أيضا على أن العلوم العقلية كانت تدرس بالمساجد أن الحاكم بأمر الله

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٦٥.

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧، ج ١٠ ص ٤٣٧، الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ و ٢٣٧.

أمر بنقل الكتب التي كانت بدار العلم إلى مساجد الأزهر والحاكم والمقس، ولا يخفى ما كان بمكتبة دار العلم هذه من كتب الفلسفة والرياضة وغيرها^(١) على أننا نرى أن هذه العلوم وعلى الأخص علوم الطب كانت تدرس في الغالب بدار العلم^(٢) أو بالممارستانات أو على أيدي معلمين خاصين، ولم تكن محبة لدى الكثيرين من طلبة العلم بالمساجد. وقد أخذ القول بحرمة^(٣) تعليمها يتسرب شيئاً فشيئاً إلى المساجد بعد العصر الفاطمي حتى تركت دراستها وهجرت وصار ينظر إليها بنظر السخط حتى زمن متأخر. ولعل السبب في ذلك ما كان يعتقده^(٤) بعض المسلمين من أن هذه العلوم العقلية تشوش الفكر وتحمل على الريب في المعتقدات الدينية ونسوا فوائدها العظيمة.

وكان ابن الهيثم الذي مر ذكره من استاذة الجامع الأزهر، وهو أبو علي

(١) الفاطميون ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ و ٣٣٥ ، طوطح — التربية عند العرب ص ٧٩ ، راجع O Leary: A Short His. of the Fatimid Khalif ate, pp. 138, 189.

(٣) مصطفى بيرم — الجامع الأزهر ص ٢٤ وما يليها ، الدكتور عبد الواحد — لمحة في تاريخ الأزهر ص ٢٤ وما يليها ، دائرة المعارف الإسلامية العربية مجلد ٢ عدد ١ ص ٥٧

(٤) يعتقد الزرنوحي (تعليم المتعلم ص ٥) أن علم النجوم بمنزلة المرض فتعلمه حرام لأنه يضر ولا ينفع اللهم إلا إذا تعلم من النجوم قدر ما يعرف به القبلة وأوقات الصلاة فيجوز ذلك . وذهب ابن خلدون (المقدمة ص ٦٠٣) إلى القول بأن علوم الفلسفة ضررها في الدين كثير . أما الخزالي (أحياء علوم الدين ج ١ ص ١٦) فيسمح بتعلم الهندسة والحساب إلا لمن يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ، ويقول صاحب كشف الظنون (ج ١ ص ٢٩) أن النظر والمطالعة في علوم الفلاسفة يحل بشرطين أحدهما أن لا يكون الانسان خالي الذهن عن العقائد الإسلامية والثاني أن لا يتجاوز المسائل المخالفة للشرعية وان يتجاوز فانما يطالعهما للرد لا غير .

الحسن ويعرف عادة في مصنفات الغربيين في العصور الوسطى باسم الهازن Alhazen وكان علما من أعلام العرب في الرياضة والطبيعات ، وكانت له إلى ذلك مشاركة في الطب في علوم الأوائل الأخرى وخاصة في فلسفة ارسطو ، وكان مولده بالبصرة سنة ٣٥٤ هـ ولما بلغ الحاكم الفاطمي — وكان يميل إلى الحكمة — خبرة تآقت نفسه إلى رؤيته فسار نحو مصر وأقام بالجامع الازهر واشتغل بالتصنيف والنسخ والافادة به ، وكان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب وهي اقليدس والمتوسطات والمجسطى وكان يبيعها بمائة وخمسين دينارا مصرية ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة في حدود سنة ٤٣٠ هـ . أما تصانيفه فمنها « تهذيب المجسطى » و « مصادرات اقليدس » و « اختلاف منظر القمر » و « استخراج اضلع المسكعب » و « كيفية الارصاد » و « شرح قانون اقليدس » و « حل شكوك المجسطى » و « تعليق في الجبر » وغيرها وقد لخص كثير أ من كتب ارسطو وشرحها وكثير أ من كتب جالينوس في الطب وغير ذلك من السكتب التي لا حصر لها في العلوم الرياضية والطبيعية ^(١) . ولا شك أن هذه المصنفات جميعا على اختلافها وعلى الاخص ما كان ينسخه ابن الهيثم سنويا من اقليدس أو مجسطى كانت مما يشتغل به طلبة العلم في معاهد التعليم الفاطمية في ذلك العصر . وكان لكل مسجد مكتبة تشتمل على الكثير من السكتب النفيسة النافعة في مختلف العلوم والفنون . فقد أحب الفاطميون السكتب والاكثر منها وكانت لهم مكتبة ^(٢) بالقصر يضرب بعظمتها الأمثال لسكثرة مجلداتها ومصاحفها

(١) راجع القفطى — أخبار الحكماء ص ١٦٥ وما يليها ، ابن أبي أصيبعة — طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠ وما يليها ، دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١ عدد ٥ ص ٢٩٨ ،
(٢) سنمرض لهذه المكتبة في الباب الخامس .

وما كان فيها من آلاف الكتب في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ والفلك والكيمياء وغيرها . ولم يقنع الفاطميون بمكتبة القصر هذه بل كانوا يأمرون بنقل الكثير من الكتب القيمة إلى المساجد المختلفة كي تكون في متناول الطلبة والأساتذة يفيدون منها في القراءة والدرس . فقد قال المقرئى (١) عن المسيحي أنه في زمن الحاكم بأمر الله أنزل من القصر إلى الجامع العتيق بألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفا ما بين ختمات وربعات ، فيها ما هو مكتوب بالذهب ، ويمكن الناس من القراءة فيها ، وأنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفا . كما أمر الحاكم بأمر الله (٢) بنقل الكتب التي كانت بدار العلم إلى مساجد الأزهر والحاكم والمقس نخص الأزهر منها ما يقرب من النصف . فكان لا بد إذن من مكتبة بالمسجد تحفظ بها هذه المجلدات وتعمل على نشر العلم والتعليم ، وقد تكون للجامع الأزهر على مر السنين مكتبة عظيمة كانت نواة للمكتبة التي نظمت به سنة ١٣١٤هـ (٣) .

وخلاصة القول أن المسجد كان مصلى ومدرسة ومكتبة .

٢ — أساليب الدراسة بالمساجد :

كان نظام الحلقات العلمية هو نظام الدراسة الممتازة بالمساجد في مصر في العصر الفاطمي الأول . وكان هذا النظام تقليديا توارثته الأجيال منذ

(١) الخطاط ج ٤ ص ١٢ و ٤٠ .

(٢) الفاطميون ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٣) محب الدين الخطيب — الأزهر ص ٣٢ ، الدكتور عبد الواحد — لمحة في تاريخ

جلس الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسجد معلما . ولم يك ثمة نظام آخر للدراسة يمكن التفكير فيه في عصر لم تكن قد عرفت فيه المدارس الحديثة بعد أو انتقل التعليم إلى أما كن بعيدة عن المسجد . وقد استمر هذا النظام مدة طويلة بعد ذلك العهد ، وكان قوام الحياة الجامعية والفكرية في مصر الإسلامية والعالم الإسلامي .

فإذا أراد الشيخ المدرس قراءة الدرس جلس إلى جانب أحد أعمدة الجامع مستندا إليه بظهره إن أمكن واستقبل القبلة ثم تلتف الطلبة حوله على شكل حلقة ، وإذا ارتسم الشيخ المدرس بموضع من جامع أو مسجد فهو أحق به وإذا قام عنه زال حقه منه^(١) . وكان الناس يمنعون استطرار حلق الفقهاء والقراء صيانة لحرمتها . قال الماوردي^(٢) : « وقد روى عن النبي صلى الله عليه أنه قال : لا حمى إلا في ثلاث — ثلة البئر وطول الفرس وحلقة القوم . فأما ثلة البئر فهي منتهى حريمها ، وأما طول الفرس فهو ما دار فيه بمقوده إذا كان مربوطا ، وأما حلقة القوم فهو استدارتهم في الجلوس للنشاور والحديث . » وكان يبدأ الشيخ الدرس بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقرر الدرس بالدقة ويختمه بقراءة الفاتحة^(٣) . وكان على بن الحسن المعروف بالخلعي إذا سمع عليه الحديث يختم مجالسه بهذا الدعاء : « اللهم ما متعت به فتممه وما أنعمت به فلا

(١) الماوردي — الأحكام السلطانية ص ١٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

(٣) سليمان رصد = كنز الجواهر في تاريخ الأزهر ص ١٩٩ ، متز — الحضارة

تسلبه وما سترته فلا تهتكه وما علمته فاغفره (١) .

وكانت أساليب التدريس تتلخص في الإملاء والشرح والمناقشة ، فالأستاذ يملئ ما لديه ويشرح ما يصعب على الطلبة فهمه ويسمح لهم أثناء الإملاء أو الشرح بالمناقشة فيما يعن لهم . وغير خاف أن هذه الطرق ترجع إلى أسلوبين هما التعليم والتعلم . فالإملاء والشرح هما وسائط تمكن المعلم من إعطاء معلوماته للطلبة وتساعد على التدريس والتعليم ، وكان كثير من الشيوخ المدرسين في القرن الرابع الهجري يختصرون في أماليهم ويطيلون في تدريسهم وشرحهم ، وكان بعضهم يقتصر أحيانا على تدريس كتاب يقرأ منه الطلبة وهو يشرح (٢) .

أما المناقشة فهي تمكن الطالب من التعلم والاعتماد على النفس وتعوده حسن التفكير والاستنتاج . وكان الاملاء (٣) من غير شك أهم أساليب التعليم في ذلك العصر لقلة السكتب المنسوخة وغلو ثمنها ، ويدل على هذا ما جاء

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٨٨ — وكان مولد الخلمي بمصر سنة ٤٠٥ هـ ووفاته بها سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) منز — الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٩٨ .

(٣) وصف جورجى زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامى (ج ٣ ص ٥١) أسلوب الاملاء فقال : « وذلك أن يتكلم المحدث أو الفقيه والتلميذ يكتب على الرق أو القرطاس أو الكاغد فيبدأ المستملى في أول القائمة بقوله : بحاس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، ويذكر التاريخ ثم يورد المملئ بأسناده سواء كان حديثا أو خبرا وإذا كان فيه غريب يحتاج الى التفسير فسرره وأورد أشعار العرب وغيرها بأسانيدها أو الفوائد اللغوية بأسناد أو بغير اسناد على ما يختاره . »

بتراجم الكثير من العلماء المصريين. فقد ذكر ياقوت^(١) إن الوزير أبا الفضل ابن حنزابة المتوفى سنة ٣٩١ هـ حدث بمصر بمجالس املاء خرجها الدارقطني وعبد الغنى بن سعيد وكانا كاتبيه ومخرجه وأن عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ قرأ القرآن وكتب الحديث والفقه والقراءات وغير ذلك . كما ذكر المقرئ^(٢) أنه في سنة ٣٦٥ هـ جلس على بن النعمان المتوفى سنة ٣٧٤ هـ بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت ويعرف هذا المختصر بالاختصار وكان جمعا عظيما . أما عن القراءة والشرح فقد ذكر المقدسى^(٣) عند زيارته لمصر في زمن العزيز الفاطمي ان الرسوم بجوامع مصر إذا سلم الامام كل يوم صلاة الغداة وضع بين يديه مصحفا يقرأ فيه جزءا ويجتمع الناس عليه كما يجتمع على المذكرين . وذكر ابن خلكان^(٤) في ترجمته لأبي الحسن علي بن ابراهيم الحوفى النحوى المصرى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ أنه قرئت عليه كثير من كتب الأدب وقال ابن حجر^(٥) في ترجمته للحسين بن على بن النعمان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ أنه بينما هو جالس في سنة ٣٩١ هـ في الجامع بمصر يقرأ عليه الفقه أقيمت صلاة العصر فدخل فيها . وكان يتخلل الإملاء والقراءة والشرح مناقشات ومناظرات يثيرها الطلبة من آن لآخر .

(ولم يكن هناك جدول خاص يعين أوقات الدروس أو نوعها ولكن في

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٦٩ ، ج ١٢ ص ١٢٧ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ١٥٦ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٠٥ .

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٢ .

(٥) رفع الأصر ص ٥٩٦ .

الغالب كانت تخصص ساعات البكور^(١) والذهن في نشاطه لدراسة العلوم النقلية التي هي عماد الدين كالتفسير والحديث والفقه والنحو والصرف وغيرها . أما بعد الظهر فكان يخص لدراسة العلوم الأخرى التي تستند إلى العقل . وأما المساء فجعلوه للاستذكار والحوار والتأمل^(٢) . على أن ذلك لم يمنع أن تلقى دروس الفقه أو غيره من العلوم الأخرى في أى وقت من أوقات النهار . فقد ذكر المقدسى^(٣) أن جامع عمرو كان بين العشائين مختصا بحلق الفقهاء وأئمة المساجد وأهل الأدب والحكمة . وذكر القلقشندي^(٤) أن الفقهاء في الجامع الأزهر كانوا يتحلقون فيه يوم الجمعة بعد الصلاة إلى أن تصلي صلاة العصر وكانوا يتكلمون في الفقه . وكان الطالب ينتقل من حلقة إلى أخرى تبعا لنشاطه وعدد العلوم التي يرغب في دراستها .

وكانت مدة الدراسة بالمسجد غير محددة بزمن ، ولم يكن طالب العلم فيه مقيدا بعدد خاص من السنين أو عدد معين من الكتب يتعين عليه قراءتها فكان له أن يترك الدراسة متى شاء . ولكن يغلب على الظن أن الطالب كان يحتاج إلى اثنتي عشرة سنة لكي يتم منهج الدراسة بالمسجد . فقد روى ياقوت^(٥) أن مكي بن أبي طالب رحل إلى مصر سنة ٣٦٧ هـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة واختلف إلى الكثير من المؤدين والعلماء ثم رجع إلى القيروان

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٠٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المعربة المجلد الثاني . العدد الأول ص ٥٨ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٠٥ .

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧ — وقد ذكره المقرئى بالخط ج ٤ ص ١٥٧

(٥) معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٦٧ وما يليها .

سنة ٣٧٩ هـ وقد حفظ القرآن واستظهر القراءات وغيرها من الآداب .
 بيد أن كثيراً من الطلبة قد شجعهم على طول الإقامة بالمسجد والانقطاع
 لطلب العلم ما كان يدر عليهم من العطاء ويجرى عليهم من الأرزاق . وكانت
 تتخلل الدراسة عطلات^(١) تختلف طولا وقصرا باختلاف الأعياد والمواسم
 الرسمية والدينية التي أشرنا إليها عند كلامنا على التعليم بالكتاب .

أما عن الامتحانات التي تعقد في مدارس اليوم لقياس مقدرة الطالب
 العلمية أو الدرجات التي تمنحها الجامعات لمن أتم الدراسة فيها فكانت مفقودة
 في المساجد ، وكان الشيخ والكتاب هما أساس قياس المستوى العلمي للطالب .
 فعلى قدر عدد الكتب التي قرأها الطالب على مشايخه وعلى قدر شهرة أساتذته
 وعدد السنين التي قضها الطالب في المسجد يتوقف مستواه العلمي ومقدرته
 في العلوم التي تخصص فيها . وكان المدرس يضع خطه على الكتب التي قرأها
 عليه تلامذته وذلك اعترافاً منه بأن هذا الطالب أو ذاك قد قرأ عليه هذا
 الكتاب وأتم فهمه على يديه وأنه يستطيع أن يقوم بقراءته وتدريسه متى
 أراد وأين شاء . وقد ذكر ياقوت^(٢) في ترجمته لمحمد بن أحمد العميدى
 المتوفى سنة ٤٣٣ هـ ، وكان يتولى ديوان الإنشاء في أيام المستنصر الفاطمي

(١) لم تفسر المصادر التي بين أيدينا إلى أن هناك كانت أيام عطلة دراسية . ولكن
 مما ذكره المؤرخون عند كلامهم على مواسم الدولة الفاطمية وأعيادها نستطيع أن نرجح أن
 الدراسة كانت تعطل بالمساجد والمكتاب عند حلول هذه المواسم والأعياد . ولا شك أنه كانت
 هناك أيضاً عطلات طويلة في شهر رمضان وفي أشهر الصيف حيث يشتد القيظ ويستعصى
 الدرس على التلاميذ والطلاب كما هو الحال في الجامع الأزهر والمعاهد الدينية الأخرى في
 الوقت الحاضر .

(٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢١٢ .

أن له تصانيف في الأدب منها كتاب « تنقيح البلاغة » ويقع في عشرة مجلدات ،
 رآه بدمشق وعليه خط العميدى وقد قرىء عليه في شعبان سنة ٤٣١ هـ .
 وذكر ابن خلكان^(١) في ترجمته لأبى الحسن بن على الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ
 أنه « اشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به » وأنه رأى خطه على كثير من كتب
 الأدب قد قرئت عليه وكتب لأربابها بالقراءة كما جرت عادة المشايخ .

(فلم تكن الامتحانات والإجازات هي المقاييس التي يقاس بها ما حصله
 الطالب من العلم ومقدار انتفاعه بما درسه من كتب وإنما كان الأستاذ هو
 الذى يحجز الطالب ويأذن له بالفتيا أو التدريس أو الرواية أو غير ذلك من
 المناصب العلمية الأخرى) . ويقول القلقشندى^(٢) فى هذا الصدد : « أما
 الإجازة بالفتيا فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس
 ان يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس ويكتب له بذلك » . وكان خط الشيخ
 أو إذنه يختص بكتاب واحد قرأه الطالب وأتقنه عليه ، فلمكى يستطيع الطالب
 دراسة عدة علوم عليه أن يلزم عدة أساتذة يقرأ عليهم كتباً عدة فى علوم
 مختلفة .

(وكان الخلفاء الفاطميون ينيبون عنهم فى رعاية المساجد وإدارتها والانفاق
 عليها والإشراف على جميع شئونها قاضى القضاة ، وهو من أجل أرباب
 الوظائف وأعلام شأناً وأرفعهم قدراً . وقد أمدنا القلقشندى^(٣) بعهد صدر

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٢ .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ .

(٣) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٤ وما يليها .

عن الحاكم بأمر الله الفاطمي للحسين بن علي النعمان الذي سبق الإشارة إليه في مناسبات عدة بقضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب مضافاً إلى ذلك النظر في دور الضرب والعيار وأمر الجوامع والمساجد جاء به مايلي : وهذا ما عهد عبد الله ووليه المنصور ابو علي الحاكم بأمر الله امير المؤمنين للقاضي حسين بن علي بن النعمان حين ولاه الحاكم بالمعزية القاهرة ومصر والاسكندرية وأعمالها والحرمين حرسهما الله تعالى وأجناد الشام وأعمال المغرب وإعلاء المنابر وأئمة المساجد الجامعة والقومة عليها والمؤذنين بها وسائر المتصرفين فيها وفي غيرها من المساجد والنظر في مصالحها جميعاً ... وأمره أن يشارف أئمة المساجد والقومة عليها والخطباء بها والمؤذنين فيها وسائر المتصرفين في مصالحها مشرفة لا يدخل معها خلل في شيء يلزم مثله من تطهير ساحتها وافنيتها والاستبدال بما تبدل من حصرها في أحيائها وعماراتها بالمصاييح في أوقاتها والانداز بالصلوات في ساعاتها واقامتها لاوقاتها وتوفيتها حق ركوعها وسجودها مع الحافظة على رسومها وحدودها من غير اختراع ولا اختلاع لشيء منها (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) ...

وكتب في يوم الاحد لسبع ليال بقين من صفر سنة ٣٨٩ هـ ،

وقال كذلك ابن حجر^(١) عن المسبحي في ترجمته للقاضي حسين بن علي بن النعمان هذا أن الحاكم فوض إليه في الحكم بجميع المملكة وكذلك الخطابة والامامة بالمساجد الجامعة والنظر عليها وعلى غيرها من المساجد ، وولاه الدعوة وقراءة المجالس بالقصر وكتابتها . فكان هذا القاضي إذن يشرف

على الدعوة بالقصر وبالمساجد ويرعى جميع شئون المساجد بالديار المصرية .
وذكر المقرئى^(١) أن قاضى القضاة كان يتولى أمر الجوامع والمشاهد
وأن القضاة كانوا إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوما على المساجد
والمشاهد بمصر والقاهرة لنظر حصرها وقناديلها وعمارتها وما زال الأمر
على ذلك الى أن زالت الدولة الفاطمية .

٣ — المتعلمون :

كان الطلبة يلتحقون بالمساجد بعد أن يلموا بالقراءة والكتابة ويحفظوا
ما تيسر من القرآن الكريم . ولم تكن هناك قواعد موضوعة للانتظام فى
الدراسة بل كان أساس ذلك رغبة الطالب نفسه واستعداده الخاص وظروفه ،
وهو الذى يختار دروسه ويختار أستاذه ويأتى إلى المسجد متى أراد وينقطع
عنه متى شاء^(٢) . وكانت السن التى يبدأ عندها الطالب النزود من العلم
تختلف كذلك باختلاف المتعلمين أنفسهم ، وإنما يغلب على الظن أن الطالب
كان يأتى إلى المسجد فى سن المراهقة أو البلوغ ، فقد ذكر ياقوت^(٣) فى ترجمته
لمسكى بن أبى طالب أنه رحل إلى مصر سنة ٣٦٧ هـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة
واختلف بها إلى المؤدبين والعلماء .

(١) المخطوط ج ٤ ص ٨٣ وما يليها .

(٢) ظل هذا النظام متبعاً بالأزهر الى زمن متأخر ، فقد جاء بقرار لجنة اصلاح الجامع
الأزهر سنة ١٣٢٨ هـ = سنة ١٩١٠ م (ص ٣) ما يلى : — هذا هو الأزهر وذلك هو
كل ما كان فيه من النظام يدخله الطالب مختاراً بلا قيد ولا شرط ويختلف الى من أراد من
العلماء لىلقى العلم عنه ويبقى فيه ما شاء أن يقيم .

(٣) معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٦٨ .

وقد اعتاد طلبة العلم الإقامة على مقربة من الجامع أو المسجد الذي يؤمونه للدراسة، وحدث في عهد العزيز الفاطمي أنه أمر ببناء دار بجانب الجامع الأزهر لإقامة الفقهاء بها على نفقة الدولة الفاطمية ^(١)، فكان بذلك أول من بنى مسكنًا لطلبة الأزهر والمتحلقين فيه ووضع نواة لإنشاء الأروقة ^(٢) التي ألحقت بالأزهر بعد ذلك والتي أشار إليها المقرئ في كلامه عن الجامع الأزهر . وسهل هذا النظام من غير شك على الطلبة الغربية وما يلاقونه من متاعب في سبيل طلب العلم .

وكان الطلاب الذين يدرسون في هذه المساجد لا يؤدون عن تعليمهم أية نفقة ، بل كثيرا ما رتبت لهم ولأساتذتهم إلى جانب هذه الدراسة الحرة أعطية وأرزاق تسكني للانفاق عليهم في حياتهم الخاصة ، فقد عرفنا ماقرره العزيز من إجراء الأرزاق على فقهاء الجامع الأزهر وما كان من أمر وقفية الحاكم بأمر الله الشهيرة التي صدرت سنة ٤٠٠ هـ بحبس بعض أملاكه من دور وحوائن ومخازن لينفق من ريعها على طلاب العلم بالجامع الأزهر وجامع المقس وراشدة ودار العلوم .

(١) الخطاط ج ٤ ص ٤٩ .

(٢) قد ألحقت هذه الدار التي أمر العزيز ببنائها بالجامع الأزهر بعد ذلك وصارت من أروقتها . والرواق هو عبارة عن منزل يعد لسكن الطلبة ولا سيما الغرباء منهم وقد نشأ نظام الأروقة هذا في عصر مبكر جدا ذهب المقرئ إلى أنه بدأ منذ بناية الأزهر وصار على مر الأيام لكل جهة من جهات القطر المصري ولكل إقليم من الأقاليم الإسلامية رواق خاص . وقد أطاق على الطلبة اسم المجاورين لسكنائهم في هذه المنازل أو الأروقة التي ألحقت بالأزهر كما تقدم ذكره (راجع الخطاط ج ٤ ص ٥٤ ، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢ عدد ١ ص ٥٥ و ٥٦ ، تقرير لجنة إصلاح الجامع الأزهر سنة ١٣٢٨ هـ = سنة ١٩١٠ م ص ٢) .

أضف إلى هذا ما كان يوزع على طلبة العلم من مال النجوى^(١) وهي جعل اختياري قدره ثلاثة دراهم وثلاث يؤديه إلى داعي الدعاة من شاء من المستمعين لمجالس الحكمة ، وكان يحصل منها مال كثير ينفق على الدعاة ويؤدي بعضه إلى المساجد المختلفة ليفرق في فقراء الطلاب كي ييسر لهم سبل العيش ، فقد ذكر المقرئى^(٢) : « وأطلق حاصل الصناديق التي تشتمل على مال النجوى برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق في الجوامع الثلاثة الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وجامع القرافة . »

ولاننسى أن نشير في هذا المقام كذلك إلى نصيب الطلبة مما كان يوزعه أولى الأمر والسكبراء من الأطعمة والحلوى في المساجد المختلفة في المواسم والأعياد ، فقد كان العزيز الفاطمي يقيم سماطا في الجامع لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان^(٣) . وكانت لحوم الأضحية يفرق معظمها على الطلبة بدار العلم وعلى المتصدرين بجوامع القاهرة . وكانت تفرق الأطعمة والحلوى في ليالى الوقود وبوم المولد النبوى الكريم على أرباب الرسوم والقراء والخطباء والمتصدرين بجوامع القاهرة^(٤) .

(وقد شجعت هذه العناية بطلاب العلم وتوفير أسباب الراحة لهم واجراء الارزاق عليهم اقبال المصريين على التعليم في ذلك العصر وحشت الكثيرين من أبناء الاقطار الشقيقة على الرحلة إلى مصر ، وساعد على ذلك ما كانت

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٩٢ و ٣٠٠ و ٣٤٥ .

عليه القاهرة ومصر من الحضارة وما كان فيهما من مشاهير العلماء والمدرسين ،
ولأن لغة الممالك الإسلامية واحدة وعاداتها متقاربة . هذا فضلا عن أن
طالب العلم كان عليه أن يتحمل النصب والمشقة وترك الأهل والوطن في
سبيل طلب العلوم والمعارف .

رحل إلى مصر في طلب العلم كثيرون نذكر من بينهم على سبيل المثال
على بن الحسين الأمدى ^(١) النحوى فقد خرج إلى مصر وأقام بها منقطعا إلى
الوزير أبي الفضل بن حنزابة ومكى بن أبى طالب القيروانى ^(٢) فقد جاء إلى
مصر سنة ٣٦٧هـ واختلف بها إلى السكثريين من المؤدبين والعلماء ، وعثمان بن
سعيد الدانى ^(٣) المقرئ الذى رحل إليها حوالى سنة ٣٩٧هـ وقرأ بها القرآن
وكتب الحديث والفقه والقراءات وغير ذلك ، ومحمد بن يحيى بن الحذاء
التميمي ^(٤) الأندلسى جاء إلى مصر وأخذ بها عن الحافظ عبد الغنى وغيره ثم
رجع إلى الأندلس وولى القضاء بها وتوفى سنة ٤١٠هـ . هذا عدا العلماء
الذين رحلوا إلى مصر للتعليم بها وسنعرض لهم عند الكلام على المعلمين .

وكان من عادة المتعلمين تعظيم المعلم وتوقيره والامتنال لأمره والاذعان
لنصيحته وتعظيم الكتاب والعناية به ومطالعة الدرس بالدقة قبل الحضور

(١) معجم الأدباء ج ١٣ ص ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٩ ص ١٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٢٤ وما يليها .

(٤) المصدر نفسه ج ١٩ ص ١٠٨ .

على الشيخ أن أمكن ذلك حتى إذا حضروا إلى امتادهم كانوا على بينة بما سيليقي^(١) عليهم .

٤ — المأثور

أصبح التعليم في العصر الفاطمي الأول صناعة وفنا اختصت به طبقة خاصة من الناس ، ولكن لم تكن هناك مؤهلات معينة تشترط فيمن يريد أن يتصدر للتدريس بالمساجد . فاذا ماقرأ الطالب عددا كبيرا من الكتب على اساتذته ووضعوها عليها خطهم وأنس من نفسه علما كافيا وملكة يتمكن بها من إفادة غيره جلس الى التدريس حيث يجد مكانا خاليا وعرض نفسه على الراغبين من الطلبة ، فاذا انسوافيه الكفاية العلمية وسعة الاطلاع التفوا حوله وأقبلوا عليه واذا رأوه غير ذلك انصرفوا عنه^(٢) . على أنه كان يلزم المدرس في الجوامع وكبار المساجد الاستئذان من الخليفة أو من ينوب عنه حتى يمنع من التدريس من ليس أهلا له كما أشار إلى ذلك كل من الماوردي وابن خلدون^(٣) .

وكان الخلفاء احيانا يعينون أساتذة بالجامع المختلفة كما حدث في عهد العزيز بالله الفاطمي فقد عين اساتذة بالجامع الأزهر كما تقدم واجرى عليهم الأرزاق . ولم يكن داعي الدعاة ونقباؤه ونوابه الا اساتذة رسميين عينتهم

(١) على مبارك — الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٢٦ .

(٢) على مبارك — الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٢٦ ، أحمد أمين — ضحى الاسلام

ج ٢ ص ٦٨ .

(٣) راجع الأحكام السلطانية ص ١٨٠ ، المقدمة ص ٢٤٤ .

الدولة لتعليم المذهب الفاطمي في القصر وفي المساجد على اختلافها^(١). وقد أمدنا القلقشندي^(٢) بوثيقة هامة هي سجل فاطمي بتعيين مدرس بالاسكندرية في عهد الظافر الفاطمي^(٣) (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ)، وعلى الرغم من أن تاريخ صدورهما لا يرجع إلى العصر الفاطمي الأول الذي نحن بصددده فإنها من غير شك تلقي ضوءاً ساطعاً على التعليم والمعلمين والجلوس في المساجد للتدريس وما كان من عناية الفاطميين بطلبة العلم وتوفير أسباب الراحة لهم وإدراك الأرزاق عليهم. وقد جاء بهذه الوثيقة ما يلي: «... ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الاسكندرية — حماء الله تعالى — على غيره من الثغور فإنه خليف بعناية تامة لا تزال تنجد عنده وتغور. لأنه من أو في الحصون والمعقل والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل وهو يشتمل على القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء. وإن طالب العلم من أهله من الواردين اليه والطارئين عليه متشمتو الشمل متفرقوا الجمع — أبي أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلدين ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين متبسدين وخرجت أوامره بإنشاء

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٧، ج ٢ ص ٢٢٦.

(٢) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٥٤٨ و ٥٥٩.

(٣) لم يذكر القلقشندي تاريخ صدور هذا السجل ولكن يحتمل أن يكون في عهد الظافر الفاطمي، فقد صدر هذا السجل المذكور بتعيين أبي الطاهر الذي يغلب على الظن أنه هو أبو الطاهر السلفي الذي أسند اليه ابن السلار وزير الظافر عمادة مدرسة شافعية أنشأها بثغر الاسكندرية سنة ٥٤٦ هـ، لعلها هي بعينها المدرسة الحافظية التي جاءت بهذا السجل. وأبو الطاهر هذا هو الحافظ أبو الطاهر أحمد السلفي من أهالي أصبهان وكان حافظاً عزيز العلم شافعي المذهب رحل إلى الاسكندرية سنة ٥١١ هـ ولما استقر به المقام اختلف اليه كثير من أهالي البلاد النائية يستمعون دروسه (راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١ وما يليها و ص ٣٧٠ وما يليها، الفاطميون ص ٢٧٧).

المدرسة الحافظية بهذا الشجر المحروس بشارع المحجة منا عليهم وإنعاما ومستقرا لهم ومقاما ومشوى لجميعهم ووطنا ومحلا لكافتهم وسكنا ، فجدد السيد الأجل الأفاضل أدام الله قدرته الرغبة إلى أمير المؤمنين في أن يكون ما ينصرف إلى مثونة كل منهم والقيام بأوده وإعائته على ما هو بسبيله وبصدد من عين وغلة مطلقا من ديوانه واسترشد أمير المؤمنين المشوبة في ذلك فأجابه جريا على عادة إحسانه . واستقرت التقدمة في هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر لنفاذك وإطلاعك وقوتك في الفقه واستضلاعك ولأنك الصدر في علوم الشريعة والحال منها في المنزلة الرفيعة والمشتغل الذي اجتمع له الأصول والفروع ومن إذا اختلف في المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع . هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقى وأن مجاريك لا يكون إلا ناكصا على عقبه مخفقا . وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين وتعلم ما عليك الله إياه لمن يريد ذلك من المؤثرين والطالبين وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شدا لأزرك وتقوية لأمرك ورفعاً لذكرك .

فأخلص في طاعة الله سرأ وجهراً فانه تعالى يقول في كتابه (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً) واعتمد التوزيع المطلق عليهم وتقسيمه فيهم على حسب ما يؤدي اجتهادك اليه ويوقفك نظرك عليه . وقرب من ارتضيت طريقته وابتعد من أنكرت قضيته فقد وكل ذلك اليك وعقد بك من غير اعتراض فيه عليك ، فمن قرأه أو قرىء عليه من الأمير المظفر والقاضي المسكين — أدام الله تأييدهما — وكافة الحماة والمتصرفين والعمال والمستخدمين فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم

والاشتغال عليهم والاهتمام بمصالحهم والتوخي على منافعهم وليتل هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع وليخلد بهذه المدرسة حجة بما تضمنه إنشاء الله عز وجل .

وكان للمعلمين ^(١) في المساجد في العصر الفاطمي الأول مقام اجتماعي رفيع وكرامة واحترام كبير عند عامة القوم وخاصتهم . فقد خرج المعز والحزن يسين عليه يوم وفاة النعمان بن محمد سنة ٣٦٣ هـ وصلى عليه وأضجعه في التابوت بنفسه ^(٢) ، وعاد العزيز يعقوب بن كلس يوم اعتل علة الوفاة ^(٣) . وخرج الحاكم للقاء ابن الهيثم يوم وصل الديار المصرية وأمر بإنزاله وإكرامه واحترامه ^(٤) . أضف إلى ذلك عطف الخلفاء الفاطميين على العلماء في المواسم والأعياد وإجراء الأرزاق عليهم ودفع المرتبات الدائمة لهم على ما تقدم .

أما عن أثر الشيخ في التعليم فكان عظيماً للغاية وكان طالب العلم لا يفخر بالمسجد الذي يجلس فيه بقدر ما يفخر بالشيخ الذي يحضر عليه . وتراجم العلماء خير دليل على هذا ، فقد ذكر ياقوت ^(٥) في صدد ترجمته للقاسم بن محمد ابن مباشر الواسطي أنه رحل إلى مصر واستوطنها وأخذ عند أبو الحسن طاهر

(١) بينا في الباب الثاني مقام معلم الكتاب الاجتماعي والفرق بينه وبين المعلم في المسجد وبيننا كذلك ألقاب المعلمين جميعهم .

(٢) المقرئى — اتعاظ الحفاص ٩٩

(٣) ابن منجب الصيرفي — الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ ، المقرئى — الخطاط

ج ٣ ص ١٠

(٤) الففلى — أخبار الحكماء ص ١٦٦ ، ابن أبى أصيبعة — طبقات الأطباء ج ٢

ص ٩٠ و ٩١

(٥) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٥

ابن بابشاذ « وبه تخرج » ولم يشر إلى المسجد الذي كان يجلس فيه والذي فيه تخرج كما نفعل ذلك اليوم . وكان مستقبل الطالب في الواقع يتوقف على مقدار شهرة الشيخ وقدرته فهو الذي كان يهتم بشأنه لا إدارة المسجد الذي يدرس فيه أو يتعلم به .

وقد دفعت هذه العناية بالمعلمين والمتعلمين الكثيرين إلى الرحلة إلى مصر للافادة والتعليم بمساجدها ، فمن رحل إليها ابراهيم بن محمد من أهل السكوفة وكانت وفاته سنة ٤٦٦ هـ ^(١) ويحيى بن علي التبريزي وهو إمام في النحو وقرأ عليه بمصر ابن بابشاذ النحوي وكانت وفاته سنة ٥٠٢ هـ ^(٢) ، وكذلك القاسم بن محمد بن مباشر الواسطي الذي تكلمنا عليه من قبل وكانت وفاته بمصر . هذا بالإضافة إلى ابن الهيثم الذي جاء مصر في عهد الحاكم بأمر الله وتحلق بالجامع الأزهر وغيره من العلماء الذين يضيق المقام عن ذكرهم .

ومن أشهر العلماء الذين تصدروا للتدريس بالجامع الفاطمية في هذا العصر أو كانت لهم بها علاقة علمية على بن النعمان (٣٧٤ هـ) والوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس (٣٨٠ هـ) والحسن بن زولاق (٣٨٧ هـ) ومحمد أبو بكر الادفوي (٣٨٨ هـ) ومحمد بن النعمان (٣٨٩ هـ) وعلي بن محمد الشاشتي (٣٩٠ هـ) ^(٣) وهو

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٠ وما يليها

(٢) المصدر نفسه ج ٢٠ ص ٢٥ وما يليها

(٣) كان أديبا فاضلا واتصل بخدمة العزيز الفاطمي فولاه خزانة كتبه وكان يقرأ له الكتب ويجالسه ويناديه وله عدة تصانيف منها كتاب الديارات وكتاب مراتب الفقهاء وكتاب مراسلات وديوان شعره وكتاب في الزهد والمواعظ وغيرها وكانت وفاته في سنة ٣٩٠ هـ وقيل في سنة ٣٩٩ هـ وقيل غير ذلك . (راجع معجم الأدباء — ج ١٨ ص ١٦ و ١٧ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٨) .

صاحب خزائنة السكتب بالقصور الفاطمية والوزير أبو جعفر المعروف بابن
حنزابه (٥٣٩١هـ) والحسين بن علي بن النعمان (٥٣٩٥هـ) وأبو اسامة جنادة الهروى
(٥٣٩٩هـ) وعبد العزيز بن محمد النعمان (٥٤٠١هـ) وعبد الغنى بن سعيد (٥٤٠٩هـ)
ومحمد بن عبد الله المسببى (٥٤٢٠هـ) وأبو الحسن علي بن الحوفى (٥٤٣٠هـ)
والحسن بن الهيثم (٥٤٣٠هـ) ومحمد بن سلامة القضاعى (٥٤٥٤هـ) وأبو الحسن
طاهر بن بابشاذ (٥٤٦٩هـ) وغيرهم وقد اشرنا اليهم جميعا وذكرنا شيئا من
تاريخ حياتهم .

وكان من عادة المعلمين فى ذلك العصر الشفقة على المتعلمين وإبداء النصيح
لهم عن طريق التعريض لا التصريح .

الباب الرابع

التعليم في دار العلم

تأسيس دار العلم

ولع الخلفاء الفاطميون بنشر المذهب الفاطمي . ففي عهد العزيز بالله جعل الجامع الأزهر مقراً لفقهاء الشيعة وطلابها . وفي عهد الحاكم بأمر الله شاعت الخلافة الفاطمية أن تحقق هذه الغاية على يد معهد دراسي خاص يقوم إلى جانب الجامع الأزهر ، فأنشأت بالقاهرة في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ جامعة للدرس ونشر المذهب الشيعي واطلقت عليها دار العلم أو دار الحكمة (١).

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ ، الفاطميون ص ١٣٧ ، متر — الحضارة الاسلامية

ج ١ ص ٢٩٤ ، راجع

Stanley Lane— Poole: A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 130.

وقد ذهب كل من صاحب النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢٢٢) وصاحب حسن المحاضرة (ج ٢ ص ١٥١) إلى أن تأسيس دار العلم كان سنة ٤٠٠ هـ وخالفوا بذلك المقرئ وابن حجر وغيرهما من المؤرخين ، فقد فوض الحاكم النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن النعمان الذي ولى القضاء من سنة ٣٩٤ هـ إلى سنة ٣٩٨ هـ مما يدل على أن هذه الدار كانت قد أنشأت قبل سنة ٤٠٠ هـ (راجع السكندی — الولاة والقضاة ص ٤٩٥ ، ابن حجر — رفع الأصر ص ٥٩٩ وما يليها .) ودليل آخر على ذلك ما ذكره ابن خلكان عن المسبجي (ج ١ ص ١١٧) من أنه كانت بين عبد الغني بن سعيد المحدث وأبي الحسن علي بن سليمان المقرئ النجوى الانطاكي وأبي أسامة جنادة بن محمد الغوري مؤانسة واتحاد كثير وكانوا يجتمعون في دار العلم وتجري بينهم مذاكرات ومفاوضات في الأدب ولم يزل ذلك دأبهم حتى قتل الحاكم أبا أسامة جنادة وأبا الحسن المقرئ الانطاكي في يوم واحد وهو من ذى القعدة سنة ٣٩٩ هـ وهذا يؤكد أن دار العلم تأسست سنة ٣٩٥ هـ

ولقد أفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر الغربى وعن
بتأسيسها وزخرفتها عناية فائقة وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وعين
لخدمتها قوام وخدام وفراشون . وحملت إليها من خزائن القصور المعمورة
مجموعات عظيمة من الكتب فى سائر العلوم والفنون مما لم ير مثله مجتمعاً
لأحد قط من الملوك ، وبذلك أصبح لدار العلم مكتبة عظيمة تساعد الطلبة على
المراجعة والبحث العلمى . ورصدت للانفاق عليها وعلى أساتذتها وموظفيها
أموال (١) ضخمة . وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق
والمحابر (٢) .

وقد أمدنا المقرئى (٣) بميزانية هذا المعهد العلمى وذكر أنه كان ينفق
عليه فى كل عام ٢٥٧ ديناراً منها .

٩٠	ديناراً	ثمان ورق
١٢	»	» الماء
١٢	»	لمرمة الكتب
١٠	»	ثمان الحصر العبدانى
٥	»	» لبود للفرش فى الشتاء
٤	»	» طنافس فى الشتاء
١	»	لمرمة الستارة

(١) سبق الإشارة إلى وقفية الحاكم بأمر الله الشهيرة التى حبس فيها بعض أملاكه على
دار العلم وبعض مساجد القاهرة .

(٢) يحيى الانطاكى — تاريخه ج ٢ ص ١٨٨ ، الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٣٥ .

للخازن	٤٨	دينارا
للغراش	١٥	»
للمناظر في الورق والخبر والاقلام	١٢	»

وقد ظلت هذه الجامعة مفتوحة الأبواب تقوم بتأدية رسالتها وتنافس الجامع الأزهر في مهمته العلمية طوال العصر الفاطمي الأول . بيد أن عصر ازدهارها لم يطل فقد اضطربت شئونها وفترة نشاطها منذ منتصف القرن الخامس الهجري حين اضطربت شئون الخلافة الفاطمية في أيام المستنصر الفاطمي وسرت الفوضى الى كل شئون الدولة ومرافقها . وفي سنة ٥١٦ هـ نعى إلى الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الأمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهي الشافعي والحنفي والمالكي يترددان على دار العلم وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا مذهبهما وأخرجوا عن الصواب . فأمر الأفضل باغلاقها لأن وجودها أصبح لا يتفق مع الغرض الذي أنشئت من أجله وهو بث عقائد المذهب الشيعي ، ولخوفه من اجتماع الناس فيها والخوض في المذاهب والاخذ بالمذهب النزارى^(١) .

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ ، المخطوط ج ٢ ص ٣٣٥ وما يليها ، الفاطميون ص ١٣٨ . أما المذهب النزارى فهو القول بأحقية نزار بن المستنصر الفاطمي بالخلافة من بعده — وكان المستنصر قبل وفاته قد شرع في أخذ البيعة له غير أن وزيره الأفضل ماطله حتى توفي قبل أن يتم مبايعته وبادر بتولية أخيه أبي القاسم احمد ولقبه « المستعلى بالله » فسار نزار (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) إلى الاسكندرية وبايعه أهلها ولسكنه قتل بعد قليل وكان =

وبعد وفاة الأفضل أصدر الخليفة الأمر أمرا باعادة دار العلم الى ما كانت عليه واشترط أن يكون متوليها رجلا دينيا والداعى الناظر فيها . فأعيدت سنة ٥١٧ هـ بعد أن نقلت الى دار جديدة بجوار القصر الكبير الشرقى وأقيم فيها متصدرون برسم قراءة القرآن ولم تزل عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية (١) . وعندما أفضت الحسكومة الى صلاح الدين بن أيوب غير نظمها وجعلها مدرسة للشافعية وذلك لمساخفة مذهب الشيعة ولأنه يريد أن يفتح المدارس التي تؤيد مذهب السنة (٢) .

التعليم في دار العلم

يقول متر في كتابه « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى » (٣) إن مجرد اسم دار العلم يدل على الفرق بينها وبين دور السكتب القديمة ، وان دار السكتب قديما كانت تسمى خزانة الحكمة وهي خزانة كتب ليس غير أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم وخزانة السكتب جزء منها وتزيد على دور السكتب بالتعليم وباجراء الارزاق على من يلازمها . ودار العلم التي نحن بصددھا ينطبق عليها هذا القول فقد كانت جامعة حقه تضم عدة

== من أثر تدخل الأفضل في تولية المستعلى أن قام النزاع بين الاسماعيلية أنصار الفاطميين في مصر ، فذهب فريق منهم الى أحقية المستعلى بالخلافة كما أصبح فريق آخر يعتقد في أحقية أخيه نزار . (راجع صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٣٦ وما يليها ، الخطط ج ٣ ص ٢٧٦ وما يليها ، النظم الاسلامية ص ١٢٢)

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ و ٣٦٧ ، الخطط ج ٢ ص ٣١٣ و ٣٣٦ .

(٢) جرجي زيدان — تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢١١

(٣) ج ١ ص ٢٩٢ و ٢٩٤ .

حلقات دينية وأدبية وعلمية وجلس فيها القراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمون والأطباء والفلاسفة^(١). وكانت الى جانب ذلك تضم مكتبة عظيمة حوت الكثير من السكتب في سائر العلوم والآداب من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب.

كانت دار العلم إذن مكتبة وجامعة ولعل هذا هو السبب في تسميتها بدار الحكمة ودار العلم^(٢)، فقد جمعت بين ما كانت تقوم به خزائن الحكمة كدور للسكتب وما كانت تقوم به دور العلم من تعليم. وساعدت الطلبة والناس على اختلاف طبقاتهم على المطالعة والنسخ والتأليف وزودت من أجل ذلك بالخبر والمحابر والأقلام والورق وقامت الى جانب ذلك بعملها الرئيسى ووظيفتها الثانية وهى التعليم والتثقيف، وقد أمدنا كثير من مؤرخى الدولة الفاطمية بوصف ضاف لما كانت تقوم به دار العلم كمكتبة ومعهد للتعليم. فقال يحيى بن سعيد الانطاكى فى تاريخه^(٣): «وأورد (الحاكم) بالقاهرة دار علم وحمل إليها من خزائنه كتباً كثيرة تحتوى على سائر العلوم والآداب وأقر فيها خزاناً وبوابين وأجرى عليهم الأرزاق من ماله وأباح سائر الناس كافة نسخ ما أحبوا وأرادوا قراءته ورتب فيها أيضاً قوما يدرسون الناس العلوم».

ومن قول المقرئى^(٤): «وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من السكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤، ج ٤ ص ١٥٨.

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ و ٣٣٥، ج ٤ ص ٥٠ و ١٥٨.

(٣) ج ٢ ص ١٨٨.

(٤) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤.

والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعليم وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الخبر والأقلام والورق والمحابر .

أما ابن حجر^(١) فقد قال في ترجمته لعبد العزيز بن محمد بن النعمان : « وفي ولايته فوض الحاكم إليه النظر على دار العلم التي أنشأها وكان الحاكم بناها وأتقنها وجعل فيها من كتب العلوم شيئاً كثيراً وأباحها للفقهاء وأن يجلسوا فيها بحسب اختلاف أغراضهم من نسخ ومطالعة وقراءة » .

وقد اتخذت هذه الجامعة في البداية طابعاً خرافياً فدعى إليها الأساتذة الذين يعتقدون المذهبين الشيعي والسني وقرأت بها فضائل الصحابة ، ولكن أبعد عنها الأساتذة السنيون بعد قليل من الزمن وقتل^(٢) بعضهم ، وتحقيق بذلك الغرض الأول الذي أنشئت من أجله وهو أن تكون موطناً^(٣) يقوم فيه داعي الدعاة ونقبائوه ونوابه يثبت الدعوة الفاطمية بطريقة علمية منظمة تعتمد على المنطق وتقوم على النظريات الفلسفية^(٤) لتكون أبعد أثراً في غزو الأذهان والعقائد من مجالس الحكمة التي كان يعقدها هؤلاء الدعاة

(١) رفع الاصر ص ٦٠٠

(٢) راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥١ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ راجع :

في القصر أو في الجامع الأزهر . وأسندت نظارتها والإشراف على سير الدراسة بها إلى داعي الدعاة^(١) نفسه حتى يستطيع بذلك أن يحقق هذه الغاية ويكون المسئول الأول عنها أمام الحاكم بأمر الله أو من يتبعه من الخلفاء الفاطميين .

أما عن الحلقات الدراسية التي كانت بدار العلم فقد كانت كثيرة مختلفة ، وكان الطلبة يتلقون إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم والفلسفة والمنطق وغير ذلك^(٢) . وهكذا اختلفت مناهج التعليم في هذه الجامعة عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة ، إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية ، وكان بين أساندة دار العلم كثير من أهل الحساب والمنطق والطب والنجامة . ولعل السبب في ذلك أن الحاكم بأمر الله نفسه صاحب هذه الجامعة ومنشئها كان يميل كل الميل إلى علوم الحكمة^(٣) . ولذلك قرب رجالها والقائمين بأمر تعليمها من أمثال ابن يونس المنجم وابن الهيثم وعلي بن رضوان وغيرهم كما سيأتي عند كلامنا على معلمي دار العلم . فمنهج هذه الجامعة إذن يكمل منهج المساجد ويساعد على تخريج طائفة من الأطباء والفلاسفة يعملون إلى جانب الفقهاء الذين يتخرجون في المساجد ولا يخفى ما كان في ذلك من الفائدة العظمى للبصريين في ذلك العصر .

(١) فوض الحاكم بأمر الله النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن محمد بن النعمان وكان قد قلد وظيفة القضاء والدعوة (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧ ، الخطط ج ٤ ص ٦٩ ، رفع الأصر ص ٤٠٠)

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ و ٣٣٥ ، رفع الأصر ص ٦١٠ ، راجع

O'Leary: a short his. of the Fatimid Khalifate, p. 139.

(٣) القفطي — أخبار الحكماء ص ١٦٦ ، ابن أبي أصيدعة — طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠

ولسكن على الرغم مما لا حظناه من الفرق بين مناهج الدرس في دار العلم والمساجد فإن أساليب التعليم ونظمه كانت متشابهة في هذه المعاهد جميعها . فكان أساسها الحلقة ووسيلة التعليم فيها الاملاء أو الشرح أو المناظرة والمناقشة ، وكان يؤمها الطلبة في أية سن يشاءون وينصرفون عنها في أى وقت يودون ، ولم تكن هناك مقاييس علمية أو اختبارات سنوية أو درجات جامعية بل كان الطلبة يتمتعون كاخوانهم في المساجد بالتعليم الحر على نفقة الدولة وباجراء الارزاق عليهم في جميع الاوقات وعلى الاخص في المواسم والاعیاد^(١) . ولم تسكن دار العلم بمجهزة بمعدات دراسية تفوق ما في المساجد فقد كان جلوس الطلبة على الارض متربعين حول أستاذهم ، وعلى الجملة فلم تختلف دار العلم عن المسجد كمعهد للتعليم إلا في ناحيتين هامتين وهما أنها كانت لها مكتبة عظيمة لا تدانيها إلا مكتبة القصر ذاته وهذه كانت خاصة بالخلفاء وبعيدة عن عامة الشعب ، وكانت مكاتب المساجد تقل عنها أهمية فلم يكن لها ما لدار العلم من ذلك العدد الضخم من الكتب في سائر العلوم والفنون من دينية وعقلية . والناحية الأخرى أنها كانت مدرسة عليا لتعليم الطب والفلسفة والمنطق في حرية كاملة لا تتقيد بما للمسجد من آداب أو حرمة دينية .

ومهما يكن من شيء فقد كان من أثر دعاية الفاطميين لهذه الجامعة الحاكمة وما أعقد على الأساتذة والطلاب فيها من أرزاق دائمة وما أعدوه لهم من حبر وورق وما حمل اليها من مؤلفات نادرة — أن نمت وازدهرت وهرع اليها طلاب الفلسفة والحكمة في مصر وفي غيرها من البلدان الاسلامية

واجتمعت السكثرين من محبي المناظرة والبحث الحر في المذاهب على اختلافها ، وظلت مدة طويلة تخرج الأطباء والفلاسفة والفقهاء وعلماء اللغة وتقوم إلى جانب مجالس الحكمة بالقصر وبالجامع الازهر أو غيره من المساجد يتلقين الدعوة الفاطمية بطريقة تمتزج فيها الآراء الفلسفية بالمبادئ المذهبية لطبقة مستنيرة من الشعب . وفي سنة ٥١٦ هـ أمر الأفضل كما تقدم باغلاقها لأن دراستها الفلسفية أفسدت عقول جماعة من الناس ثم أعيد فتحها بعد عام تقريبا بعد أن تم نقلها إلى مكان جديد ، وأمر بأن يكون متوليها رجلا دينيا ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن^(١) . ولما جاء صلاح الدين غير نظامها وبذلك قضى على مدرسة الحكمة والفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية بمصر واستعاض عنها بمدارسه التي كانت لا تتصل بهذه العلوم بسبب وكانت تدرس فيها العلوم النقلية فقط .

المعلمون بدار العلم

كان داعي الدعوة هو كبير المعلمين بدار العلم والمشرف على أسانذتها الذين يعملون على بث الدعوة الفاطمية وتلقينها للطلبة وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة والاعتبار وهو يتولى قراءة مذاهب آل البيت والاشراف على تنظيم الدعوة الفاطمية وأخذ العمود على الداخلين فيها وينتخب من بين كبار العلماء المتضلعين في فقه الشيعة وفي أسرار الدعوة^(٢) . وقد أوضح القلقشندي

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ و ٣٦٧ .

(٢) سنن سنن لمراتب الدعوة الفاطمية وسريتها في الباب القادم .

والمقریزی عمل الداعی والاساتذة المساعدين له ، فقال القلقشندي (١) : « داعی الدعاة — وكان عندهم بلی قاضی القضاء فی الرتبة ویتزیا بزیه فی اللباس وغيره وموضوعه عندهم أنه یقرأ علیه مذاهب أهل البيت بدار العلم ویأخذ العهد علی من ینتقل إلى مذهبه » .

أما المقریزی فقد قال (٢) : « وأما داعی الدعاة فانه بلی قاضی القضاء فی الرتبة ویتزیا بزیه فی اللباس وغيره ، ووصفه أنه یكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت یقرأ علیه ویأخذ العهد علی من ینتقل من مذهبه إلى مذهبه ، وبين یدیه من نقباء المعلمین اثنا عشر نقيماً وله نواب كنواب الحكم فی سائر البلاد ویحضر الیه فقهاء الدولة ولهم مكان یقال له دار العلم ولجماعة منهم علی التصدير بها أرزاق واسعة » .

ومن أسندت الیه نظارة دار العلم وقام بالدراسة فیها عبد العزیز بن محمد ابن النعمان وتبعه فی نظارتها غیره من الدعاة حتی نهاية الدولة الفاطمية (٣) .
ومن معلی دار العلم الحافظ عبد الغنی بن سعید المتوفی سنة ٤٠٩ هـ (٤)
وكان إمام زمانه فی علم الحديث وحفظه ، وصاحب كتاب « المؤتلف والمختلف »
وكان معه جماعة آخرون لاشك أنهم كانوا یقومون بتعليم علوم القرآن والفقه والنحو واللغة فی المساجد الفاطمية وفي دار العلم وذلك لاتصال أساتذة

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٧ ، رفع الأصر ص ٦٠٠ .

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠٥ ، الخطط ج ٢ ص ٣٣٥ .

المعاهد المختلفة بعضهم ببعض كما تقدم . ونذكر منهم على سبيل المثال
أبا أسامة جنادة بن محمد اللغوي المتوفى سنة ٣٩٩ هـ رئيس المؤذنين بجامع
عمرو والأستاذ به^(١) وأبا الحسن علي بن سليمان المقرئ النحوي الانطاكي ،
وكانت بين عبد الغنى بن سعيد وهذين الآخرين مؤانسة واتحاد كثير وكانوا
يجتمعون بهذه الجامعة وتجري بينهم مذاكرات ومفاوضات في الآداب ولم
يزل ذلك دأبهم حتى قتل الحاكم أبا أسامة والانطاكي المذكورين سنة ٣٩٩ هـ
واستمر الحافظ عبد الغنى خوفا من القتل^(٢) .

وقام بالتعليم في دار الحكمة إلى جانب هؤلاء الدعاة والفقهاء والنحاة
واللغويين كثير من المنجمين والرياضيين والفلاسفة والأطباء المعاصرين
كعلي بن يونس المنجم المتوفى سنة ٣٩٩ هـ وكان عالما في علم النجوم والحساب
وألف للحاكم الزيج الكبير المعروف بالحاكي^(٣) . وكذلك أبو علي الحسن
ابن الهيثم وكان عالما في الرياضة والطبيعية وقام بالتعليم في الجامع الأزهر
كما مر بنا . إذ لا بد أن يكون لابن يونس وابن الهيثم وهما المختصان بالحاكم
والمقربان إليه اتصال بجامعته التي أنشأها لتكون معهد الدراسة علوم النجامة
والحكمة وكلاهما تابعة فيها — على الرغم من أن أصحاب التراجم من المؤرخين
لم يذكروا ما يؤيد هذا .

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٦٣ .

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٠٩ وما يليها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٧ .

(٣) الففطى — أخبار الحكماء ص ١٣١ و ٢٣٠ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٥ ،

النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩ ، كشف الظنون ج ١ ص ٤٦١ .

ومن أطباء هذا العصر الذى نحن بصددده من المحتمل أن يكونوا قد علموا الطب والفلسفة فى دار العلم والمؤسسات على بن سليمان وكان طبيباً متقناً للحكمة والعلوم الرياضية متميزاً فى صناعة الطب وأحكام النجوم وقد عاصر العزيز والحاكم ولحق أيام الظاهر ، وله تصانيف عديدة منها كتاب « الحاوى فى الطب » وكتاب « الأمثلة والتجارب » وكتاب « الخواص الطبية المنتزعة من كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما » وكتاب « التعاليق الفلسفية » وغيرها (١) ومن هؤلاء الأطباء أيضاً أبو الحسن على بن رضوان كبير أطباء الحاكم بأمر الله وكان مولده ومنشؤه بمصر وبها تعلم الطب والفلسفة . وكان يتكسب بصناعة القضايا بالنجوم وبصناعة الطب والتعليم وله شهرة عظيمة بالطب . وكان ابن رضوان كثير الرد على معاصريه من الأطباء وغيرهم وكذلك على كثير من تقدمه ، ولابن بطلان (٢) الطبيب البغدادى معه مجالس ومحاورات ومناظرات ، فقد دخل مصر سنة ٤٤١ هـ وخرج عنها مغضباً لما جرى بينه وبين ابن رضوان المصرى من المناظرة . وبما يذكر عن ابن رضوان أنه لم يكن له فى صناعة الطب معلم ينتسب إليه وله كتاب فى ذلك يتضمن أن تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين ، وقد رد عليه ابن بطلان البغدادى هذا الرأى وغيره فى كتاب مفرد وذكر فصلاً فى العلل التى لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجل أفضل من المتعلم من الصحف . ولابن رضوان تصانيف عديدة نذكر منها كتاب « الأصول فى الطب » و« رسالة فى علاج الجذام » و« مقالة

(١) ابن أبى أصيبعة — طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٠

(٢) القفطى — أخبار الحكماء ص ٢٩٤ وما يليها ، ابن أبى أصيبعة — طبقات

الأطباء ج ١ ص ٢٤١ وما يليها .

في مذهب ابقراط في تعليم الطب وترتيب كتب جالينوس في الطب، ومقالة
« في فضيلة الفلسفة »، وكان كثير الاطلاع على كتب الفلاسفة القدماء عارفا
بها. ولم يزل ابن رضوان بمصر متصدراً لافادة علوم الطب والفلسفة إلى
أن توفي سنة ٤٦٠ هـ وقيل سنة ٤٥٣ هـ في خلافة المستنصر الفاطمي (١).

ومن هؤلاء أيضا الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك من أعيان
أمرأ مصر وأفاضل علمائها. أخذ علوم الهيئة والعلوم الرياضية عن الحسن
ابن الهيثم واشتغل بصناعة الطب ولازم على بن رضوان. وله تصانيف جليلة
في المنطق وكتب سيرة المستنصر في ثلاثة مجلدات وقرأ عليه تلاميذ كثيرون
وكانت له خزان كتب عظيمة وعاش في أيام الظاهر والمستنصر (٢).

وكان الحاكم يعني كثيراً بمعلی هذه الجامعة فقد ذكر المقرئ (٣) انه
في سنة ٤٠٣ هـ. أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة
من الفقهاء وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله، وكانت كل طائفة
تحضر على إنفرادها للمناظرة بين يديه ثم خلع على الجميع ووصلهم، هذا
بالإضافة إلى ما كان من إجراء الأرزاق عليهم في عهد الحاكم ومن تبعه
من الخلفاء الفاطميين.

وهكذا استطاعت هذه الجامعة المصرية الفاطمية بفضل هؤلاء المعلمين
وبفضل أساليبها الفلسفية وما كان لها من مناهج متنوعة جمعت الكثير من

(١) الفقهى — أخبار الحكماء ص ٤٤٣ وما يليها، ابن أبي أصيبعة — طبقات
الأطباء ج ٢ ص ٩٩ وما يليها

(٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٧٧، أخبار الحكماء ص ٢٦٩، طبقات الأطباء
ج ٢ ص ٩٨ وما يليها.

(٣) الخطاط ج ٢ ص ٣٣٥.

علوم الشيعة والمذاهب الأخرى وعلوم اللغة والنحو والطب والفلك والرياضة والفلسفة والمنطق - أن تتبوأ مركز الزعامة في الدراسات العلمية والفقهية الممتازة وأن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق كالشاعر والرحالة الفارسي ناصري خسرو والفيلسوف الحسن بن الصباح اللذين وفدا على مصر في زمن المستنصر الفاطمي وانتظما حيناً بين تلاميذ دار العلوم وتفقهوا في الدعوة الفاطمية على يد أساتذتها وعلى رأسهم داعي الدعاة . وقد كان لمنهج هذه الجامعة أكبر الأثر فيهما بعد ذلك فقد تحولوا داعيين للفاطمين خارج الديار المصرية .

موازنة بين دار العلم وغيرها من معاهد التعليم في الشرق والغرب

كان انشاء دار العلم في عهد الحاكم بأمر الله خطوة جريئة في تاريخ تطور المدرسة فقد اتخذت لنفسها مكاناً مستقلاً خاصاً بالدرس بعيداً عن المسجد الذي أعد لعبادة الله سبحانه وتعالى . وكان منهجها علمياً أدبياً كاملاً جمع بين دراسة علوم الدين والدنيا وأعد المتعلم لهذه الحياة والحياة الأخرى ، ولم تغلب عليها الناحية الدينية كما كان الحال بالمسجد الذي قام فيه رجال الدين بالتعليم . ولقد كانت دار العلم قريبة الشبه ببیت الحكمة الذي سبقها إلى الوجود بالشرق زمن الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) والمدرسة النظامية التي كان انشاؤها على يد نظام الملك سنة ٤٥٧ هـ وكذلك الجامعات الأوروبية التي قامت في القرن الثاني عشر الميلادي .

أشرنا فيما تقدم إلى ما قاله متز في الفرق بين خزان الحكمة ودور العلم وبين أن المؤسسات القديمة كانت دور كتب ليس غير ، أما دور العلم فكانت معاهد للتعليم ودوراً للكتب معاً . ويظهر هذا الفرق جلياً إذا ما قارنا بين دار العلم الفاطمية وبيت الحكمة العباسي الذي على مثاله ^(١) انشأ الحاكم هذه الجامعة وأطلق عليها دار العلم أو دار الحكمة أسوة ببيت الحكمة المذكور . ولكنه على الرغم من هذا الاختلاف فإن هاتين المؤسساتين يتشابهان في عدة أوجه فكل منهما كانت مكتبة عظيمة حوت الكثير من كتب الطب والرياضيات والمنطق والفلسفة واللغة والنحو والفقه ، واختلف اليهما العلماء والأدباء للنسخ والترجمة والتأليف والمطالعة والدرس . وكانت بينهما قرابة في التسمية فجامعة الحاكم هي دار الحكمة وهذه الخزانة العباسية هي بيت الحكمة وكلتا التسميتين تدل على ما كان فيهما من كتب الفلسفة والحكمة ^(٢) التي عني بنقلها عن فلاسفة اليونان وغيرهم . هذا بالإضافة إلى أنهما كانا عاملين قويين في نشر الثقافة بين أفراد الشعب وباعثاً هاما على دراسة علوم الفلسفة والرياضيات والطب والفلك وما وراء الطبيعة وغيرها من العلوم العقلية التي لم يكن لها نصيب كبير من الدرس في المساجد ، فبينما كانت دار العلم معهداً يؤمه الطلبة لتعلم هذه المواد كان بيت الحكمة يؤمه الأساتذة للنسخ والتجليد ^(٣) ونقل التأليف العلمية اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية إلى العربية ^(٤).

(١) الفاطميون ص ١٣٧ ، طوطح — التربية عند العرب ص ٢٨

(٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٦٤

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٥

(٤) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٠٧

أما المدرسة النظامية ^(١) فقد أنشئت في الشرق لمسكافة المذهب الشيعي وتأييد المذهب السني واستخدم فيها عدد وافر من العلماء والفقهاء وأجرى عليهم وعلى الطلبة الأرزاق . وهذه المدرسة إذن تشبیه دار العلم وإن كان الغرض من تأسيسها القضاء على الفاطميين ، فكلًا المعهدين يرمى إلى ترويج سياسة مذهبية عن طريق تعليم الطبقة المستنيرة من الشعب وكان عامل المال فيهما من غير شك داعيًا لنجاحهما فقد أوقف الحاكم ونظام الملك الأوقاف على هذين المعهدين وعهدا بالتعليم فيهما إلى أساتذة مختارين موثوق فيهم . فهما معاهدان رسميان أميريان لها ميزانيتان ثابتتان وأنشأ من أجل التعليم، وهما على الرغم

(١) أجمع المؤرخون المسلمون تقريبًا على أن أول من بنى المدارس في الاسلام نظام الملك الطوسي وزير السلطان ملك شاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس للهجرة . ولكن يغلب على الظن أن هناك عدة مدارس أنشئت في بلاد إسلامية مختلفة قبل زمن نظام الملك كالمدرسة البيهقية (نسبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ) بنيسابور عاصمة خراسان والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضا وهي التي بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الفزنوي الشهير وغيرها . فهذه المدارس جميعها كان تأسيسها قبل المدرسة النظامية ببغداد .

ولسكن السبب في اشتهار أسبقية نظام الملك في انشاء المدارس الإسلامية أنه أول من بنى مدرسة كبرى في بغداد وجعل التعليم فيها مجانا وفرض لتلاميذها الأرزاق ويرجع السبب في إنشائها إلى استرضاء الشعب بنشر التعليم الديني وأجراء الأرزاق على الأساتذة والتلاميذ ولتأييد المذهب السني والقضاء على مذهب الشيعة . ومن المرجح أنه لم تنشأ بمصر مثل هذه المدارس النظامية قبل زمن صلاح الدين بن أيوب وإن كنت أرى أن المدرسة الشافعية التي أنشأها ابن السلار سنة ٥٤٦ هـ في الاسكندرية والتي أشرنا إليها في الباب السابق هي من هذا النوع « النظامي » المناوئ لمذهب الشيعة (راجع ابن جبير — الرحلة ص ٢٣٠ و ٢٣١ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٣ وما يليها ، الخطط ج ٤ ص ١٩٢ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٩ وما يليها ، تاريخ المدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٠١ ، طوطح — التربية عند العرب ص ١٧ وما يليها)

من اختلاف الغرض من انشائها واختلاف مناهج^(١) الدرس فيهما قد استطاعنا أن نخطوا بالتعليم خطوة عظيمة وتقرباه من المدرسة الحديثة التي تؤسسها الدولة وتشرف عليها وتعين لها الاساتذة وتعنى بطلبتها وتقوم بالانفاق الدائم عليها .

وتشبه دار العلم كذلك الجامعات الأوروبية في نشأتها فقد عرفنا أن التعليم في أوروبا كان في أول الأمر يرتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً وكانت الأديرة مراكز الدراسة بها والاحبار هم قادة الفكر ، بيد أنه لما تقدمت الحركة الفكرية وتسربت النظريات الفلسفية إلى تعاليم الكنيسة أخذت سيطرة الدين على حركة التعليم تضعف شيئاً فشيئاً ولم تلبث الجامعة الأوروبية أن نشأت بعيدة عن الأديرة وأمكنة العبادة كما كان الحال في تأسيس دار العلم . وكان خريج الجامعة الفاطمية لا يقل من ناحية مستواه العلمي وثقافته المدنية عن خريج الجامعة الأوروبية وذلك للمناهج العالية التي كانت تدرس فيها والتي كانت تعد الطالب لأن يكون طبيباً أو فيلسوفاً أو فقيهاً وتساعد به بذلك على كسب قوته وإرضاء الله سبحانه وتعالى . فهي جامعة بمعنى الكلمة لا تختلف عن جامعات اليوم وإن اختلفت وسائل الدراسة وطرق التعليم ونظمه في كل . وصفوة القول أن الحاكم استطاع أن يكفر عن سيئاته العديدة وسياسته الدموية الممقوتة بإنشاء هذه الجامعة التي فاقت الكثير من معاهد التعليم المعاصرة كما

(١) بينما كانت تدرس في دار العلم العلوم العقلية والنقلية من فلك ورياضيات وطب وفلسفة وفقه ونحو و لغة ونجد المدرجة النظامية ترجع إلى الوراء قليلاً فتهمل العلوم الطبيعية على فائدها وتعلم العلوم الشرعية والقانونية ليس غير . (راجع التربية عند العرب ص ٧٦ وما يليها) .

فاقت غيرها من معاهد التعليم السابقة واللاحقة .

رأينا في نظم التعليم في المساجد ودار العلم

وقفنا في البابين الثالث والرابع على نظم التعليم في المساجد ودار العلم وعرفنا أنها تختلف كل الاختلاف عن نظم التعليم في المدارس الحديثة وذلك لأنها ترجع إلى عصور بعيدة لم يكن قد تقدم فيها العلم أو نظم الدراسة تقدما عظيما أو عرف الإنسان فن الطباعة والكهرباء أو غير ذلك من المخترعات الحديثة التي خطت به سريعا نحو المدنية والحضارة وغيرت كثيرا من أساليب العلم والتعليم ، بيد أن هذه النظم على قدمها لها محاسنها ولها عيوبها شأن كل شيء في الحياة .

فمن عيوب نظم التعليم في ذلك العصر الذي نحن بصدد سيطرة العلوم العقلية وهي علوم الدين واللغة على المناهج الدراسية . لأنه وإن كان للعلوم العقلية من طب ورياضيات مقام في هذه المعاهد فإنها لم تكن لها المقام الأول اللهم إلا في دار العلم كما تقدم ، أما فيما عداها من المعاهد الأخرى فكان نصيب هذه العلوم العقلية الإهمال في غالب الأحيان على الرغم من فوائدها العقلية والحيوية العظيمة . هذا فضلا عن المبالغة في العناية بعلوم اللسان العربي والمناقشة في الالفاظ مع التوسع الزائد في ذلك ويرجع السبب في هذا أن التعليم كان بالمسجد وهو بيت الله سبحانه وتعالى وكان القائمون به هم رجال الدين انفسهم الذين يرمون بالتعليم إلى ارضاء الله عز وجل واعداد النشء للحياة الأخرى ويرون أن في ابعاد علوم الفلسفة وغيرها سلامة وخيرا

كبير آفهي على حد ظنهم تشوش الأفكار وتبعث على الريب في المعتقدات الدينية (١).

ومن المآخذ على هذه النظم التعليمية كذلك الاعتماد على الذاكرة وكثرة الحفظ فالعلوم النقلية على اختلافها تتوقف في تعلمها على الحفظ ، هذا بالإضافة إلى أن وسائل التعليم في ذلك العصر كانت تحتم الاعتماد على الذاكرة إذ لم يكن لدى الطالب الكثير من المطبوعات كالموسوعات والمصورات الجغرافية والقواميس اللغوية والجدول التاريخية وغيرها من التأليف الكثيرة التي تريحنا اليوم من عناء الاستظهار والاعتماد على الذاكرة إلى حد قد يقلل من قوة التفكير والابتكار . وقد اشرت في الباب الثاني عند الكلام على التعليم بالكتاب إلى مضار الاعتماد على الذاكرة وكثرة الحفظ التي تضعف عند الطالب قوة التجديد ، على أنه مما يدعو إلى السرور ان اسلوب التعليم في هذه المعاهد كان يتضمن الكثير من المناقشة والمناظرة الامر الذي يعوض على الطالب ما خسره بكثرة الحفظ .

ومما يؤخذ على هذه النظم عدم وجود حواجز تفصل بين مراحل التعليم المختلفة أو قوانين تحدد السن التي يبدأ عندها الطالب الدراسة بالمسجد أو بدار العلم أو بمقاييس علمية تبين مستوى الطالب الدراسي ومقدار ما حصل من العلوم (٢)، حتى لقد أثقل هذا النظام الحر كاهل المدرس وتعارض مع أبسط قواعد

(١) راجع تقرير لجنة إصلاح الأزهر ص ٣٨ ، مصطفى بيرم — الجامع الأزهر ص ٧٢

(٢) لم تستحدث الامتحانات في الجامع الأزهر إلا في سنة ١٢٨٨ هـ عندما تصدر للتدريس من لا أهلية له فقد كان المصدر للتدريس حراً لا يتقيد بقانون خاص أو امتحان معين (راجع مصطفى بيرم — الجامع الأزهر ص ٤٣ وما يليها) .

التعليم وأصول التربية إذ لا ريب أن اختلاف أعمار التلاميذ يتبعه اختلاف في مداركهم ومقدار تحصيلهم فكيف يتسنى للمدرس أن يفيد مثل هذا الجمع المتخلق حوله وقد اختلفت مداركه وتفاوتت أعمارهم في حين أن تقارب أعمار الطلبة في الدرس الواحد من شأنه أن يسهل على المدرس إفادتهم بطريقة واحدة منتظمة من غير ما عناء أو جهد .

هذا فضلا على أن مدة الدراسة بهذه المعاهد لم تكن محددة بزمن فكان الطلبة يتخذونها ملجأ لهم يقضون فيها أعمارهم وساعد على هذا إعطاؤهم الرواتب الشهرية وأجراء الارزاق عليهم ، فكانت هذه المنح على الرغم من أنها أعظم فضائل هذه النظم التعليمية سيئة من سيئاتها من شأنها أن تشجع عددا ليس بقليل على الالتجاء إلى هذه المعاهد لاطلب العلم بل للتعيش والارتزاق . وكان أولو الأمر أنفسهم لا يرون عيبا في هذا فقد أوقفوا الأوقاف وأجروا الارزاق لاتخاذ هؤلاء العلماء والطلبة أداة لنشر الدعوة لهم ولمذهبهم مما أضر ببعض هؤلاء الطلبة وقلل من اعتمادهم على أنفسهم في طلب الرزق وكسب العيش .

بيد أنه على الرغم من هذه العيوب وتلك المآخذ التي يرجع أغلبها إلى ما كان سائدا في هذه العصور من سيطرة رجال الدين وما كان من سياسة الفاطميين المذهبية — فإن هذه النظم بعينها لها محاسن كثيرة إذ حثت الكثيرين على طلب العلم واجتذبت هذه المعاهد عددا كبيرا من التلاميذ لان الشعور الديني كان قويا متسلطا على النفوس والعقول . وكان التفقه في الدين ارضاء لهذا الشعور وكان التلاميذ المترددين على هذه المعاهد احرارا في الذهاب

إليها أو الانقطاع عنها ذلك لأنها لم تكن لها لوائح تحدد مناهج الدراسة والفرق الدراسية ومدة الدراسة كما تقدم ، فالتعليم في هذه المعاهد كان يتمتع بحرية مطلقة وكانت هذه المساجد ودار العلم مباحة الورود لجميع الطبقات ، وكان لهذه الحرية المطلقة الفضل في تكوين اعلام المفكرين ونبوغ الكثرين من العلماء والادباء .

وساعدت هذه النظم التعليمية الحرة على التخصص في العلوم التي يميل إليها الطالب فقد كان حراً يحضر الحلقة التي يراها تتفق وميوله الخاصة ويقبل على ألوان الدراسة التي تهفو إليها نفسه وعلى الاساتذة الذين يميل إليهم ، فهو يجلس إلى هذا الاستاذ أو ذاك ويقرأ هذا الكتاب أو ذاك وهذا بعينه ماتطالب به التربية الحديثة . إذ من العبث ان يدرس الإنسان الطب وهو لايميل إليه أو يقبل على دراسة الآداب وهو لا يستطيع تذوق الشعر فهذه النظم الفاطمية قريبة الشبه بنظم الجامعات الحديثة التي تشجع على التخصص في العلم وتساعد على النبوغ والانتاج .

أما الرحلة إلى الأقطار المختلفة للتزود من العلم فكانت ميزة عظيمة لهذه النظم وحسنة كبيرة من حسناتها ، فالرحلة والسفر من أفضل العوامل لنزع الغرور من نفوس الطلبة إذ كثيراً ماظن الطالب نفسه نابعة في بلده وبين عشيرته حتى إذا مارحل إلى بلد آخر واتصل بأهل العلم فيه عرف مقدار نفسه . والرحلة فضلاً عن هذا توسع المدارك وتساعد على التعاون بين علماء الدول المختلفة وقد بين ابن خلدون في مقدمته^(١) وحاجي خليفة في كتابه

« كشف الظنون ^(١) ، فضائل الرحلة وقواندها الجليلة .

وما يسترعى النظر اننا لانزال حتى اليوم نشجع الرحلة ونبعث البعث إلى أوروبا وأمريكا وغيرهما من البلدان للوقوف على مقدار تقدم هذه البلاد العلمية والافادة من ذلك .

ويجدر بنا قبل أن نختم هذا الباب أن نشير إلى فضيلة بارزة من فضائل هذه النظم وهي استقلال الأستاذ وقيمته في التعليم وشهرته التي كانت تفوق شهرة المعهد الذي يتحلق فيه ، فقد كان الأستاذ هو عماد التعليم وعليه تتوقف حياة الطالب العلمية . وقد اهتمت به جموع الطلبة وجاموه من كافة انحاء البلاد لتلقى العلم على يديه وافتخروا بامضائه على الكتب التي قرأوها عليه . وكان المدرس حراً مستقلاً يدرس ما يشاء من غير تقييد بمنهج خاص تقرره الدولة أو كتاب خاص تختاره الوزارة اللهم إلا إذا تعارض هذا المنهج أو ذاك الكتاب وسياسة الدولة المذهبية ، ومع ذلك فقد كان الفاطميون يعضدون سياسة التسامح الديني في بعض الأحيان في عهود كثير من الخلفاء إذا استثنينا عهد الحاكم بأمر الله .

فهذه هي نظم التعليم في العصر الفاطمي الأول وهي على الرغم من عيوبها (التي هي عيوب العصر ذاته) فانها جديرة بكل احترام وتقدير .

الباب الخامس

التعليم في القصر

عناية الفاطميين بالعلم والأدب

لا شك أن شخص المعلم هو أهم العوامل في التعليم فهو أهم من البناء والأثاث والمعدات . والتعليم الحقيقي يقوم في أى مكان متى وجد المعلم والتلميذ ، ومما امتاز به ذلك العصر الذى نحن بصددده عدم التكلف في طلب العلم فقد ورد المصريون مناهله ما وجدوا إليه سبيلا في جامع أو منزل . وكان للخلفاء الفاطميين ميل شديد إلى العلم والعلماء فكانوا يعقدون المجالس بالقصور^(١) يحضرها أهل الفقه والأدب والشعر والطب^(٢) يحادثون الخليفة فيما يلذ له سماعه من أخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم ويتناظرون في الفقه والأدب والشعر وغير ذلك من العلوم الأخرى . وكانت مجالس الأدب والشعر والمناظرة هذه من أهم معاهد العلم ولم تكن تقل قيمتها التعليمية عن

(١) وصف المقرئى قصور الفاطميين في اسهاب ، وقد ذكرنا فيما تقدم أن جوهرأ وضع أساس القصر الكبير الشرقى في نفس الليلة التى اختط فيها القاهرة . واستمر العمل في أقسامه المتعددة عشر سنين . واشتمل هذا القصر على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة . ولما آلت الخلافة إلى العزيز أمر ببناء القصر الصغير الغربى . وكان يقال لمجموع القصرين القصور الراهرة ، وكان بين القصرين فضاء متسع أطاق عليه بين القصرين ، وكان يسع عشرة آلاف من الجند وكانت تعقد فيه دده حاق لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار والتفنن في أنواع اللعب واللهو .

(راجع الخطط ج ٢ ص ٢١٤ وما يليها ، ج ٣ ص ٤٤)

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٣٥ .

مجالس الدرس بالمساجد أو دار العلم وكانت تعقد في دور الوزراء والأغنياء إلى جانب القصور الزاهرة .

(وساعد على ازدهار هذه المجالس شغف المصريين بالعلم وإقبال الأدباء على المناظرة طمعا في منح الخلفاء والأمراء والوزراء ونيل الخطوة عندهم . هدا بالإضافة إلى أن الخلفاء أنفسهم كانوا من طلبة العلم والمقبلين على دراسته ، فقد كان المعز^(١) كما عرفنا ، من أعلم الخلفاء المسلمين وما رئي في مجلس أو عابر طريق إلا ويده كتاب حتى خرج إماما وفقيها وعلمها من أعلام الدين والأدب بليغ الأسلوب ملها بكثير من اللغات . وكان هو وكثير من أسرته من بعده وعلى رأسهم حفيده الحاكم بأمر الله يشتغلون بعلم النجوم^(٢) ويميلون إلى علوم الأوائل ويقربون إليهم أهلها ويفرضون العلم على أولادهم وماليكهم . ومن الوزراء الفاطميين العلماء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي ، وقد سبقت الإشارة إليه وإلى علمه وفضله في مواطن عدة ، وذكر المقرئ^(٣) انه رتب في داره الكتاب والأطباء وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى عليهم الأرزاق وألف كتباً عدة في الفقه والقرآات ونصب له مجلسا في داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل

(١) المقرئ — اتعاط الحنفى ص ٦٠ و ٦١ و ٦٥ و ٧٤ ، الخطط ج ٢ ص ١٦٤

وما يليها و ص ٢٠٧

(٢) ابن الأثير — ج ٨ ص ٢٦٣ ، الخطط ج ٤ ص ٧٤ ، النجوم الزاهرة ج ٤

ص ٧٠ وما يليها و ص ١١٦ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢ وما يليها .

(٣) الخطط ج ٣ ص ٧ — ١٢ ، ج ٤ ص ١٥٧ . وذكره كذلك يحيى الانهاكى —

تاريخه ج ٢ ص ١٦٤ و ١٧٢ وما يليها ، ابن منجب المير في — الإشارة إلى من نال الوزارة ص ١٩ وما يليها ، وفیات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٣ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨

يتناظرون بين يديه .. وكان في داره كذلك عدة كتاب ينسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدب وغيرها من العلوم ، فاذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت ، حتى لقد رثاه يوم وفاته مائة شاعر اجيزوا جميعهم .

(وقد بالغ الفاطميون في الاهتمام بالشعر وتقريب الشعراء على اختلاف مذاهبهم واستطاع كثير منهم قرضه^(١) حتى كان من بين أبناء المعز شاعر كبير هو تميم^(٢) ، وقام الشعراء بدور هام في حياتهم لأنهم اتخذوه أداة لنشر دعوتهم وتحقيق سياستهم ومنازلة العباسيين أعدائهم واكثروا من مدح الخلفاء والاشادة بمجد الفاطميين وانتشر الغلو في شعر الشعراء وكثيرا مادفع بهم هذا الغلو إلى الكفر والاحاد^(٣) .

ومن الشعراء الذين اتصلوا بخدمة الفاطميين ابن هاني^(٤) الاندلسي شاعر

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٣

(٢) كان مولده بالمهدية سنة ٣٣٧ هـ وكان شاعراً ماهراً لطيفاً وتوفي سنة ٣٧٤ هـ .

(٣) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٩٧ ، الخط ج ٣ ص ٢٦٠ ، حسن المحاضرة ج ١

ص ٢٤٠ و ٢٤١ .

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧ ، الفاطميون ص ١٥٢

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هاني الاندلسي . ولد بالأندلس ودرس بقرطبة . وجلب عليه سوء سيرته وصراحته في القول سخط الناس فأتهموه بالأخذ بأراء فلاسفة اليونان فرحل إلى إفريقية وخلق بجوهر ، ثم استدعاه الخليفة الفاطمي المعز وألحقه ببلاطه وأسبغ عليه نعمته . ولما ذهب المعز إلى مصر شيعه ابن هاني وعاد إلى المغرب لاحتضار أسرته والحق بمولاه . لكنه قتل وهو في طريقه إلى برقه عام ٣٦٢ هـ . ولما بلغ المعز خبر قتله حزن عليه وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » وعلى الرغم من الغلو الكثير في مدائح ابن هاني التي من أجلها بتممه الفقهاء بالكفر فإنه يتمتع بشهرة واسعة . (راجع وفيات الأعيان — ج ٢ ص ٤ وما يليها ، كشف الظنون ج ١ ص ٣٨٣ ، الفاطميون ص ١٥٣ وما يليها ، دائرة المعارف الإسلامية العربية — مجلد ١ عدد ٥ ص ٢٨٩ وما يليها .

المعز الذي أراد أن يحاكي به الشعراء العباسيين ويبدعهم ، وإذا تصفحنا ديوانه ألفينا أن أكثره قد نظم في مدح المعز وأمرته . وكان هذا الشاعر شيعيا متحمسا وقد يكون ذلك استدراجا لسكرم الفاطميين .

ومن الشعراء الذين اتصلوا كذلك بخدمة الخلفاء والوزراء أبو حامد الانطاكي^(١) الذي امتدح المعز والعزیز والحاكم بأمر الله وشاد بذكر جوهر والوزير يعقوب بن كلس ، وكانت وفاته سنة ٣٩٩ هـ ، محمد بن القاسم بن عاصم^(٢) شاعر الحاكم وأبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي المعروف بصريع الدلاء^(٣) وقد قدم مصر سنة ٤١٣ هـ ومدح الظاهر وكانت وفاته في السنة التي قدم فيها . وأبو الحسن علي بن نوبخت^(٤) وهو شاعر مجيد وكانت وفاته سنة ٤١٦ هـ .

ومن قدم إلى مصر رجاء التمتع بسخاء الفاطميين ورجال بلاطهم الشاعر عبد الوهاب بن نصر المالكي^(٥) وهو من أهل بغداد وكان فقيها مالكيا مبرزا ثقة في الحديث ، وقد استقبل بالقاهرة على الرغم من اعتناقه المذهب السني احسن استقبال ، واستطاع أن ينعم برغد العيش بمصر بعد أن عانى

(١) كان يعرف بأبي الرقعة وهو من أهل انطاكية بالقرب من مدينة حلب وكان من مشهورى الشعراء وقد أقام بمصر زمانا طويلا ومعظم شعره قد نظم في مدح أمراءها ورؤسائها (راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠ وما يليها ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤١ ، الفاطميون ص ١٥٩) .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤١

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٩ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٨ .

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ ، الفاطميون ص ١٦٠ وما يليها .

الكثير من المشاق والمتاعب في عاصمة العباسيين . وكانت وفاته بمصر سنة ٤٢٢ هـ في خلافة الظاهر الفاطمي .

(و كما عني الخلفاء الفاطميون بالشعراء والادباء عنوا كذلك بالأطباء فكانوا كثيرا ما يكرمونه ويغدقون عليهم الاموال ويولونهم الوظائف والمناصب وكان أكثرهم من اليهود والنصارى . وكانت لهم في البلاط الفاطمي على الرغم من ذلك منزلة كبيرة وقد ساعدت هذه العناية العظيمة بهذه الطبقة من العلماء على تقدم دراسة علم الطب وخاصة في المارستانات^(١) الفاطمية التي خصها^(٢) الحاكم بأمر الله بالكثير من ماله . وكانت هذه المشافي إلى جانب أثرها الخيري جامعات طبية تلقى فيها الدروس النظرية إلى جانب الدروس العملية ويتخرج فيها الأطباء والجراحون والكهالون . وكان من عادة الطبيب في ذلك العصر أن يكون ملما بالكثير من علوم الفلسفة واللغات الأجنبية كالسريانية أو اليونانية إلى جانب إلمامه بعلم الطب . ويدلنا على ذلك

(١) المارستان أو البيمارستان لفظ فارسي معناه مكان الرضى . وكانت المارستانات تشمل في العادة مدارس الطب والمستشفيات معا وتعالج فيها الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية . ولكن الآن تطلق كلمة مارستان على مصحة المجانين فقط . وكان بالمارستان في العادة أقسام خاصة بالذكور وأقسام خاصة بالإناث وكان مجزأاً بما يحتاجه الأطباء من أدوات جراحية وأدوية وخدم من الرجال والنساء للعناية بالمرضى . هذا فضلا عن أنه كان به ما يحتاج إليه تلاميذ الطب من كتب دراسية تساعد على الدرس والمطالعة .

ومن المارستانات المصرية المشهورة مارستان احمد بن طولون والمارستان السكافوري ، أما في زمن الفاطميين فكان بمصر كثير من المارستانات اتى عني بها الخلفاء . (راجع صبيح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٧ و ٣٦٩ ، الخطاط ج ٤ ص ٢٥٨ وما يليها ، الدكتور احمد عيسى تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٣ — ٤٣ و ٦٦ — ٧٦)

(٢) الخطاط ج ٤ ص ٨٤

ما أورده ابن القفطى وابن أبى أصيبعة من تراجم الأطباء المصريين فى ذلك العصر كابن رضوان والمبشر بن فاتك وقد تقدم ذكرهما فى الباب السابق .

وكان من أطباء المعز موسى بن العازار (١) الاسرائيلى المشهور بالتقدم والحدق فى صناعة الطب وله عدة مؤلفات فيها . وسعيد التميمى المقدسى (٢) الطبيب ، وكان من بيت المقدس وقرأ علم الطب به وبغيره من المدن الأخرى ثم انتقل إلى الديار المصرية . وقد أدرك الدولة العلوية بمصر وصحب الوزير يعقوب بن كلس وصنف له كتابا كبيرا فى عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء» ، ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم واختلط بأطبائهم (٣) الخاص القادمين من بلاد المغرب فى صحبة المعز عند قدومه والمقيمين بمصر من أهلها ، وكان هذا الطبيب بمصر فى حدود سنة ٣٧٠ هـ وله عدة مؤلفات .

(ومن أطباء العزيز أبو الفتح منصور بن مقشّر النصرانى (٤) وكان من الاطباء المتقدمين وله منزلة سامية عند العزيز حتى انه لما اعتل فى سنة ٣٨٥ هـ وتأخر عن الركوب كتب إليه العزيز عندما تماثل للشفاء كتابا رقيقا يدل على مبلغ عناية العزيز به والاهتمام بأمره . ومات هذا الطبيب فى عصر الحاكم بأمر الله .)

(١) القفطى — أخبار الحكماء ص ٣٢٠ ، ابن أبى أصيبعة — طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٦

(٢) أخبار الحكماء ص ١٠٥ — ١٠٦ ، طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٧ — ٨٩

(٣) كان يصرف لكل من أطباء الخاص خمسون دينارا فى الشهر ولبن دونهم من الأطباء المقيمين بالفقر لكل واحد عشرة دنانير (صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٥ ، الخطط ج ٢ ص ٢٤٣)

(٤) أخبار الحكماء ص ٣٣٤ — ٣٣٥ ، طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٩ .

ومن الأطباء الآخرين الذين كانوا في خدمة الفاطميين كيسان بن عثمان أبو سهل^(١) الطبيب المصري وكان بمصر في أيام المعز والعزیز وتوفي سنة ٢٧٨ هـ . وأبو الحسن سهلان بن كيسان^(٢) أخوه وكان طبيباً نصرانياً ارتفع جاهه في الأيام العزیزية وكانت وفاته سنة ٣٨٠ هـ ويوسف النصراني^(٣) وكان عارفاً بصناعة الطب فاضلاً في العلوم وقد صيره العزیز بطريقاً على بيت المقدس في السنة الخامسة من خلافته ، وعمار^(٤) بن علي الموصلي وكان كحلاً مشهوراً ومعالجاً مذكوراً له خبرة بمداواة أمراض العين وكان قد سافر إلى مصر وأقام بها في أيام الحاكم بأمر الله وله من الكتب كتاب « المنتخب في علم العين » ألفه للحاكم بأمر الله ، هذا بالإضافة إلى كثير من الأطباء الآخرين الذين ترجم لهم ابن القفطي وابن أبي أصيبعة وأشرنا إلى بعضهم في الباب السابق .

ديوان الإنشاء

وثمة مظهر آخر يدل على مقدار اهتمام الفاطميين بالعلم والتعليم والعلماء هو عنايتهم بديوان الإنشاء^(٥) واختيار كتابه من بين أمثال العلماء وبلغائهم

(١) أخبار الحكماء ص ٢٦٧ — ٢٦٨

(٢) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٩

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٨٦

(٤) » ج ٢ ص ٨٩

(٥) كان يطلق عليه ديوان الرسائل والكتابة كذلك . ولم يكن للمصريين عناية بديوان الإنشاء قبل زمن الدولة الطولونية . (راجع ابن خلدون — المقدمة ص ٢٧٣ . صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥)

لسكى يساعدوا على نشر مذهبهم وإذاعة ما بلغته خلافتهم من أبهة وسلطان ويحيطوا أنفسهم وأولادهم بطبقة خاصة من العلماء والفقهاء الذين نبغوا في علوم الفقه والدين واللغة حتى يفيدوا منهم في مكاتباتهم وخطبهم ويعملوا على زيادة ثقافتهم وتعليمهم ، لذلك نرى الخلفاء الفاطميين يحالسون هؤلاء الكتاب ويتلقون العلم عنهم ويستشيرونهم في أهم الأمور. وكان ديوان الانشاء يعد بمثابة مدرسة بالقصر تعلم فن^(١) الكتابة والأدب فكان كتاب الانشاء إذن معلمين لفن الكتابة للخليفة ولأولاده ولغيرهم من أبناء الامراء وأرباب الدواوين وكان الخلفاء يجزلون لهم العطاء ويجودون عليهم بالخلع^(٢). وقد صرح القلقشندي^(٣) بأن الفاطميين لما ولوا الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الانشاء وكتابه، فارتفع بهم قدره وشاع في الآفاق ذكره وولى ديوان الانشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى. وكانت الكتابة في ذلك العصر تلى الوزارة في الرتبة، فقد كانت إحدى المناصب العالية التي كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم السكافية والقدرة على معالجة الأمور كما كانت الخطوة الأولى للوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة^(٤).

(١) ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٨) في ترجمته ليوسف بن محمد المعروف بابن الحلال صاحب ديوان الانشاء بمصر في عهد الحافظ الفاطمي (٥٢٤ — ٥٤٤هـ) ان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة الفاطمية كان غضا طاريا وكان في العادة أن كلام أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويستمتع أشياء من علم الأدب.

(٢) الفاطميون ص ١٥١ و ١٥٢.

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦.

(٤) النظم الاسلامية ص ١٨٢.

وكان على كاتب ديوان الانشاء أن يتصف بعدة صفات ، فقد عقد ابن منجب الصيرفي الذي تقلد ديوان الرسائل في العصر الفاطمي الثاني فصلا ضافيا في كتابه « قانون ديوان الرسائل ^(١) » بين فيه الاحوال التي يجب أن يكون عليها الكاتب ^(٢) (وما ينبغي أن يكون حاصلا عليه من العلوم والمعارف والأخلاق، فقال إن أول ما يجب أن يتصف به رئيس ديوان الرسائل ومتولى الكتابة عن حضرة الخليفة أن يكون ذا دين وورع وأمانة فإنه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة يتحكم في أرواح الناس وأموالهم ، ويفضل أن يكون دينه الاسلام لأنه من الخليفة بمنزلة الوزير ولأنه في حاجة إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته والتمثيل بنواهييه وأوامره والذكر لقوارعه وزواجه وهو حلية الرسائل وزينة الانشاءات والحجة التي لا تدحض والحقيقة التي لا ترفض . فإذا كان الكاتب من أهل الذمة لم يكن لديه من ذلك شيء وأنت كتبه خالية من أفضل الكلام وما يتبرك به أهل الايمان والاسلام ويجب أن يكون الكاتب متمذهبا بالمذهب الذي عليه الخليفة ليكون مجتهدا في خدمته مبالغا في نصحه .

ويجب أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة أو أسنى منزلة فإنه لسان السلطان الذي ينطق به ويده التي بها يكتب . وأن يكون مضطلعا بفنون الكتابة عالما بأصولها وفصولها مستقلا بآدابها حافظا لكتاب الله تعالى أو

(١) ص ٩٤ — ١٠٨ .

(٢) أشار إلى صفات الكاتب كذلك كل من ابن خلدون في مقدمته (ص ٢٧٥ — ٢٧٩) والقلقشندي في كتابه صبح الأعشى (ج ١ ص ١٤٨ وما يليها) ولقلقشندي عدا ذلك مقامة اشتملت على بيان ما يحتاج اليه كاتب الإنشاء من المواد جاءت بكتابته المذكور (ج ١٤ ص ١١١ وما يليها) .

قيما بقراءته إذا قرأه فإنه شديد الحاجة إليه ، ويكون حافظا لأخبار الرسول والأئمة من ذريته قيما بها أو باكثرها راويا لأخبار الملوك وأيام العرب ووقائعهم وأخبار العجم وسائر الامم وما جرى في أيام الملوك الماضين وما حدث من وزرائهم وكتائبهم وقوادهم وأخبارهم فإنه أحوج الناس إلى ذلك . وربما دفعته مضايق الكتابة إلى الاستشهاد بشيء منه . ويجب أن يكون حافظا للشعار راويا للكثير منها يستشهد بما عساه يحسن الاستشهاد به في بعض المواضع فان للمنظوم من البهجة في النفس والوقع في القلب ما ليس للنثر ، ويجب أن يكون قد قرأ من العربية والتصريف واللغة ^(١) أكثرها فإنه أحوج الناس إلى هذه العلوم فان كان مبرزاً فيها قيما بها على الكمال فزيادة في فضله .

ويجب أن يكون الكاتب أصيلاً في قومه رفيعاً في حسبه وأن يكون صبيح الوجه فصيح الالفاظ طلق اللسان لأنه كثير ما يراه الخليفة، وأن يكون حليماً وقوراً مؤثراً للجد على الهزل شديد الذكاء متوقد الفهم حسن الكلام إذا حَدَّثَ حسن الاصفاء إذا حَدَّثَ رءوفا بأهل الدين ساعياً في مصالحهم محباً لذوى العلم والأدب راغباً في نفعهم . ويكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يدانيه فيها أحد ولا يقاربه فيها بشر حتى يقرر في نفسه أمانة كل حديث يعلمه وتناسي كل خبر يسمعه . ويجتهد في أن يصير له ذلك طبعاً مركباً وأمرأ

(١) ذكر القلقشندي (صبح الأعشى ج ١ ص ١٦٥) أن مما يحتاج إليه الكاتب إلى جانب معرفته باللغة العربية والنحو والصرف والبيان والبديع الاسام باللغة العجمية وهي كل ما عدا العربية من التركية والفارسية والرومية والفرنجية والبربرية والسودان إذ لا يخفى أن الكاتب يحتاج في كماله إلى معرفة لغة السكتب التي ترد عليه للخليفة ليفهمها ويجب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها فان ذلك أصون لسر الخليفة .

ضروريا ، فإنه إذا كان بهذه المنزلة أنتفع به الخليفة وإذا كان بضدها أستضر هو والخليفة جميعاً .

وكانت أهم^(١) وظائف السكتاب بديوان الإنشاء ثلاثاً - الأولى منها هي صحابة ديوان الإنشاء والمكاتبات وكان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ويخاطب بالأجل وكان يقال له كاتب الدست الشريف^(٢) وإليه تسلم المكاتبات الواردة محتومة فيعرضها على الخليفة بيده ، وهو الذي يأمر بتنزيلها والاجابة عنها ويستشير الخليفة في أكثر أموره .

أما الوظيفة الثانية فهي التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم^(٣) وهي رتبة جليلة تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات ويكون صاحبها جلساً للخليفة في أكثر أيام الأسبوع في خلوته يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالى أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين ويقرأ عليه ملح الشعر ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ويقوى يده في تجويد الخط وغير ذلك ، وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات ويرفع إليه هناك قصص المظالم فيوقع عليها بما يقتضيه الحال .

أما الوظيفة الثالثة فهي التوقيع بالقلم الجليل^(٤) وموضوعها السكتابة

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠

(٢) صبح الاعشى ج ١ ص ١٠٢ و ١٠٣ ، ج ٣ ص ٤٩٠ ، الخطط ج ٢ ص ٢٤٤ ،

الفاطميون ص ١٥١ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩١ ، الخطط ج ٢ ص ٢٤٤ ، الفاطميون ص ١٥١

(٤) ولو أن هذه العبارة تدل على أن هذا الموظف كان أعلى في المرتبة من صاحب القلم الدقيق إلا أن مرتبته كانت في الواقع أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق إذ كانت تسمى الخدمة الصغرى (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩١ ، الخطط ج ٢ ص ٢٤٤ الفاطميون ص ١٥٢)

بتنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق وبسطه فكانت مهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها. فإذا رفعت قصص المظالم حملت إلى صاحب القلم الدقيق فيوقع عليها ثم تحمل إلى الموقع بالقلم الجليل لبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق ثم تحمل إلى الخليفة فيوقع عليها ثم تخرج إلى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه.

ولقد أتى لنا القلقشندي^(١) ببيان رواتب هؤلاء الموظفين ومنه يتبين لنا أن السكتاب كانوا يتقاضون رواتب كبيرة فضلا عما كان يصدق عليهم من هبات ويدفع لهم من أرزاق. فكان صاحب ديوان الإنشاء والمسكبات يتقاضى راتبا شهريا قدره ١٥٠ ديناراً. وكان يتقاضى كل كاتب من السكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين ديناراً. أما صاحب القلم الدقيق فكان راتبه ١٠٠ دينار كل شهر وصاحب القلم الجليل ٣٠ ديناراً.

وقد أخذ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي^(٢) جوهر الصقلي كاتباً له سنة ٣٤١ هـ وذلك لأن جوهر كان كاتباً بليغاً كما كان عفا جم الأدب في كتابته. وكتب للعزیز بالله أبو منصور ابن سوريدن^(٣) النصراني ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه، فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر البهركي^(٤) ثم كتب بعده لابنه الظاهر. وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين بن خيران^(٥) وما ذكره^(٦) عنه ياقوت أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار —

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٦. وقد ورد ذلك بالخط ج ٢ ص ٢٤٣

(٢) النظم الاسلامية ص ١٨٣.

(٣) و (٤) و (٥) — صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

(٦) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥

وأبو سعيد العميدى ^(١) وكان أديبا نحويا استخدم في صفر سنة ٤٣٢ هـ وله تصانيف في الأدب منها كتاب «تنقيح البلاغة» .
ومن كتاب الإنشاء كذلك في العصر الفاطمى الأول من سبقت الإشارة اليهم القضاء ^(٢) المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، وأبو الحسن طاهر بن بابشاذ ^(٣) المتوفى سنة ٤٦٩ هـ . فإنه كان في عهد المستنصر الفاطمى متأملا في ديوان الإنشاء بالقاهرة يتأمل ما يصدر فيه من السجلات والرسائل فيصلح ما فيها من خطأ .

خزائن الكتب

لا شك أن خزائن الكتب الفاطمية كان لها أثر بعيد في التعليم في العصر الفاطمى ، ففضلا عن أنها كانت تساعد الخليفة على الوقوف على مختلف العلوم والفنون فإنها كثيرا ما كانت تمد معاهد التعليم الفاطمية بالكتب القيمة والمؤلفات النادرة لكي تكون في متناول الطلبة والمعلمين يفيدون منها ما شاءوا للإفادة في العلوم والآداب . وهى بالاضافة إلى ذلك دليل واضح على مقدار تقدم العلم والتعليم في ذلك العصر وإنتشار الآداب والعلوم . فقد

-
- (١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢١٢ ، صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ ، بغية الوعاة ص ١٩
(٢) كان يكتب عن الوزير نجيب الدولة على بن أحمد الجرجاني في عهد الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله الفاطمى وكان الحاكم قد أمر بقطع يدي هذا الوزير في سنة ٤٠٤ هـ
(راجع ابن منجب الصيرفي — الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ و ٣٦ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٢ ، الجوزم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٨ ، النظم الاسلامية ص ١٨٣ و ١٨٤) .
(٣) معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٧ وما يليها ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٥ ، بغية الوعاة ص ٢٧٢ .

عنى الخلفاء الفاطميون بجمع أكبر عدد من الكتب والحصول على أندر المؤلفات فى جميع العلوم .

ومما ذهب إليه ابن الأثير والمقرئزى^(١) أن عبيد الله المهدي عميد الفاطميين ومؤسس دولتهم حمل معه من سلبية عدة كتب وملاحم لأبائه ولكنها سرقت منه وهو فى طريقه إلى سجلماسة فى مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس . وقد أستطاع ابنه أبو القاسم أن يستعيد ما فقده أبوه من كتب ووثائق وهو فى طريقه لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ .

ولقد ساعد على عظم هذه المكتبة الفاطمية بمصر ما حمله المعز^(٢) عند رحيله إليها من الكتب الكثيرة التى كانت فى مكتبته الخاصة ، وما كان من رغبة الفاطميين فى منافسة الدولة العباسية وتشجيع العلم والتعليم وسياستهم فى تقريب العلماء والأدباء والشعراء الأمر الذى كان من شأنه أن يشجع الدرس والتحصيل والبحث والتأليف ونسخ الكتب ومعارضتها ونقدها وكتابة الذيول لها وإقتناء المؤلفات والمخطوطات ، فضلاً عن أن المكتبات كانت قد أنتشرت فى العالم الإسلامى فى ذلك العصر وأدرك المسلمون فائدتها^(٣) .

وكان الخلفاء الفاطميون يجمعون فى خزائهم نسخاً كثيرة من المؤلف الواحد لىكى ينفردوا بالفخر بها ، فقد ذكر المقرئزى^(٤) عن المسيبى أنه

(١) الكامل ج ٨ ص ١٥ ، اتعاظ الخنفا ص ٣٥ .

(٢) الفاطميون ص ١٣٤

(٣) الدكتور زكى حسن — كنوز الفاطميين ص ٣١

(٤) الخطوط ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٥

ذكر عند العزيز بالله كتاب العين للخليل بن احمد^(١) فأمر خزان دفتاره فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل بن أحمد نفسه ، وحمل اليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه . وكان من عجائب هذه الخزانة أن فيها ١٢٠٠ نسخة من هذا الكتاب الأخير .

وتدل هذه الحكاية الطريفة التى أمدنا بها المقرئ فى كتابه « اتعاض الحنفا^(٢) » على مقدار شغف الفاطميين بجمع الكتب والاحتفاظ بها والاهتمام بأمرها ، فقد حمل أبو جعفر مسلم من أشرف مصر إلى المعز المصحف الكبير الذى يذكر أنه كان ليحيى بن خالد بن برمك وكان قد اشتراه بأربعمائة دينار فلما رآه المعز قال : « أراك معجباً به وهو يستحق الإعجاب ولكن نفاخرك نحن أيضاً : فدعا بمصحف نصفين ما روى أحسن منهما خطأ وإذهاباً وتجليداً . فقال هذا خط المنصور^(٣) وإذهابه وتجليده بيده ، فقال له مسلم ، فثم مصحف بخط مولانا المعز لدين الله عليه السلام فقال : نعم . وأخرج له نصفين ، فقال ما رأيت أصبح من هذا الخط » .

وكثيراً ما كان الخليفة يزور خزانة الكتب فيجىء راكباً ثم يترجل ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة ويمثل بين يديه أمين المكتبة ويأتيه بمصاحف

(١) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد وهو غاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس وهو أول من استخرج العروض وخص به أشعار العرب . وتوفى بالبصرة سنة ١٧٠ هـ (راجع فهرست لابن النديم ص ٤٢ وما يليها)

(٢) ص ٩٩

(٣) والد المعز (٣٣٤ — ٣٤١ هـ)

كثيرة مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاط وغير ذلك مما يقترحه من الكتب فان
عن له أخذ شيء منها أخذه ثم يعيده^(١) . ومن ثمولى امر خزانة الكتب
الفاطمية فى عهد العزيز أبو الحسن على بن محمد الشاذلى الأديب الفاضل
صاحب كتاب « الديارات » وكان يقرأ للعزيز الكتب ويحاسبه ويناديه .

ولم يكن وزراء الفاطميين أقل حماسة فى إقتناء الكتب والحصول عليها
من الخلفاء ، فقد كان الوزير يعقوب بن كلس^(٢) يحث العلم ويجمع بداره العلماء
كما تقدم . وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون ينسخون
كتب الحديث والفقه والأدب والطب ثم يعارضونها ويشكلونها وينقطنوها .
وقد خلف برجوان^(٣) أستاذ الحاكم من الكتب ما لا حصر له . كما
كان للبشر بن فارك^(٤) وهو من أمراء مصر وفاضل علمائها خزائن كتب
عظيمة . وكان فى أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها وليس له دأب
إلا المطالعة والكتابة ويرى أن ذلك أهم ما عنده .

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣٤ ، الخطط ج ٣ ص ٩

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٨ ، الخطط ج ٣ ص ٣

(٤) سبقت الإشارة إليه فى الأبواب السابقة . وكان البشر بن فارك من تلاميذ ابن الهيثم
ومن اشتغل بصناعة الطب ونفع فى علوم الحكمة . وكانت له تصانيف جائلة فى المناطق وغيره
من العلوم الأخرى . وقد ذكر ابن أبى أصيبعة أنه لما توفى المذمر بن فارك نهضت زوجته
هى وجواربها معها إلى خزائن كتبه ، فجعلت تندبه وفى أثناء ذلك ترمى الكتب فى بركة ماء
فى وسط الدار وذلك لما فى قلبها من الكتب ولأنه كان يشتغل بها عنها . ولما نقلت الكتب
بعد ذلك من الماء كان قد غرق أكثرها . وقد عاش هذا الأمير المصرى فى أيام الفاطم
والستصر (راجع : أجم الأدباء ج ١٧ ص ٧٧ ، طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٨ و ٩٩) .

وذكر ابن أبي أصيبعة ^(١) أن رجلا من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها وأنه اجتمع مع افرائيم بن الزفان وكان من الأطباء المشهورين بديار مصر ، واتفق الحال فيما بينهما أن يباعه افرائيم هذا من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد فلما سمع بذلك الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي أراد أن تبقى تلك الكتب في الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر . فبعث إلى افرائيم من عنده بحملة المال الذي كان قد اتفق عليه بين افرائيم والعراقي ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل وكتب عليها القاب . ومما يذكر أن هذا الوزير لما توفي سنة ٥١٥ هـ صادر الخليفة الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) كافة ممتلكاته فكان من بينها خمسمائة ألف مجلد نقلت كلها إلى مكتبة القصر ^(٢) وقد خلف افرائيم بن الزفان الطبيب المذكور من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد . وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وبقائه النسخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفائتهم وعنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ^(٣) .

وقيل إن عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة . وتحتوى هذه الخزانة على عدة رفوف مقطوعة بحواجز وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل وفيها من اصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات عدا الكتب الأخرى . وقد اشتملت هذه الكتب على مصنفات في جميع المذاهب واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين

(١) طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٠٥

(٢) الناطقون ص ١٤١

(٣) طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٠٥

والكيمياء. هذا عدا المصاحف التي احتوتها المكتبة ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة^(١) وابن البواب^(٢) وغيرهما من مشاهير الخطاطين^(٣). وكان في خزانة الكتب الفاطمية مخطوطات محلاة بالذهب والفضة في جلود جميلة النقوش بديعة الصناعة، نسج المالك على منوالها في صناعة التجليد في عصرهم وأخذ الغربيون عنهم في العصور الوسطى كثيرا من أساليبهم في هذا الميدان^(٤).

وذكر ابن القفطى^(٥) أنه في سنة ٤٣٥ هـ عندما تولى القاضي أبو عبد الله القضاء عمل فهرست لدار الكتب الفاطمية كان بها من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاسا من عمل بطليموس وكرة أخرى فضة زنتها ثلاثة آلاف درهم.

وكانت هذه الخزانة الفاطمية ثالثة^(٦) الخزائن في الاسلام التي اشتهرت بعظمتها وجلالها وكثرة كتبها. أما أولى هذه الخزائن فهو بيت الحكمة العباسي

(١) هو أبو على محمد بن الحسين بن مقلة الكتب المشهور. كان مولده ببغداد وكان خطه جميل وتوفي سنة ٣٢٨ هـ. (راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦١ و٦٢).

(٢) هو أبو الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب الكتب المشهور وقد اشتهر في حياته بجودة الخط وتوفي ببغداد سنة ٤١٣ هـ وقبل سنة ٤٢٣ هـ (راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٥ — ٣٤٦).

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ و ٢٥٥

(٤) الدكتور زكي حسن — كنوز الفاطميين ص ٢٨ و ٢٩

(٥) أخبار الحكماء ص ٤٤٠

(٦) صبح الأعشى ج ١ ص ٤٦٦

بغداد وقد أسسه هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) وجمع من كتب العلم ما لا يحصى كثرة . ولم يزل على ذلك إلى أن استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ فذهبت هذه الخزانة العباسية فيما ذهب وذهبت معالمها وعفت آثارها (١) . أما الخزانة الثانية فهي خزانة خلفاء بني أمية بالأندلس ، وكانت من إنشاء الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٤٦٦ هـ) وكان محبا للعلم جماعا للكتب على أنواعها ، فأنشأ في قرطبة هذه المكتبة وجمع إليها الكتب من جميع أنحاء العالم فكان يبعث في شرائها رجالا من التجار ومعهم الأموال ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب العلماء والكتاب . وقد اجتمع له من الكتب عدد عظيم فكانت مجموع ما حوته تلك المكتبة ٤٠٠٠٠٠ مجلد (٢) .

على أن هاتين الخزانتين لم تصلا في عظمتيهما وجلالهما إلى مبلغ ما وصلت إليه خزانة الفاطميين ، فقد وصفها المقرئ (٣) بأنها كانت من عجائب الدنيا وأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم منها وأنها اشتملت على مليون وستمائة ألف كتاب (٤) وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة .

(١) الدكتور حسن ابراهيم — تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

(٢) جرجى زيدان — تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ ،

راجع Nicholson : A Literary His. of the Arabs, p.419 .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) اختلف المؤرخون في مسألة عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر في ذلك الوقت . ولكن الدكتور حسن ابراهيم يرجع أنه كان بها ٦٠٠,٠٠٠ مجلد أو ما يقرب من هذا العدد (راجع الفاطميون ص ١٤٠ و ١٤١) .

على أنه مما يدعو إلى الأسف حقا أن تتلاشى أغلب هذه المجلدات التي امتلأت بها خزائن القصور الفاطمية الزاهرة في غضون الشدة العظمى التي حلت بالبلادسنيين طويلة في عهد المستنصر، فقد نزع من هذه المكتبة ما يقرب من ألفين وأربعمائة ختمة مكتوبة بخط محلي بماء الذهب والفضة أخذها الاتراك في مقابل ما كان متأخرا لهم من الارزاق^(١). هذا بالإضافة إلى ما ذهب إليه المقرئى^(٢) من أن عددا غير قليل من الكتب الجليلة المقدار قد اتخذ بعض العبيد والإماء من جلودها نعالا وأحذية ثم أحرقوا أوراقها زعماء منهم أنها تحوى كلام المشاركة الذى يخالف مذهبهم وأن عددا آخر كبيرا من الكتب غرق أو تلف وما بقى سفت عليه الرياح والتراب فصار تلالا عرفت بتلال الكتب.

ولكن رغم هذه المحنة التي حاقت بكثير من الكتب الفاطمية فإن الفاطميين سرعان ما عوضوا ما فقدوه منها واستطاعوا أن يكون لهم خزانة كتب عظيمة في عصر العاضد آخر خلفائهم. وقد بيعت هذه الكتب التي غصت بها خزانة الفاطميين عندما استولى صلاح الدين بن أيوب على القصور الفاطمية الزاهرة، واستغرق بيعها لكثرتها عدة أعوام^(٣).

(ومهما يكن من شيء فإن هذه المكتبة الفاطمية الزاهرة ساعدت الخلفاء على نشر عقائد مذهبهم وتلقيها للناس وساعدت المعلمين والعلماء على الدرس والتحصيل والنسخ والتأليف. واستطاع الفاطميون لعنايتهم بها وحرصهم

(١) الخطاط ج ٢ ص ٢٥٤

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٤

(٣) صبح الاعشى ج ١ ص ٤٦٧، الخطاط ج ٢ ص ٢٥٥، الفاطميون ص ١٢٠

على اقتناء المجلدات النادرة أن يبذوا غيرهم من أصحاب المكاتب في البلدان الإسلامية الأخرى . بيد أننا نأسف لضياح بعض هذه المجاميع القيمة من الكتب النادرة إبان الشدة العظمى وضياح الجانب الآخر على أيدي الأيوبيين السنيين الغلاة الذين كانوا أعداء ألداء للشيعة ، فلم يعملوا على القضاء على الشعائر الشيعية فحسب بل عملوا على القضاء على كل معالم الحضارة الفاطمية وثقافتها وتراثها .

الدعوة الفاطمية في القصر

وكان يعقد في القصر الفاطمي إلى جانب مجالس الأدب والشعر والمناظرة مجالس الحكمة حيث تلقن الدعوة الفاطمية . فكان القصر بمثابة مدرسة عامرة بالمعلمين والتلاميذ ، والمعلمون هم الدعاة والتلاميذ هم الشيعيون على سائر طبقاتهم يقبلون على مجالس الحكمة هذه بالقصور الزاهرة يتلقون فيها محاضرات في أصول الدعوة الفاطمية لا تخلو من دراسة للقرآن وفقه آل البيت وغيره من العلوم الدينية الأخرى . وكانت تلقن هذه الدعوة بطريقة منظمة يراعى فيها أذهان التلاميذ ومستوى ثقافتهم فلا يتلقى العامة منها سوى مبادئها الأولية بينما يرتفع الدعاة المحاضرون بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا التي سنقف عليها فيما يلي .

قامت الدولة الفاطمية على أسس الدعوة الشيعية واتشح الخلفاء الفاطميون بثوب الإمامة وردوا نسبتهم إلى علي بن أبي طالب وفاطمة وصافوا أماتهم إلى اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسين بن علي واستطاعوا بذلك

أن يبسطوا سلطانهم على كثير من البلدان . فليس بغريب إذن أن تبالغ الدولة الفاطمية في بث دعوتها المذهبية وفي العمل على توطيد دعائها ، إذ أن في هذا حفظا لسيانها وتوطيدا لنفوذها وسلطانها .

ولما استقر الفاطميون بمصر شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية ذلك أنها لم تجد في مصر كما وجدت في قفار المغرب مهذا خصبا لدعوتها فلم تقف جهودها في بث دعوتها عند حد الاعتماد على سن القوانين الجائرة بل أكثر من عقد مجالس الحكمة حتى تحشد تحت لوائها ذوى الأذهان المستتيرة من المصريين .

كانت الدعوة الفاطمية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية ، ومنذ قامت الدولة الفاطمية بمصر كانت تنتظم في القصر الفاطمي وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت والتفقه فيها . وكانت تلقن في القصر أحيانا والجامع الأزهر أحيانا أخرى . بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة كانت سستاراً وتمهيدا لدعاية أخرى كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، وكان يشرف على هذه الدعاية ظاهرها وباطنها وعلى تنظيمها وتلقيها زعيم ديني كبير يشغل منصبا هاما في القصر ويلقب بداعي الدعاة ويل قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بمثل امتيازاته . وكانت وظيفتا قاضي القضاة وداعي الدعاة تسندان في كثير من الأحيان إلى رجل واحد ^(١) ينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين في العلوم الدينية وفي أسرار الدعوة الفاطمية ويعاونه في نشر الدعوة اثنا عشر نقيبا وعدة كثيرة من النواب يمثلونه في سائر النواحي . وكانت

هذه الدروس الخاصة تعرض قبل القائها على الخليفة فيقرها ويذيلها بامضاءه ثم تلقى في مكانين بالقصر، للرجال على كرسى الدعوة بالإيوان الكبير وللنساء بمجلس الداعي وكان يقال له المحول. وإذا فرغ الداعي من إلقاء محاضراته على المؤمنين والمؤمنات أقبلوا عليه يقبلون يده فيمسح رؤوسهم بالجزء الذي عليه امضاء الخليفة ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب. وله أخذ النجوى منهم ومبلغها ثلاثة دراهم وثلاث^(١). فيجتمع من ذلك شيء كثير يحمله الداعي إلى الخليفة فيعرض له الخليفة ما يعينه لنفسه وللنقباء، وقد أطلق على مجالس الدعوة هذه مجالس الحكمة^(٢).

وذكر المقرئ^(٣) أن هذه المجالس كانت تفرد للناس كل حسب طبقة، فكان لآل على مجلس وللخاصة وشيوخ الدولة ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس، وللعام والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس وللحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن، وكان النساء يحضرن بالجامع الأزهر ولهن به مجلس.

وقد أورد لنا القلقشندي^(٤) وثيقة هامة هي سجل فاطمي بإقامة داعي الدعوة وبيان مهمته واختصاصاته وما يجب عليه اتباعه لإذاعة الدعوة والحث

(١) كان بعض سراة الاسماعيلية من يدفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلاث دنانير فيمتاز بذلك على غيره في المحول ويعطى رقعة مذيلة بامضاء الخليفة فيدخر ذلك ويفخر به

(راجع الخطوط ٢ ج ٢ ص ٢٢٦)

(٢) راجع صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٧، الخطوط ج ٢ ص ٢٢٥ وما يليها، الفاطميون

ص ١٤٢ وما يليها

(٣) الخطوط ج ٢ ص ٢٢٦

(٤) راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ وما يليها.

على إطاعة أمير المؤمنين وطرق تعليم المؤمنين الدعوة والتدرج معهم في تلقينهم العلم، واحترام العلماء والعطف عليهم وعدم احتقار الجهلاء إلى غير ذلك من الأشياء التي توضح لنا واجبات الداعي وسرية الدعوة وجمع النجوى واستخدام النقباء والنواب الذين نعتوا بشيوخ علم الحكمة . وقد جاء بهذا السجل ما يلي :

... وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة وأورثه من منصب الإمامة والأئمة وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين وتموير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين — يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه وتغذية أفهامهم بلبانها وارهاف عقولهم ببيانها وتهذيب أفكارهم بلطائفها وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوقيفهم من علومها على ما يحلب لهم سبل الرضوان ويفضى بهم إلى روح الجنان وريح الحنان والخلود السرمدي في جوار الجواد المنان ... حتى أداه الاجتهاد إليك ووقفه الارتياح عليك فأسندها منك إلى كفئها وكافئها ومدرها المبرز فيها ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ودقائقها المطوية ثقة بوثاقة دينك وصحة يقينك وشهود هديك وهداك وفضل سيرتك في كل ما ولاك ومحض اخلاصك وقديم اختصاصك وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشريف والحنان والتنويه ومضاعفة الاحسان .

فتقلد ما قللك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى عادلاً عن الهوى سالماً سبيل الهدى ... وخذ العهد على كل مستجيب راغب وشد العقد على كل منقاد

ظاهر من يظهر لك اخلاصه و يقينه و يصح عندك عفافه و دينه و حضهم على
الوفاء بما نعاهدهم عليه . . . و كف كافة أهل الخلاف و العناد و جادلهم باللفظ
و السداد ، و اقبل منهم من اقبل إليك بالطوع و الانقياد و لا تنكره أحدا على
متابعتك و الدخول في بيعتك . . . و لا تلق الودیعة إلا لحفاظ الودائع و لا
تلق الحب إلا في مزرعة لا تكدى على الزارع ، و توح لغرسك أجل
المغارس و توردهم مشارع ماء الحياة المعین و تقربهم بقربان المخلصین
و تخرجهم من ظلم الشكوك و الشبهات إلى نور البراهین و الآیات - و اتل
بجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين و المؤمنات و المستجيبين
و المستجيبات في قصور الخلافة الزاهرة و المسجد الجامع بالمعزية القاهرة .
و صن أسرار الحكم إلا عن أهلها و لا تبذلها إلا لمستحقها و لا تكشف
للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله و لا تستقل أفهامهم بتقبله . و اجمع من
التبصر بين أدلة الشرائع و العقول و دل على اتصال المثل بالممنون ، فإن الظواهر
أجسام و البواطن أشباحها و البواطن أنفس و الظواهر أرواحها و إنه لا قوام
للاشباح إلا بالأرواح و لا قوام للأرواح في هذه الدار إلا بالاشباح و لو افرقا
لفسد النظام و انتسخ الایجاد بالاعدام . . .

و اتخذ كتاب الله مصباحا تقتبس أنواره و دليلا تقتفي آثاره و اتله متبصرا
و رددته متذكرا و تأمله متفكرا و تدبر غوامض معانيه و انشر ما طوى من
الحكم فيه ، و تصرف مع ما حلله و حرمة و نقضه و أبرمه فقد فصله الله
و أحكمه ، و اجعل شرعه القويم الذي خص به ذوی الألباب و أودعه جوامع
الصلوات و محاسن الآداب سببا تتبع جادته و تبلغ في الاحتجاج محبته .

وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ولا تعدل عن منهجه وسبله ، واضمم نشر المؤمنين واجمع شمل المستجيبين وارشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين . وسوء بينهم في الوعظ والارشاد ... وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول وما يظهر لك من جودة المحصول . ودرجهم بالعلم ووفاء المؤمن حقه من الاحترام ولا تعدم الجاهل عندك قولا سالما كما علم رب السلام . وتوخ رعاية المؤمنين وحماية المعاهدين وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الايمان والدين . وألن لهم جانبك وأحسن عليهم والطف ... وإذا ألبس عليك أمر وأشكل وصعب لديك مرام وأعضل فأنه إلى حضرة الإمامة . . ليخرج إليك من بصائر توقيفها ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة ويذهب بك في لاجب الطريقة . واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزى والاحماس والقربات وما يجرى هذا المجرى وتتقدم إلى كاتب الدعوة باثبات أسماء أربابه . واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله إليه وتبرأ ذمهم عند الله منه . واستنب عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بديانته وتسكن فيه إلى وفور صناعته . واعهد إليهم كما عهد إليك وخذ عليهم كما أخذ عليك واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته . واستخدم كاتبنا دينا أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً حقيقة بالاطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصيانتها وكتمتها عن غير أهلها ، تقيا حصيفا لطيفا ينزلهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل ... »

قد انتهى إلينا المقريري^(١) تفاصيل هذه الدعوة الشيعية الفاطمية وهي تعرض دون شك لمسائل النبوة والإمامة والعقيدة الدينية وتوضح لنا مذهب الإسماعيلية الذي يدين به الفاطميون وتدعو إلى دراسة فلسفة أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان القدماء وإلى الأخذ بالأدلة العقلية، ولكنها تستحيل في النهاية إلى عقيدة فلسفية حرة ممعنة في الإنكار والإلحاد. وتجري في مراتب تسع متدرجة في الأهمية وعلى الدعاة أن يعرضوا هذه المراتب بالتعاقب طبقاً لاستعداد التلاميذ وأهليتهم لتلقيها والإيمان بها فلا يصل إلى مراتبها العليا إلا من كان موضع الثقة والإفضاء حريصاً على السر وكان من الأولياء المخلصين، وقد أشير إلى ذلك في السجل الفاطمي الذي تقدم ذكره. وعلى معلى هذه الدعوة كذلك أن يتعرفوا الطريقة المثل التي يبدهون بها تعليمهم وهذه الطريقة لا شك تختلف باختلاف ثقافة التلاميذ ومذاهبهم، وكان أجل تلاميذهم هم الفلاسفة إذ كانوا يصلون بهم إلى مراتب هذه الدعوة العليا دون مشقة أو جهد. فعقيدة الإسماعيلية تدعو في النهاية إلى تعاليم الفلاسفة القدماء ومذاهبهم^(٢). وإليك خلاصة لهذه الدعوة كما جاءت بالمقريري :

يفتتح الداعي الدعوة الأولى أو المرتبة الأولى بسؤال المدعو إلى المذهب الفاطمي عن بعض المشكلات الدينية والشرعية وبعض المسائل الطبيعية، فإذا

(١) الخطوط ج ص ٢٢٧ وما يليها، راجع كذلك

O'Leary : A Short His. of the Fatimid Khalifate, pp. 24. — 29.

الذي علق على مراتب هذه الدعوة التسع وبين ما شتمت عليه من الدعوة لمذاهب الفلاسفة اليونانيين وما كانت ترمى إليه من نسخ عقائد الإسلام وما وردت به الكتب المقدسة وما نزل على الأنبياء جميعهم عليهم أزكى الصلاة والسلام .

(٢) راجع O'Leary : A Short His. of the Fatimid Khalifate, pp. 30-32.

كان المدعو عارفا لما بهذه المسائل أقره الداعى وإلا تركه يعمل فكره فيما ألقاه عليه من الاسئلة وقال له : يا هذا إن الدين لمكتوم وإن الأكثر له منكرون وبه جاهلون ولو علمت هذه الأمة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف . فيتشوق حينئذ المدعو إلى معرفة ما عند الداعى من العلم ، فاذا علم منه الاقبال أخذ فى ذكر معانى القراءات وشرائع الدين وتقرير أن الآفة التى نزلت بالأمة وشتمت الكلمة وأورثت الأهواء المضلة ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها ، غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة ونظروا فى الأمور بعقولهم وأتبعوا ما حسن فى رأيهم وقلدوا سفلتهم وأطاعوا ساداتهم اتباعا للبلوك وطلبيا للدنيا وغيروا فى كتاب الله وسنة نبيه وخالفوا دعوته وعملوا على فساد شريعته وخالفوا الأئمة من بعده — فسدت أحوالهم وانحدروا إلى أنواع الضلالات ، فإن دين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء بأمانى الرجال ولا شهوات الناس ولا بما عرفته دهماء العامة ولكنه علم خفى غامض ستره الله فى حجبهِ ، فهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذى لا يطيق حملة ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن أصطفاه الله . وقد جاء فى كتاب الخطط المقرينية^(١) كثير من الاسئلة التى يسألها الداعى المدعو لى يشككه ويشير فيه حب الاستطلاع وكلها تتعلق بأصل الخليفة والعالم الآخر وتركيب جسم الإنسان وتأويل القرآن وتفسير السنن والأحكام ، فإذا سأل المدعو عن الجواب استمهل الداعى حتى يجىء وقت الافضاء ثم يتلو عليه بعض

الآيات في الوفاء بالعهد وتوكيد الايمان ويطالبه بالعهد الذى يجب أن يعطيه كل مدعو عن نفسه بالوفاء والسكتان وإلا يفشى لهم سرا ولا يظاهر عليهم أحداً ولا يوالى لهم عدواً ، فإذا أعطى المدعو العهد يطالبه بعد ذلك الداعى بمبلغ من المال يكون رسماً للدخول فى الدعوة ومقابل كشف الأمور له وتعريفه إياها . فإن أمتنع المدعو أمسك عنه الداعى ووقف به عند المرتبة الأولى للدعوة وإن أجاب وأعطى الجعل المطلوب وأنس فيه الداعى قبولاً ووثق بحرصه وكتمانه نقله إلى الدعوة الثانية .

وفى هذه الدعوة أو المرتبة الثانية يقول الداعى للمدعو ان الله تعالى لم يرض فى إقامة حقه وما شرعه لعباده إلا أن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس وأقامهم لحفظ شريعته على ما أراد الله تعالى ، ويستدل الداعى على ذلك بعدة أدلة وردت بكتب الشيعة ، فإذا أيقن أن المدعو قد أقنع بنظرية الإمامة انتقل به إلى الدعوة الثالثة .

وفى هذه الدعوة الأخيرة يلحق المدعو أن الائمة سبعة وهم على بن أبى طالب والحسن بن على والحسين بن على وعلى بن الحسين الملقب زين العابدين ومحمد بن على وجعفر بن محمد الصادق والسابع هو القائم صاحب الزمان . ويعرفه أن الشيعة مختلفون فى هذا القائم فمنهم من يجعله محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ويسقط اسماعيل بن جعفر ومنهم من يعد اسماعيل بن جعفر اماماً ثم يعد ابنه محمد بن اسماعيل .

فإذا تقرر عند المدعو أن الائمة سبعة انحل عن معتقد الإمامية من

الشيعة القائلين بامامة اثني عشر^(١) اماما وسار الى معتقد الاسماعيلية بان الامامة انتقلت الى اسماعيل ثم الى ولده محمد ، وان محمد بن اسماعيل هذا عنده علم المستور وبواطن الامور وعلم التأويل ومعرفة تفسير ظاهر الامور . وان دعائهم هم الوارثون لعلمهم دون سائر طوائف الشيعة ويؤيد الداعي ذلك بكثير من ادلة الاسماعيلية .

أما الدعوة أو المرتبة الرابعة فهي بدء التحول الى المراتب العليا ولا ينتقل اليها الداعي المدعو الا اذا وثق من حسن انقياده وايمانه بما تقدم ، وفيها يلقيه مرة أخرى أن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو الذي انتهى اليه علم الاولين وقام بعلم بواطن الامور وكشفها واليه المرجع في تفسيرها دون غيره ، وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانتقياد اليه والتسليم له لان الهداية في موافقته واتباعه والضلال والخيرة في العدول عنه . فاذا تقرر ذلك عند المدعو انتقل به الداعي الى الدعوة الخامسة وفيها يقرر الداعي انه لا بد مع كل امام قائم في كل عصر حجب متفرقون في الارض .

(١) يقول الاثنا عشرية بامامة موسى السكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر اسماعيل في حياة أبيه . فأول أئمتهم أمير المؤمنين علي المرتضى ثم ابنه الحسن المجتبي ثم أخوه الحسين شهيد كربلاء ثم علي السجاد زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق ثم ابنه موسى السكاظم ثم ابنه علي الرضا ثم ابنه محمد النقي ثم ابنه علي النقي ثم ابنه الحسن الزكي المعروف بالسكري ثم ابنه محمد الحجة وهو المهدي المنتظر . فهم والاسماعيلية مشتركون في أئمتهم حتى جعفر الصادق ثم من بعد ذلك يختلفون ، فمنهم من يعتقد بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق وهم الاسماعيلية ومن يقول بامامة أخيه موسى السكاظم بن جعفر الصادق كما تقدم وهم الاثنا عشرية . (راجع الشهرستاني — الملل والنحل ج ٢ ص ٥ و ٢٧ وما يليها ، ابن خلدون — المقدمة ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ، صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٢٩) .

وفي الدعوة السادسة يتحدث الداعي في تفسير معاني شرائع الاسلام من الصلاة والزكاة والحج والطهارة وغير ذلك من الفرائض بامور مخالفة للظاهر ، وانها وضعت على سبيل الرموز لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض وتصدهم عن الفساد في الارض . فاذا اعتقد المدعو صحة ذلك وأن أحكام الشريعة وضعت على سبيل الرمز وأن لها معاني آخر غير ما يدل عليه الظاهر نقله الداعي الى الكلام في الفلسفة وحضه على النظر في كلام افلاطون وارسطو وفيثاغورس وغيرهم . ويعلمه كذلك أن منطق العقل هو المعول عليه في فهم الأمور وانه يجب أن لا يؤخذ بالاخبار والأشياء المنقولة وانما يجب الأخذ بالأدلة العقلية دون غيرها . ويحتاج المدعو لتعلم أركان هذه الدعوة السادسة وما شملته من دراسة فلسفية الى زمن طويل .

ثم ينتقل المدعو الى الدعوة السابعة والدعوة الثامنة وهما من نوع الدعوة السادسة . أما الدعوة أو المرتبة التاسعة والأخيرة فهي النتيجة التي يحاول الداعي بتقرير جميع الدعوات السابقة رسوخها في نفس المدعو . فاذا تيقن أن المدعو تأهل لكشف السر والافصاح عن الرموز احواله على ما تقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الالهي وغير ذلك من العلوم الفلسفية . حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعي قناعه وقال للمدعو إن ما ذكر من الحدوث والاصول رموز الى معاني المبادئ وتقلب الجواهر وأن الوحي انما هو صفاء النفس فيجد النبي في فهمه ما يلقي اليه وينزل عليه فيبرزه الى الناس ويعبر عنه بكلام الله الذي ينظم

به النبي شريعته بحسب ما يراه من المصلحة في سياسة الكافة . ولا يجب حينئذ العمل بها الا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهاء بخلاف العارف المستنير فانه لا يلزمه العمل بها ويكفيه معرفته ، وأن الانبياء أصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة وأن الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة الى غير ذلك من التعاليم الفلسفية والشروح الالحادية . وما لا شك فيه أن المدعو ينتهى في هذه المرتبة الأخيرة بفقد العقيدة الاسلامية والعقيدة الدينية بأسرها ويستعيض عنها بقول الفلاسفة القدماء^(١) . وظاهر أن هذا هو كل ما كانت ترمى اليه الدعوة الفاطمية .

هذه خلاصة الدعوة الفاطمية^(٢) التي كانت تلقن في مجالس الحكمة

(١) يقول أوليرى دى ليمى أن مذهب الاسماعيلية الذى يتلخص في هذه الدعوة قد أخذ شيئاً كثيراً عن مذهب الانلاطونية الحديثة واستخدم ما ناله اخوان الصفا في رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطونى (O'Leary : A Short His. of the Fatimid Khaifate, pp. 139, 140, 257, 258).

(٢) لم تكن هذه الدعوة جديدة في الواقع ولم يتبدعها الفاطميون ولكنها اشتقت من الدعوة الباطنية التي نظمت في أواخر القرن الثانى للهجرة في جنوب فارس وأسفرت عن ثورة القرامطة في البحرين ثم غزت افريقية بعد ذلك وأسفرت عن قيام الدولة الفاطمية في أواخر القرن الثالث للهجرة .

وقد نشأت الدعوة الباطنية على يد جماعة من الثوريين الملاحدة بزعامة أبى شاذى بن ديسان البونى المعروف بالقداح . وكان فارسياً مجوسياً من سبى الاهواز تظاهر بالاسلام والتشيع والدعوة لآل البيت ثم وضع هو واصحابه دعوتهم الباطنية التي انتشرت في البلاد الاسلامية على يد دعائه وكانوا جميعهم يتظاهرون بالتشيع ويعملون في الحفاء على بث مبادئهم الالحادية وهدم العقيدة الاسلامية .

وقد وصف عبد القاهر البغدادى (الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ وما يليها) الباطنية بقوله لهم دهرية زنادقة يقولون بقديم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها ويعتمدون على الفلاسفة

بالقصور الزاهرة وبديهي أن مراتبها العليا التي تدعو إلى الفلسفة الالحادية كانت سرية لا يطلع عليها أو يأخذ بها إلا الخاصة المقربون المستنيرون الذين يستطيعون تفهم المذاهب اليونانية القديمة . (أما عامة الشعب فكانوا يلقنون الدعوة في مراتبها الأولية التي تقف عند الاعتقاد بالامامة والاخلاص للأئمة وبالدعوة للاسماعيلية دون الاثنا عشرية ، فلم يكن المدعو في هذه الحال يتجاوز المرتبة الثالثة . ولا شك ان هذه الدعوة قد صيغت بمنتهى الزكاء والمهارة ونظمت مراتبها بدقة مذهشة ساعدت الخلافة الفاطمية على حشد كثير من المصريين تحت لوائها واستطاعت عن طريق الدين وعن طريق الفلسفة أن

== في نشر مذهبهم وقد جعلوا دعوتهم إلى بدعتهم على مراتب تسع سموها : التنفيس والتأنيس والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتأسيس والمواثيق بالايمان والعمود وآخرها الخلع والسليخ . وهي لا تختلف في قليل أو كثير عن الدعوات التسع التي اخصناها عن كتاب الخطط للمقرئ

أما صاحب كتاب القهرست فقد ذكر (ص ١٨٦ وما يليها) أن الدعوة الاسماعيلية كانت على سبع درجات من الاتباع ولكل طبقة كتاب يتضمن ما تعرفه — يسمى بالبلاغ . وهي كتاب البلاغ الأول للامامة وكتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلا وكتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة وكتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنين وكتاب البلاغ الخامس لمن دخل في المذهب ثلاث سنين وكتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب أربع سنين وكتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر . وقد قرأه ابن النديم فرأى فيه أمرا عظيما من اباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها .

وقد عرفت دعوة ابن ميمون هذه بالدعوة الباطنية نسبة إلى قول دعائها بالامام الباطن أو المستور أو لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا . وربما عرفوا بذلك أيضا لأنهم كانوا يكتمون مبادئهم ويلقونها سرا . أما اطلاق الدعوة الاسماعيلية عليها فلقول دعائها بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق كما مر بنا (راجع كذلك الشهرستاني — المال والنحل ج ٢ ص ٢٩ ابن خلدون — المقدمة ص ٢٢٣ ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٩ و٢٣٣ وما يليها .)

تؤثر في عقول عامة الشعب وخاصتهم (وهذه الدعوة في جميع مراتبها تتم عن أن أصحابها والقائمين بأمر تعليمها من الدعاة كانوا يعتمدون في صوغها وتعليمها أو تلقينها على دراسة كثير من العلوم النقلية والعقلية ، وهم بالقائها على تلاميذهم كانوا يوقفونهم على هذه العلوم ويزيدون في تعليمهم وثقافتهم . وكان ذلك يتم بطريقة تربوية منظمة يتدرجون فيها من السهل إلى الصعب ومن الواضح إلى الغامض .)

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد للدعاة مكانا كبيرا في القصر . ويقول متر^(١) في هذا الصدد أن دولة الفاطميين أوجدت هيئة شبيهة بالكهنوت تعترف بهم رسميا وتعطيهم أرزاقا وهو ما لم يحدث قط في الاسلام . وقد أورد لنا المقرئ في كتابه اتعاظ الحنفا^(٢) نص الكتاب الذي بعث به المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم زعيم القرامطة حين أغار على مصر قبيل رحيل المعز إليها . وفيه ما يدل دلالة واضحة على مقدار اهتمام الفاطميين بأمر الدعوة والدعاة فقد جاء به يلي^(٣) : « فما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا يأخذون بيعتنا ويزكرون رجعتنا وينشرون علمنا وينذرون بأسنا ويدشرون بأيامنا بتصاريف اللغات واختلاف اللسان . وفي كل جزيرة وأقليم رجال منهم يفقهون وعندهم يأخذون وهو قول الله عز وجل : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . » وقد لاقت الدعوة الفاطمية نجاحا عظيما في عهد الحاكم بأمر الله^(٤) وانشئت

(١) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣ . (٢) ص ١٣٣ — ١٤٣ .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ١٣٩ وما يليها .

(٤) الخطط ج ٤ ص ١٥٨

في عهده كذلك دار العلم لتقوم الى جانب القصر ببث الدعوة الفاطمية بطريقة علمية تمتاز فيها الفلسفة بالدين وتكون أجل أثرا في غزو الازدهان والتأثير عليها من مجالس الحكمة في القصر ، اذ أن الفرق كبير بين الذين يقبلون على المجالس بالقصر والذين يقبلون على هذه الجامعة ، فهؤلاء الآخرون لاشك أكثر ثقافة وعلمًا وأقدر على استيعاب النظريات الفلسفية التي هي أساس هذه الدعوة المذهبية وعماد مراتبها العالية . وكان يشرف داعي الدعاة على سير الدراسة بدار العلم ويعين لها الدعاة والاساتذة .

وكان عهد الحاكم بالاضافة الى ذلك مليئا بطائفة من الدعاة يدعون في جراءة الى ألوهيته ، فمنهم داع عجمي يسمى محمد بن اسماعيل ويلقب بالدرزي^(١) وهو من الباطنية القائلين بالتناسخ ، ظهر في سنة ٤٠٨ هـ واتصل بخدمة الحاكم فاحسن اليه وأنعم عليه ، وكان من أمر هذا الداعي أن دعا الناس إلى أن يعتقدوا أن الحاكم هو الله صانع العوالم ومبدع الخلاق وأعلن دعوته وكشف عن مذهبه فلم ينكر الحاكم عليه قوله^(٢) . وصنف له كتابا ذكر فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى علي بن أبي طالب وأن روح علي انتقلت إلى أبي الحاكم ثم انتقلت إلى الحاكم ، وبين فيه أصول مذهبه وشرح دعوته . وقرئ هذا الكتاب بجامع القاهرة فثار الناس عليه وقصدوا

(١) راجع الانطاكي — تاريخه ج ٢ ص ٢٢٠ وما يليها ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ ،

O'Leary : A Short His. of the Fatimid Khalifate, pp. 176, 177

(٢) ذكر الانطاكي (تاريخه ج ٢ ص ٢٢٠ و ٢٢١) في هذا المقام أن آباء الحاكم بأمر

الله دعوا إلى مذهب لا يختلف عن هذا الذي يدعو إليه الدرزي وهو أنهم آلهة حلوا في الأرض في أشباح بشرية ولم يزالوا يكتُمون مذهبهم هذا عن من يخالفهم إلى أن كان زمان الحاكم بأمر الله فعول على إظهار مذهبهم وإشهار ما كان آباؤهم يسترونه ويخفونه .

قتله فهرب منهم وأنكر الحاكم أمره خوفاً من الرعية وبعث إليه في السر مالا وأمره بالخروج إلى الشام ونشر الدعوة في الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد. فخرج الدرزي إلى الشام ونزل بوادي تيم الله بن ثعلب غربي دمشق من أعمال بانياس ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله وأذاع في الناس دعوته فكانت أصل مذهب الدروز الشهير الذي سمي باسمه (١).

وكان من أعظم دعاة الحاكم بأمر الله وأشهرهم داع آخر عجمي هو حمزة ابن علي الزوزني (٢) وهو من مقاطعة زوزن ببلاد فارس ويلقب بالهادي، وقد ظهر في القاهرة في سنة ٤٠٨ هـ (٣) ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله وشرح دعواه في عدة كتب ورسائل. والظاهر أن حمزة هذا كان يقوم ببث دعوته سرا قبل سنة ٤٠٨ هـ وكان على اتصال وثيق بالحاكم بأمر الله يتلقى وحيه ويستظل برعايته. وكان يلزم الجلوس بمسجد تبر بظاهر القاهرة يدعوفيه إلى عبادة الحاكم وينادي بالتناسخ في الأديان والشرائع وبالحلول. وقد اجتمع إليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الإسماعيلية وانتشرت دعائه ورساله في بلاد كثيرة. ويغلب على الظن أن محمد بن اسماعيل الدرزي كان من تلاميذ حمزة (٤) بن علي هذا الذي يعد المؤسس الحقيقي لدعوى ألوهية الحاكم بأمر الله.

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٤٨ و ٢٤٩

(٢) راجع الانطاكي — تاريخه ج ٢ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ، O'Leary: A Short His. of the Fatimid Khalifate, pp. 178, 179.

(٣) يعتقد الدروز أن حمزة بن علي هو مؤسس مذهبهم ويرجعون تاريخهم إلى مبدأ ظهوره في سنة ٤٠٨ هـ . راجع O'Leary: A Short His of the Fatimid Khalifate. p. 178.

(٤) عنان — الحاكم بأمر الله ص ١١٤ ، راجع O'Leary: A Short His of the Fatimid Khalifate, p. 178.

وقد حدث في أواخر أيام الحاكم بأمر الله أن ركب جمع من أصحاب حمزة بن علي إلى الجامع العتيق وتقدموا برقعة إلى قاضي القضاة أحمد بن محمد ابن عبد الله بن أبي العوام وأمروه بالاعتراف بالوهية الحاكم وإذاعة ذلك في الكافة فثار الناس ووثبوا على دعاة حمزة بن علي وقتلوه . ولما بلغ ذلك الحاكم شق عليه وانسكر على قاضي القضاة ما جرى (١) .

أما مصير حمزة بن علي فيقول يحيى بن سعيد الانطاكي (٢) أنه فر بعد فقد الحاكم ثم قتل بعد ذلك وقبض على جماعة من الدعاة إلى مذهبه واستتيب من رجع منهم عن مذهبه وقتل من أبي الاقلاع عنه وصلب وهلك منهم خلق كثير لاصرارهم على الثبات على كفرهم . وهكذا انهارت دعوة هؤلاء الاحاديين بمصر بانتهاء عهد الحاكم بأمر الله الذي كان يحميمهم . وقد خلف هؤلاء الدعاة مجموعة كبيرة من الرسائل معظمها من انشاء حمزة بن علي ، وهي تحتوي على كثير من أصول الدعوة الحاكمية ووسائل بثها وتعليمها وتشير إلى بعض احداث العصر . وتحفظ دار الكتب المصرية بطائفة من هذه الوثائق الخطية التي تلقى ضوءا ساطعا على بعض النواحي الغامضة في عصر الحاكم بأمر الله .

(١) راجع الانطاكي — تاريخه ج ٢ ص ٢٢٤ ؛ ابن حجر — رفع الاصر ص ٦١٢ وقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ١٨٣) ان الذي ركب إلى الجامع العتيق هو الآخر أحد دعاة الحاكم بأمر الله في خمسين رجلا من أصحابه ، وذكر أن الآخر هذا دخل الجامع راكبا دابته ومعه أصحابه على دوابهم وقاضى القضاة ابن أبي العوام جالس ينظر في الحكم وسلموا للقاضي رقعة فيها فتوى وقد صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم . فلما قرأها رفع صوته منكرًا واسترجع وثار الناس بالآخرم وقتلوا أصحابه وهرب هو .

(٢) تاريخه ج ٢ ص ٢٣٧ .

ويحذر بنا أن نشير في هذا المقام قبل أن نختم هذا الباب الى أن الدعوة الفاطمية على الرغم مما كانت تذهب اليه من الانكار والاحاد لم تذهب الى ما ذهبت اليه في عهد الحاكم من الاغراق والتهجم على قداسة اللوهمية . بل هناك ما يدل على أن الدعوة الفاطمية كانت تنكر هذه الدعوة الحاكمة الجديدة وكان أصحاب حمزة بن علي اذا لقوا أصحاب داعي الدعاة ختمكين لعن بعضهم بعضا ورمى كل فريق صاحبه بالمروق والكفر^(١) . هذا فضلا عن أن أولئك الدعاة الذين اصطفاهم الحاكم لبث دعوته لم يكونوا من المصريين بل كانوا في الغالب من أبناء الشعب الفارسي الذي يضطرم بغضا للاسلام والعرب والذي وقف جهوده مدى قرون لمناوأة الاسلام وتقويض أسسه وسلطانه السياسي^(٢) . وقد قاوم الشعب المصري هؤلاء الدعاة وفنك بمعظمهم واضطروهم الى الفرار ولم يستطع واحد منهم أن يكون له بمصر حزب من الانصار كما حدث في بلاد الشام حيث نشأت طائفة الدروز التي لا تزال قائمة الى اليوم^(٣) .

وقد جاهرت الخلافة الفاطمية ذاتها بعد وفاة الحاكم بأمر الله بزمان قليل ببغضها لهذه السياسة الحاكمة وأوضحت موقفها من الدعوة والدعاة في عهد الحاكم في سجل رسمي^(٤) صدر في عهد الظاهر لاعزاز دين الله

(١) يحيى بن سعيد الانطاكي — تاريخه ج ٢ ص ٢٢٤

(٢) ابن خزم — الفصل في الملل والاهواء والنحل ج ٢ ص ١١٥ وما يليها

(٣) راجع O'Leary: A Short His of the Fatimid Khalifate, pp. 259, 260.

(٤) راجع تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي — ج ٢ ص ٢٣٦ ، النجوم الزاهرة

الفاطمي ، ومن ثم رجعت الى سياستها المذهبية القديمة وعادت الى تحفظها القديم .

ومهما يكن من شيء فان الدعوة الفاطمية على الرغم مما اتصفت به من كفر والحاد فانها ساعدت في مراحلها الاولى ومراتبها البدائية على تثقيف عدد كبير من أفراد الشعب المصرى لما تطلبته منهم من دراسة علوم الفقه واللغة والفلسفة ، وكانت بذلك من أسباب نشر العلم والتعليم في العصر الفاطمي .

خاتمة

خاتمة

قامت الدولة الفاطمية بمصر والحركة الفكرية تجوزطوراً من أطلوار قوتها ، فقد كانت الدولة الإخشيدية التي استخلص الفاطميون منها تراث مصر نصيرة للعلوم والآداب ونبغ في ظلها عدد وافر من العلماء والفقهاء كابن يونس وأبي بكر الحداد وأبي عمر السكندی وأبي جعفر النحاس والحسن بن زولاق . ولقد ازدهرت هذه الحركة الفكرية في عهد الدولة الفاطمية بقيام الجامعة الأزهرية وتأسيس دار العلم وتشجيع الطلاب والعلماء وإجراء الأرزاق عليهم وعقد مجالس المناظرة بينهم والانفاق على معاهد التعليم المختلفة وتزويدها بما تحتاج إليه من كتب وأدوات . فنبغ في العصر الفاطمي الأول عدد كبير من العلماء أمثال بني النعمان والمسيحي وابن الهيثم والقضاعي والحوافي وابن بابشاذ وغيرهم . ووفد على مصر كثير من الشعراء كابن حامد ابن محمد الانطاكي وأبي الحسن علي بن عبد الواحد المعروف بصريع الدلاء وغيرهما .

ولقد كان لسياسة الدعوة للمذهب الفاطمي أكبر الأثر في حياة الفاطميين فقد أكثروا من بناء المساجد التي كانت دوراً ممتازة للتعليم ووقفوا الاوقاف عليها وأنشأوا مكتبة عظيمة نافست مكاتب بغداد وقرطبة ، وشجعوا العلماء والشعراء والأدباء بالهبات الوافرة والخلع والاعطيات كي يشيدوا بذكرهم ويدعوا إلى مذهبهم . واستطاعت هذه الدولة الفتية بفضل دعائها تارة

وبقوة السيف وبذل المال ، تارة أخرى أن تحقق كثيرا من أغراضها كنشر مذهبها الديني وبث عقائد الاسماعيلية وحشد عدد كبير من المصريين تحت لوائها وبسط سلطانها على كثير من البلدان^(١) . وأمكنها إلى جانب ذلك أن تنهض بالتعليم والعلم والآدب وتتفوق في هذه الناحية على كثير من من الدول المصرية السابقة واللاحقة . (وكان للمرآة في ذلك العهد نصيب كبير من العلم ، فقد كانت تعقد للنساء^(٢) مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر وبالجامع الأزهر لكي يلقن الدعوة الفاطمية ، ولا يخفى ما كان يتبع ذلك من تثقيفهن وتعليمهن كثيرا من العلوم الدينية واللغوية) . أما أهل الذمة فكان جل تعليمهم في السكناس والأديرة .

(على أن الروح المذهبية والتعصب للمذهب الفاطمي كانا في كثير من الأحيان عقبة كأداء في سبيل حرية التعليم والتعلم وسببا في اضطهاد كثير من العلماء أو قتلهم لمجرد عدم الاذعان لمبادئ الدولة وتعاليمها وميولها . فكان الدافع للتعليم في الحقيقة سياسيا مذهبيا وكان لهذا أثره في تضيق نطاقه ، وكان للتدخل المذهبي من جانب الدولة في التعليم تأثيره في توجيه العلماء وفي العقائد الدينية .)

كان للدين في ذلك العصر سيطرة عظيمة على التعليم قد تقلل من قوة

(١) نجح الفاطميون على توالى الأزمان ، في بسط نفوذهم على شمال افريقية وصقلية والشام وآسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأحمر واعترف بنفوذها أئمة اليمن وأمرأ الموصل وبلاد ما وراء النهر ومكة المكرمة والمدينة المنورة بل وبغداد حاضرة العباسيين أنفسهم .

(راجع الفاطميون ص ٣١٥)

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

التجديد والابتكار أو البحث والتنقيب . كما كان للعلوم العقلية الغلبة على العلوم العقلية في أغلب دور التعليم ، الا أنه على الرغم من ذلك كان الدين عاملا مساعدا على القراءة والدرس والتجمل بالصفات الحميدة . وكانت التربية في الديار المصرية في عهد الفاطميين ديمقراطية ودور التعليم مفتوحة الأبواب للغنى والفقير معا ، وكانت الدولة تتعهد المعلم والطالب بعنايتها واعداد المأكل والمشرب والمسكن لهما . وأن عناية الدولة المصرية الآن بطلاب الأزهر واسكان الغرباء منهم في الاروقة الملحقة به ومجانبة التعليم به استمرار لما كان في العهد الفاطمي الذي يرجع اليه الفضل في تأسيس هذه الجامعة الازهرية التي وفدت اليها الجماهير الغفيرة من كل مكان . واستطاعت هذه الجامعة أن تحفظ للدين الاسلامي كيانه وأن تكون موقفا للثقافة الدينية وعنصرا هاما من عناصر الحركة الفكرية على مر السنين والأعوام .

ولقد أصيبت الحياة العسكرية في مصر بكثير من الاضطراب والضعف في عهد المستنصر بالله الفاطمي ونكبت مصر بالشدة العظمى^(١) وعانت عسف القحط والوباء أعواما طويلة (٤٤٦ - ٤٦٤ هـ) وشغل المجتمع المصري حينما بما توالى عليه من الارزاء والمحن ، وشغل رجال الدولة بالتنازع على السلطان وفسدت الأمور واتصلت الفتن بين طوائف العساكر العبيد والأتراك ، ويئس من الرخاء والصلاح وبيع الرغيف غاليا واكل الناس الخيل والحمر والكلاب والقطط حتى أتوا على آخرها ثم انقلبوا يأكل بعضهم بعضا وصار

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣ . الخطط ج ٢ ص ١٣٧ - ١٤١ ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٦ و ١٨٤ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٣ و ١٥٤ ، راجع Lane. Poole : A Short His. of Egypt in the Middle Ages, pp. 145-150

لحم الأدمى يباع في الاسواق . وفنيت ثروة المستنصر ونهب الجند من الأتراك قصره ونفائسه حتى لم يبق له غير سجاده التي يجلس عليها^(١) . وكان لذلك أسوأ الأثر في التعليم فقد عجزت الدولة عن الانفاق على معاهد العلم لنضوب مواردها وبددت خزائن السكتب النفيسة المنقطعة النظير^(٢) . وقل تحصيل طلاب الجامعتين الأزهرية ودار العلم وانصرف الناس عن طلب العلم إلى طلب القوت . وظل الأمر على هذه الحال إلى أن قبض الله لمصر أمير الجيوش بديع الجمال والى عكاه فقدمها سنة ٤٦٦هـ^(٣) واستطاع هو وولده من بعده أن يعيدا النظام والرخاء إلى البلاد واستعادت الحياة العلمية والفكرية نشاطها في مصر تبعا لذلك . وبدأ الانفاق على دور التعليم واستطاع الطلاب استئناف نشاطهم الدراسي .

وبعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧هـ لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة وأصبح الحكم في مصر بيد وزراء متنازعين^(٤) يريد كل منهم أن يصرف الأمور كما يهوى لا يتقيد برغبة الخليفة في شيء، وكان الوزير هو سلطان^(٥) مصر وصاحب الحل والعقد ، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والسكتب وهو الذي يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية . وأهملت طريقة الوراثة في الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٩٨ ، أبو الفدا ج ٢ ص ٢٠٥ ، الخطط ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ ، راجع Lane Poole: A Short His. of Egypt in

the Middle Ages, p. 149.

(٣) راجع ابن منجب الصيرفي — الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٥ و ٥٦ ، الخطط

ج ١ ص ٦ ، ج ٢ ص ١٧١ و ٢١١ — ٢١٣

(٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٧

(٥) الخطط ج ٢ ص ٣٠٥

الفاطمين أصغرهم سنا أو أضعفهم إرادة ليقيمه على عرش الخلافة كلها خلا ، وقد ظهر ذلك واضحا في عهد الوزير الأفضل ^(١) بن أمير الجيوش بدر الجمالي الذي كان يتمتع بالسلطة المطلقة والذي كانت في قبضة يده موارد الدولة الفاطمية الواسعة ، أما داره فقد غدت المحور الذي تدور عليه الأعمال الحكومية ^(٢) .

تبينا مما تقدم أن الخلفاء الفاطمين قد عنوا عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية ونشر دعوتهم المذهبية وتلقين تعاليم الإسماعيلية ، لما في ذلك من النتائج السياسية الباهرة والتأثير في عقول أفراد الشعب وضمان إخلاصهم للخليفة الذي كان هو الامام الأكبر ، والعمل على حفظ كيان الدولة الفاطمية وبسط سلطانها في سائر أنحاء البلاد . وظل الحال على هذا المنوال طوال أيام الفاطمين الزاهرة حين كان يتمتع الخلفاء بالقوة والسلطان ، فلما انتقل الحكم إلى الوزراء كان لهذا أثر كبير في ضعف الدعوة للمذهب الإسماعيلي ، فقد كان من بين الوزراء من لا يميل إلى المذهب الشيعي ، مذهب الفاطمين ، فقلت أهميته ولم تعد التقاليد الدينية الفاطمية مرعية في جميع الظروف والأحوال . وليس أدل على ذلك مما حدث في زمن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، أو ما حدث في عهد ابنه أبي علي أحمد الملقب بالأكمل . فقد اعتنق الأفضل مذهب الإمامة الإثنا عشر وكان يميل ميل السنيين ، فألغى الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد فاطمة وعلى رضى الله عنهما ومولد

(١) تولى الأفضل بن بدر الجمالي الوزارة بعد أبيه . وكان ذلك في عهد المستنصر وطل الأمر بيده إلى عهد الأمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) الذي تم له قتله (راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢١ و ٢٢٢) .

(٢) النظم الإسلامية ص ١٧٣ — ١٧٥ .

الخليفة القائم بالأمر^(١). أما ابنه وكان وزيراً للحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) فقد منع ذكر اسم الخليفة في الخطبة وقضى على كثير من تقاليد المذهب الإسماعيلي وعين في سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة، اثنين من الشيعة واثنين من السنين، وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إمامياً والآخر إسماعيلياً، أما السنين فكان أحدهما شافعيًا والآخر مالكيًا، وأعطى لكل السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه^(٢). وقد أثارت هذه السياسة التي لا تمت بصلة إلى مبادئ الإسماعيلية والتي تعمل على تقويض دعائم حكم الفاطميين الذين يعنون بتأييد دعوتهم وأنهم من سلالة علي - غضب الشيعيين وحنقهم فدبروا مؤامرة للتخلص من الأفضل ثم من ابنه الذي قتل سنة ٥٢٦ هـ^(٣).

كان لهذا الضعف الذي سرى إلى كيان الدولة الفاطمية وانتقال السلطة من أيدي الخلفاء الفاطميين إلى الوزراء وعدم العناية بأقامة التقاليد الإسماعيلية أو إبطالها أثر كبير في التعليم، فقد اضطربت شئونونه وفترة نشاطه وأصبح يميل إلى المذهب السني وإلى علوم السنية، وكان نصيب دار العلم لاتصالها اتصالاً وثيقاً بالمذهب الشيعي والدعوة الفاطمية الاغلاق على يد الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجالي في زمن الأمر بأحكام الله كما تقدم، وقد خشي الوزير من ابقائها نصرة المذهب النزاري، ولما أعيدت بعد مقتله على يد الوزير المأمون البطائحي سنة ٥١٧ هـ كانت أعادتها على نمط جديد روعى فيه تخفيف صبغتها

(١) الفاطميون ص ٢٧٩

(٢) المخطط ج ٤ ص ٤٦ و ١٦٠، الفاطميون ص ٢٣٠ - ٢٣١، النظم الإسلامية

ص ١٢٤ و ٣٤٩

(٣) المخطط ج ٤ ص ١٦٠.

المذهبية والعناية بدراسة علوم القرآن الكريم (١).

لم يقف الأمر عند هذا الحد بل زاد وهن الدولة الفاطمية وضعفها وكثرت المؤامرات السرية بالبلاد وارتفع الى كرسى الوزارة من لا يدين بالمذهب الاسماعيلي بل يعمل على هدمه والقضاء عليه ، فكان الوزير ابن السلار (٢) الذى تلقب بالملك العادل سيف الدين والذى وزر للخليفة الظافر الفاطمي (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) سنيا مغاليا . وكان اعتلاؤه الوزارة مؤذنا بزوال سلطة الفاطميين الدينية ثم سلطتهم السياسية بعد ذلك ومهدا لسقوط دولتهم فى النهاية وانتقال العرش الى ايدى الايوبيين السنيين الغلاة .

(ولقد تأثر التعليم فى مصر بازدياد سلطة السنيين (٣) واستطاع ابن السلار الوزير المتقدم الذكر أن يؤسس مدرسة للشافعية بالاسكندرية سنة ٥٤٦ هـ ، وكانت هذه المدرسة على نمط جديد وتشبه فى كثير من الوجوه مدارس نظام الملك التى أسست للقضاء على المذهب الشيعى وللدعوة للمذهب السنى . وأسند ابن السلار عمادة هذه المدرسة الى الحافظ السلفى الفقيه الشافعى ، وكان منهجها دينيا لا يمت باية صلة الى العلوم الطبيعية (٤) . ولقد مهدت هذه

(١) الغلط ح ٢ ص ٣٣٥ — ٣٣٧

(٢) لما اعتلى الظافر العرش بدأ حكمه بطرد الوزير ابن السلار وجعل فى الوزارة نجم الدين بن مصال . فدارت بين الاثنين منافسة على تولى الوزارة الى أن قتل ابن مصال وأعترف الخليفة لابن السلار بالوزارة . رغمًا . وكان هذا النزاع الذى دار بين ابن السلار وابن مصال المغربى الاصل هو فى الواقع نزاعا بين السنيين والشيعيين . وكان ابن السلار ، ذلك الرجل السنى المتعصب يطعم فى نشر مذهب أهل السنة فى مصر بدل المذهب الشيعى .

(راجع الفاطميون ص ٢٩٣ - ٢٩٦ .)

(٣) راجع O'Leary : A Short His. of the Fatimid Khalifate, p. 228.

(٤) وفيات الاعيان ج ١ ص ٣١ و ٣٧٠ ومايلها ، صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٨ ومايلها .

المدرسة السنية لظهور المدارس في مصر على يد صلاح الدين بن أيوب الذي أبطل مذهب الشيعة وأحيا المذهبين المالكي والشافعي وكانت مدارسه تعمل على تعليمهما ونشرهما^(١).

وقد شجع المصريون هذا التغيير وأقبلوا على دراسته مذهب مالك ومذهب الشافعي لأن هذين المذهبين كانا قد حلا من قلب الجمهور محلا كريما وكان علماؤهما لا تزال لهم رغبة الجهود الفاطمية العنيفة حلقات تدريس في الجامع العتيق ، وساعد على ذلك ضعف سلطان الفاطميين ولأن كثيرا من المصريين كانوا يسمون مذهب الاسماعيلية بميسم الكفر والاحاد ، وكانوا ينفرون منه لسرية الدعوة وما كان يحيط بها من غموض^(٢) . فاستعاد بذلك المذهب السني مكانته ، وعندما ولي صلاح الدين بن أيوب وزارة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين استطاع أن يزيل كل مظاهر الدولة الفاطمية والتقاليد الاسماعيلية ويصرف القضاة الشيعيين ويولي غيرهم ممن يدين بالمذهب السني دون اية معارضة أو مقاومة من الشعب المصري^(٣).

كان من جراء استئثار الوزراء بمناصب الخلفاء أن أخذت هذه الدولة الفاطمية في الانحلال وأخذ نجمها في الافول ولكن السبب المباشر لسقوطها إنما يرجع في الحقيقة الى الحروب الصليبية^(٤) ، فهي التي عجلت زوال هذه الدولة العظيمة التي سيطرت ردحا من الزمن على جميع الولايات الغربية

(١) الخطط ج ٢ ص ١٧٥ ، ج ٤ ص ١٩٢ و ١٩٣ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٠ ،

راجع Lane- Poole : A Short His. of Egypt in the Middle Ages, p. 204.

(٢) الخضرى — التشريع الاسلامى ص ٣٥٣ و ٣٥٤ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ١٧٥ ، ج ٤ ص ١٦١ ، الخضرى — التشريع الإسلامى

ص ٣٥٤ .

(٤) راجع أسباب سقوط الفاطميين بكتاب « الفاطميون في مصر » ص ١٩٠ وما يليها .

للدولة العباسية الشاسعة الأرجاء . واستطاع صلاح الدين بن أيوب أن يدعو للخليفة المستنصر العباسي في المحرم سنة ٥٦٧ هـ^(١)، فتم زوال الخلافة الفاطمية التي تأسست سنة ٣٥٨ هـ بعد أن تركت في العالم الاسلامي أثرا عظيما من بهاء الملك وبسط السلطان واستبحار العمران وخدمة العلم، واستطال أهل السنة على الشيعة بمصر وكان أشد الناس فجيعة فيهم عمارة اليمنى^(٢) الشاعر العظيم . فرثاهم وأبكى الناس من أجلهم وبلغ من حبه للفاطميين أنه ائتمر مع نفر من دعائهم وأرادوا العودة بدولتهم الاسماعيلية فكان نصيبهم الصلب والقتل .

(هكذا كانت نهاية الدولة الفاطمية التي كانت من أعظم دول الإسلام ملكا وأرقاها حضارة وأدبا، وقد صبغت البلاد المصرية بصبغة لا تزال باقية إلى اليوم نراها من المواسم والاعياد والحفلات الدينية، هذا فضلا عما اشتهرت به من نظمها الإدارية المحكمة وجيوشها وأساطيلها، وتشجيعها العلم والعلماء والتعليم والتشقيف، ومعاملتها أهل الذمة معاملة تنطوي على العطف والرعاية . ولا شك أن إقامة الدعوة للخليفة العباسي بمصر بعد مضي قرنين وثمانين سنوات تقريبا هو انتصار السنة على الشيعة والقضاء على تعاليمهم .

(١) الفاطميون ص ٣١١ و ٣١٢

(٢) لم يكن عمارة على معتقد الشيعة بل فقيها شافعيًا قدم مصر سنة ٥٥٠ هـ في خلافة الفائز بالله الفاطمي (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) فأحسن الفاطميون إليه وبالفوا في بره فأقام عندهم وتألف بهم وأتى فيهم من المدح بما بهر العقول . ولم يزل مواليا لهم حتى زالت دولتهم فرثاهم بقصيدة طويلة كانت آخر أسباب حنقه . فصلب فيمن صلب بين القصرين من اتباع الدولة الفاطمية . وله عدة مؤلفات تاريخية منها تاريخ البين وكتاب النكت المصرية في أخبار الوزارة المصرية وله أيضا ديوان شعر فائق . (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٣٠ وما يليها) .

مصادر الكتاب

نورد في التبت الآتي أهم المصادر التي رجعنا إليها وقد رتبت أسماء المؤلفين في جميعها حسب أحرف الهجاء .

* * *

ابراهيم جلال :

١ - « المعز الفاطمي ، (القاهرة ١٩٤٤ م) .

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) علي بن أحمد بن أبي الكرم .

٢ - « الكامل في التاريخ » ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٠١ هـ) .

أحمد أمين :

٣ - « فجر الاسلام ، (القاهرة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م) .

٤ - « ضحى الاسلام ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٣٤ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ م)

أحمد عزت عبد الكريم : الدكتور

٥ - « تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، (القاهرة ١٩٣٨ م)

أحمد عيسى : الدكتور

٦ - « تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، (دمشق ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م) .

أحمد فريد رفاعي : الدكتور

٧ - « عصر المأمون ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م)

ابن أبي أصيبعة : (+ ٦٦٨ هـ = ١٢٧٠ م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن

خليفة موفق الدين .

٨ - « عيون الانباء في طبقات الأطباء ، جزءان (القاهرة ١٢٩٩ هـ = ١٨٨٢ م)

أوليري : دي ليسي O'Leary : De Lacy

“A Short History of the Fatimid Khatifate.” — ٩

(London, 1923.)

ابن بطوطة : (+ ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) — أبو عبد الله محمد بن عبد الله .

١٠ — « الرحلة ، جزءان » (القاهرة ١٩٢٨ م)

البغدادى : (+ ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أبو المنصور عبد القاهر بن طاهر

١١ — « الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م)

الجاحظ : (+ ٢٥٥ هـ = ٨٦٩) أبو عثمان عمرو بن بحر .

١٢ — « البيان والتبيين » (القاهرة ١٣١١ هـ)

ابن جبير : (+ ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد البكسنانى

١٣ — « رحلة ابن جبير » .

ed. by W. Wright. (Leiden, 1852.)

جرجى زيدان :

١٤ — « تاريخ المدن الاسلامى ، ٥ أجزاء » (القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٢٦ و ١٩٣١)

و ١٩٢٧ و ١٩٣١ م) .

جريفز : ف . ب . Graves : F. P.

“A History of Education during the Middle Ages. — ١٥

(New York, 1914.)

جولد تسير : اجناتس Goldziher : Ignaz.

“Muslim Education” — ١٦

s. vol. 5, Encyclopaedia of Religion and Ethics,

ed. by James Hastings.

حاجى خليفة : (+ ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) مصطفى بن عبد الله ملا كاتب چلبى .

١٧ — « كشف الظنون عن أسامى السكتب والفنون » (القاهرة ١٢٧٤ هـ)

حسن ابراهيم حسن : الدكتور

- ١٨ - « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص ،
(القاهرة ١٩٣٢ م) .
- ١٩ - « تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي » ٣ أجزاء
(القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٤٥ و ١٩٤٧ م) .
- حسن ابراهيم حسن : الدكتور بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن : الدكتور
٢٠ - « النظم الاسلامية » (القاهرة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م) .
- ابن حزم : (+ ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) أبو محمد علي بن أحمد .
- ٢١ - « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)
الخضري : محمد
- ٢٢ - « تاريخ التشريع الاسلامي » (القاهرة ١٣٣٩ هـ = ١٩٢٠ م) .
- ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد
- ٢٣ - « مقدمة ابن خلدون » (القاهرة ١٣٢٧ هـ)
- ابن خلكان : (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم
ابن أبي بكر الشافعي .
- ٢٤ - « وفيات الأعيان ، جزءان » (القاهرة ١٣١٠ هـ)
- ابن دقان : (+ ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) ابراهيم بن محمد المصري
- ٢٥ - « الانتصار لواسطة عقد الامصار ، الجزءان الرابع والخامس » (القاهرة
١٣٠٩ هـ = ١٨٩٣ م) .
- الراغب الاصفهاني : (+ ٥٠٢ هـ)
- ٢٦ - « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » (القاهرة ١٩٠٢ م)
- الزرنوجي : (+ ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م) برهان الدين .
- ٢٧ - « تعليم المتعلم طريق التعلم » (الاستانة ١٢٩٢ هـ) .
- زكي حسن : الدكتور

- ٢٨ — د كنوز الفاطميين ، (القاهرة ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م) .
- ٢٩ — « الفن الاسلامى فى مصر من الفتح العربى الى نهاية العصر الطولونى ،
(القاهرة ١٩٣٥ م)
- زكى حسن : الدكتور بالاشتراك مع آخرين .
- ٣٠ — « فى مصر الاسلامية » (القاهرة ١٩٣٧ م) .
- ابن سعيد : (+ ٦٧٣ هـ = ١٢٧٥ م) على بن موسى المغربى .
- ٣١ — « المغرب فى حلى المغرب » (ليدن ١٨٩٨ م)
- سليمان رصد : الحنفى الزياتى .
- ٣٢ — كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ، (القاهرة ١٣٢٠ هـ)
- السيوطى : (+ ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين .
- ٣٣ — « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » (القاهرة ١٣٢٦ هـ)
- ٣٤ — « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)
- الشمريستاقى : (+ ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) أبو الفتح بن عبد الكريم .
- ٣٥ — « الملل والنحل » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
- طوطح : خليل .
- ٣٦ — « التريمة عند العرب » (القدس ١٩٣٣ م) .
- ابن عبد البر النرى القرطبى : (+ ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م) أبو عمر يوسف .
- ٣٧ — « مختصر جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله »
(القاهرة ١٣٢٠ هـ)
- على ابراهيم حسن : الدكتور
- ٣٨ — « تاريخ جوهر الصقلى » (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ م) .
- على عبد الواحد وافي : الدكتور
- ٣٩ — « لمحة فى تاريخ الأزهر » (القاهرة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م)

على مبارك :

٤٠ — « الخطط التوفيقية » ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٠٦ هـ) .

عثمان : محمد عبد الله

٤١ — « الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية » (القاهرة ١٩٣٧ م) .

٤٢ — « تاريخ الجامع الأزهر » (القاهرة ١٩٤٢ م) .

الغزالي : (+ ٥٥٠ هـ = ١١١١ م) الامام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد .

٤٣ — « فاتحة العلوم » (القاهرة ١٣٢٢ هـ)

٤٤ — « كتاب احياء علوم الدين » أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .

أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة .

٤٥ — « المختصر في أخبار البشر » ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

ابن القفطي : (+ ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم

ابن عبد الوهاب .

٤٦ — « اخبار العلماء باخبار الحكماء » (ليبسك ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٣ م) .

القلقشندي : (+ ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد .

٤٧ — « صبح الأعشى في صناعة الانشاء » ١٤ جزءا (القاهرة ١٣٣٣ هـ =

١٩١٥ م) .

قنديل : أمين مرسى

٤٨ — « أصول علم النفس » جزءان (القاهرة ١٩٢٧ م) .

٤٩ — « أصول التربية وفن التدريس » (القاهرة ١٩٢٨ م) .

كبرى : أ . ب . Cubberly, E. P.

٥٠ — « Readings in the History of Education. » (U. S. A.)

الكسبي : (+ ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م) محمد بن شاكر بن أحمد .

٥١ — « فوات الوفيات » جزءان (بولاق ١٢٩٩ هـ) .

کرد علی : محمد

٥٢ — « الإسلام والحضارة العربية » جزءان (القاهرة ١٩٣٤ و ١٩٣٦ م)
الاسكندی : (+ ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .

٥٣ — « كتاب الولاية والقضاة » — به ذیل مأخوذ معظمه من كتاب
« رفع الاصر » لابن حجر العسقلانی . (بیروت ١٩٠٨ م) .

ed. by Rhuvon Guest,

E. J. W. Gibb Memorial Series, vol. XIX, 1912.

Lane. - Poole : Stanley.

لینبول : ستانلی

٥٤ — « A History of Egypt in the Middle Ages » (London 1914)

٥٥ — « The story of Cairo . » (London 1918 .)

المسوردي : (+ ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م) أبو الحسن علی بن محمد بن حبیب
البغدادی البصری .

٥٦ — « الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ هـ) .

متز : آدم Mez : Adam

٥٧ — « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » جزءان — ترجمة

الدكتور محمد عبد الهادی أبوریدة (القاهرة ١٩٤٠ و ١٩٤١ م) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م) جمال الدين بن يوسف بن تغری بردی

٥٨ — « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » (طبعة دار الكتب

المصرية بالقاهرة ١٣٥٣ هـ) .

حب الدين الخطيب :

٥٩ — « الأزهري »

محمد كامل حسين : الدكتور

٦٠ — « في الأدب المصري الإسلامي »

محمود عكوش :

٦١ - « تاريخ ووصف الجامع الطولوني » (القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م)

مصطفى أمين :

٦٢ - « تاريخ التربية » (القاهرة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م) .

مصطفى بيرم :

٦٣ - « الجامع الأزهر » (القاهرة ١٣٢١ هـ)

المقدسى : (+ ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبسارى

٦٤ - « احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » (لندن ١٨٧٧ م) .

المقرئى : (+ ٨٤٥ هـ = ٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن على .

٦٥ - « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » ٤ أجزاء (القاهرة

١٣٢٦ هـ) .

٦٦ - « اتعاظ الخنفا بأخبار الخلفاء » (بيت المقدس ١٩٠٩ م) .

ابن منجب الصيرفى : (+ ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) أمين الدين تاج الرئاسة

أبو القاسم على .

٦٧ - « قانون ديوان الرسائل » (القاهرة ١٩٠٥ م) .

٦٨ - « الاشارة الى من نال الوزارة » (طبع المعهد العلمى الفرنسى .

القاهرة ١٩٢٥ م) .

ابن النديم : (+ ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) محمد بن اسحق .

٦٩ - « الفهرست » (لينبىك ١٨٧١ م) .

نيكلسون : أ. رينولد Nicholson : A. Rynold

« A Literary History of the Arabs. » (London, 1914.) - ٧٠ .

ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .

٧١ - « معجم البلدان » ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

٧٢ — د معجم الادباء ، ٢٠ جزءا (القاهرة ١٩٣٦ م) .

يحيى بن سعيد الأنطاكي : (+ ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م) .

٧٣ — التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان (بيروت ١٩٠٩) .

يوسف أحمد :

٧٤ — د جامع سيدنا عمرو بن العاص ، (القاهرة ١٩١٧ م) .

فهرست عام

ابو بكر بن جعفر السكتاني : ٥٢

ابو بكر الطرطوشي : ١٢٠

ابو بكر النعالي : ١٠٥

ابن البواب : ١٩٣

(ت)

تيم بن المعز : ١٧٨

(ج)

جالينوس : ٢٩ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤

الجامع الأزهر : ٦٣ ، ٦٤ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠

١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٠

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧

١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢

١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

جامع الحاكم : ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١٦ ،

١١٨ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٣٣

جامع راشدة : ١١١ ، ١١٨ ، ١٤٢

جامع ابن طولون : ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ،

(ا)

ابقرط : ٢٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤

أحمد بن طولون : ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠٠

١٠٨ ، ١٨٠

الأخرم : ٢١٢

أرسطو : ٢٩ ، ١٣٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦

اسماعيل بن جعفر الصادق : ١٩٦ ،

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨

افرائيم بن الزفان : ١٩٢

الأفضل بن بدر الجمالي : ٧٠ ، ١٥٤

١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٩٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

افلاطون : ٢٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦

اقلیدس : ٢٩ ، ١٣٢

الآمر بأحكام الله : ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٩٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢

انوجور بن الأخشيد : ٤٤ ، ٥٢

(ب)

بدر الجمالي : ١٠٧ ، ٢١٩

برجوان : ١٩١

ابن بطلان : ١٦٣

بطليموس : ٢٩ ، ١٢٩

١١٠، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٢

١٢٠، ١١٨، ١١٦، ١١٥، ١١١

١٣٣، ١٣٢، ١٣٠، ١٢٨، ١٢٥

١٥٢، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٢، ١٤٠

١٦٢، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٣

١٦٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٦٤، ١٦٣

١٨٠، ١٧٩، ١٧٧، ١٧٣، ١٦٨

٢١٠، ٢٠٩، ١٨٨، ١٨٧، ١٨٢

٢١٣، ٢١٢، ٢١١

أبو حامد الأنطاكي : ١٧٩، ٢١٦

أبو الحسن الدارقطني : ١٢٥، ٥٣

١٢٦

الحسن بن زولاق : ١٠٠، ١٢٧، ١٢٨

١٤٩، ٢١٦

الحسن بن الصباح : ١٦٥

الحسين بن علي بن النعمان : ١٠٥، ١٢٦

١٣٦، ١٤٠، ١٥٠

الحكم المستنصر : ١٩٤

ابن حمدان : ١٢٩

حمزة بن علي الوزني : ٢١١، ٢١٢

٢١٣

أبو حنيفة : ٣٨، ٤٩

حنين بن اسحق : ٢٨، ٢٩

(خ)

ختكين : ٢١٣

١٠٧، ١٠٦، ١٠٣، ١٠٠، ٥٠

١٣٣، ١١٠

جامع العسكر : ١٠٣

جامع عمرو : ٣٧، ٣٨، ٤٢، ٤٤

٥٢، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦

١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠، ٩٢

١١٠، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤

١٢٧، ١٢٠، ١١٩، ١١٧، ١١٦

٢٢٣، ١٤٣، ١٣٧، ١٣٣

جامع المقس : ٩٣، ١١١، ١١٨

١٣١، ١٣٣، ١٤٢

جامع القرافة : ١٠٣، ١٤٣

جعفر بن محمد الصادق : ٢٠٤، ٢٠٥

أبو جعفر المنصور : ٢٨

أبو جعفر النحاس : ٥٣، ٢١٦

جنادة بن محمد : ١٠٤، ١١٦، ١٥٠

١٥٢، ١٦٢

جوهر الصقلي : ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٧

١٠٨، ١٠٦، ١٠١، ٩٤، ٩٠

١٧٩، ١٧٧، ١٧٦، ١٢٨، ١٠٩

١٨٧

(ح)

الحافظ : ١٨٣، ٢٢١

الحاكم بأمر الله : ٦٤، ٦٨، ٦٩، ٧٣

٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٤، ٩٣

، ۱۲۵ ، ۸۴ ، ۵۴ ، ۵۰ ، ۴۹
 . ۲۲۳ ، ۱۵۴
 ابو شاکر میمون بن دیصان : ۲۰۷

(ص)

صالح بن علی العباسی : ۱۰۸
 صلاح الدین بن آیوب : ۵۰ ، ۸۰
 ۱۶۷ ، ۱۶۰ ، ۱۵۵ ، ۱۰۸ ، ۱۰۷
 . ۲۲۴ ، ۲۲۳ ، ۱۹۵

(ط)

طاهر بن بابشاذ : ۱۰۰ ، ۱۰۴ ، ۱۱۵
 ۲۱۶ ، ۱۸۸ ، ۱۵۰ ، ۱۴۹ ، ۱۲۷
 ابو الطاهر البهرکی : ۱۸۷
 ابو طاهر الذهلی : ۵۲ ، ۱۲۴
 ۲۲۳ ، ۱۴۷ ، ۱۴۶ : ابو الطاهر السلفی
 ابو الطیب المتنبی : ۴۳ ، ۴۴

(ظ)

الظافر : ۱۴۶ ، ۲۲۲
 الظاهر : ۶۸ ، ۶۹ ، ۷۳ ، ۹۷ ، ۱۰۵
 ۱۸۰ ، ۱۷۹ ، ۱۶۴ ، ۱۶۳ ، ۱۲۶
 . ۲۱۳ ، ۱۹۱ ، ۱۸۸ ، ۱۸۷

(ع)

العاضد : ۱۹۵ ، ۲۲۳

الخلیل بن احمد : ۱۹۰

(د)

دار العلم : ۱۰۵ ، ۱۰۶ ، ۱۰۷ ، ۱۱۱
 ۱۳۰ ، ۱۲۵ ، ۱۱۸ ، ۱۱۷ ، ۱۱۶
 ۱۵۲ ، ۱۴۳ ، ۱۴۲ ، ۱۳۳ ، ۱۳۱
 ۱۵۷ ، ۱۵۶ ، ۱۵۵ ، ۱۵۴ ، ۱۵۳
 ۱۶۳ ، ۱۶۱ ، ۱۶۰ ، ۱۵۹ ، ۱۵۸
 ۱۶۸ ، ۱۶۷ ، ۱۶۶ ، ۱۶۵ ، ۱۶۴
 ۲۱۹ ، ۲۱۶ ، ۲۱۰ ، ۱۷۲ ، ۱۶۹
 . ۲۲۱

(ر)

الربیع بن سلیمان : ۴۲ ، ۵۰
 الرشید : ۳۴ ، ۱۶۵ ، ۱۹۴

(س)

سعید بن البطریق : ۵۴
 سعید التیمی المقدسی : ۱۸۱
 ابو سعید العمیدی : ۱۲۷ ، ۱۸۸
 ابن السلار : ۱۴۶ ، ۱۶۷ ، ۲۲۲
 . ۲۲۳
 سعد بن ابراهیم الازدی : ۱۲۰
 سهلان بن کیسان : ۱۸۲

(ش)

الشافعی : ۳۸ ، ۳۹ ، ۴۰ ، ۴۲ ، ۴۸

علي بن محمد الشهابشي : ١٠٠ ، ١٤٩
١٩١

علي بن النعمان : ٩١ ، ٩٥ ، ١١٢ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٩

علي بن عبد الواحد البغدادي: ١٧٩، ٢١٦
علي بن تونس: ١٦٢

عمارة النبي : ٢٢٤

عمر بن الخطاب : ٤٦ ، ٧٤

ابو غنم من يوسف الكندي : ۱۲۸

غمر و بن العاص : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٠٣
١٠٨

(ف)

الفائز بالله : ٢٢٤ .

ابو الفتح منصور بن مقشّر : ۱۸۱

ابو الفضل جعفر بن الفرات : ٥٣، ٤٤

100, 133, 137, 128

الفضل بن صالح : ١٠٨

(ق)

ابو القاسم بن عميد الله المهدي : ١٨٩

القضاعي: ١٠٠، ١٢٥، ١٥٠،

217, 193, 188

(ك)

کافور : ۴۲ ، ۴۳ ، ۴۶ ، ۵۲ ، ۵۵

عبد العزيز بن النعمان : ٩٦ ، ١٠٥ ،

171, 10A

عبد الغنى بن سعيد : ١١٦ ، ١٢٥ ،

172

عبد الله بن عمرو بن العاص : ٣٧

عبد الله بن قتيبة : ٤١

عبد الله بن وهب : ٣٨

غبيد الله المهدي : ٥٩ ، ٦٦ ، ١٨٩ .

العزیز: ۶۸، ۹۱، ۹۲، ۹۶، ۹۷

148, 150, 153, 152, 137

191

علي بن احمد الجرجرائي : ١٨٨

على بن حمزة الكسائي : ٨٣

علی بن رضوان : ۷۳ ، ۱۰۰ ، ۱۵۸

علي بن سعيد الحوفي: ١٠٠، ١١٥، ١٢٦

علی بن سلیمان الانطاکی : ۱۵۲، ۱۶۲

١٨٧، ١٦٥، ١٦٤، ١٥٤، ١٣٨

٢١٩، ٢١٨، ١٩٥، ١٩١

مسجد العسكر : ١٠٨

المعز : ٦٧، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٠

٩٧، ٩٥، ٩١، ٩٠، ٦٩، ٦٨

١١٢، ١١٠، ١٠٩، ١٠١

١٧٧، ١٤٨، ١٣٠، ١٢٨، ١١٣

١٨٧، ١٨٢، ١٨١، ١٧٩، ١٧٨

٢٠٩، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٨

ابن مقلة : ١٩٣

منصور بن مقيش : ١٠٠

المهاجري : ١٢٩

موسى بن العازار : ١٨١

موسى الكاظم : ٢٠٥

(ن)

ناصرى خسرو : ١٦٥

نافع : ١٢٣، ٤٠

نجم الدين بن مصال : ٢٢٢

نزار بن المستنصر : ١٥٥، ١٥٤

نسطاس بن جريج : ٥٥، ٥٤

نظام الملك : ٢٢٣، ١٦٧، ١٦٥، ٨٠، ٣٦

النهان بن محمد : ١١٤، ٩٧، ٩٥

١٤٨، ١٢٦

ذو النون : ٤١

(هـ)

ابن هاني الاندلسي : ١٧٨

١٢٨، ١١٢، ٦٢، ٦١، ٦٠

(ل)

الليث بن سعد : ٣٨

(م)

المارستان : ١٨٠

مالك : ٩٨، ٥٢، ٤٩، ٤٠، ٣٨

٢٢٣، ١٢٤، ١٠٦

المأمون : ٣٤، ٣٢، ٢٩، ٢٨، ٢٦

٦٤، ٥١، ٤٠

المبشر بن فانك : ١٩١، ١٦٤، ١٠٠

محمد بن اسماعيل الدرزي : ٢١١، ٢١٠

محمد ابو بكر الادفوي : ١٢٣

محمد بن جرير الطبري : ٤١، ٤٠

محمد بن طغج الاخشيدي : ٤٣، ٤٢

١٢٨، ٦١، ٥٩، ٥٠، ٤٩

محمد بن القاسم بن عاصم : ١٧٩

محمد بن المستنير : ٨٣

محمد بن النعمان : ١٤٩، ١٢٦، ٩٥

المسبحي : ١٥٠، ١٢٩، ١٢٨، ١٠٠

٣١٦

المستعلي بالله : ١٥٥، ١٥٤

المستنصر : ٩٣، ٧٣، ٧٠، ٦٨

١٠٧، ١٠٦، ١٠٤، ١٠٢، ١٠٠

١٢٩، ١٢٧، ١٢٥، ١٢٠، ١١٠

(ى)

يحيى بن خالد بن برمك : ١٩٠

يعقوب بن كلس : ٦١ ، ٩١ ، ٩٢ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٩١ ،

يوحنا بن ماسويه : ٢٨ ، ٢٩

ابن يونس : ١٠٠ ، ١٥٨ ، ٢١٦ ،

ابن الهيثم : ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٩١ ، ٢١٦ ،

(و)

ابن ولاد : ٣٩ ، ٤٠

ولى الدين بن خيران : ١٨٧

عبد الوهاب بن نصر المالكي : ١٧٩

الأغلاط المطبعية وصوابها

صواب	خطأ	سطر	صفحة
His	Hisi	٢٣	٤٣
٣٧٠ هـ	٢٧٠ هـ	٢	٧٤
العرب	العزب	١٩	٨٢
جهودا	جهدا	٧	٩٢
العلم	العام	٥	١٠٣
قياسر	قياس	٧	١١٨
العلم	العلوم	١٤	١٤٢
أوقى	أوفى	٩	١٤٦
المدرسة	المدرجة	١٩	١٦٨
اقتناء	اقتناء	١٣	١٨٩
يحب	يحت	٦	١٩١
الدعوة	الدعورة	٣	١٩٩
بدر	بد	٧	٢١٩
في	من	١١	٢٢٤

رسائل الصاحب بن عباد : نشر وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام بك والدكتور شوقي ضيف — وثائق أدبية بديعة تفسر حياة النثر العباسي في القرن الرابع على لسان أهم كتابه تفسيراً دقيقاً ، ثم هي وثائق تاريخية خطيرة تكشف عن كثير من النواحي السياسية والاجتماعية للدولة البويهية ، ولإنها لتضيف إلى كتب التاريخ كثيراً من الحقائق ، وتعديل فيها كثيراً من الوقائع . مع مقدمة عن المؤلف وقيمة أثره من الناحيتين الفنية والتاريخية . وثمنه ٤٠ قرشا

كتاب الرد على النحاة : نشر وتحقيق الدكتور شوقي ضيف

ثورة على أوضاع النحو العربي وصعوباته وتعقيداته ، ودعوة إلى إصلاحه وبنائه على أسس جديدة تريح الناس من أنقاله ومشقاته . وثمنه ٢٠ قرشا

اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفاء : نشر وتحقيق الأستاذ جمال الدين الشيال

الكتاب القديم الوحيد في تاريخ الدولة الفاطمية ، أول دولة استقلت بمصر استقلالاً تاماً في العصر الإسلامي ، تأليف مؤيد النسب الفاطمي وزعيم مؤرخي مصر الإسلامية تقي الدين المقرئ ؛ مع مقدمة إيضاحية ، وتعليقات وافية ، وملاحق مكتملة بقلم المؤلف نفسه وفهارس تفصيلية شاملة . وثمنه ٣٠ قرشا

المجالس المستنصرية لداعي الدعاة : نشر وتحقيق الدكتور محمد كامل حسين

أول كتاب ينشر في الشرق لداع فاطمي ، يحوى خمسة وثلاثين مجلساً من مجالس الحكمة والتأويلية التي كان يلقيها هذا الداعي والمجالس كلها تبحث في فقه المذهب الفاطمي وبها كثير من التأويلات الباطنية . وثمنه ٢٥ قرشا

رسالة الرشيد والهداية لداعي الدعاة منصور اليمين : نشر وتحقيق الدكتور

محمد كامل حسين وهي أقدم نص اسماعيلي عثر عليه إلى الآن ومؤلفه صاحب الدعوة في الين قبل ظهور الفاطميين وتبحث في تأويلات باطنية كما ترينا تطور المذهب من بدء ظهوره . وثمنها ٥ قروش

70962A39A2

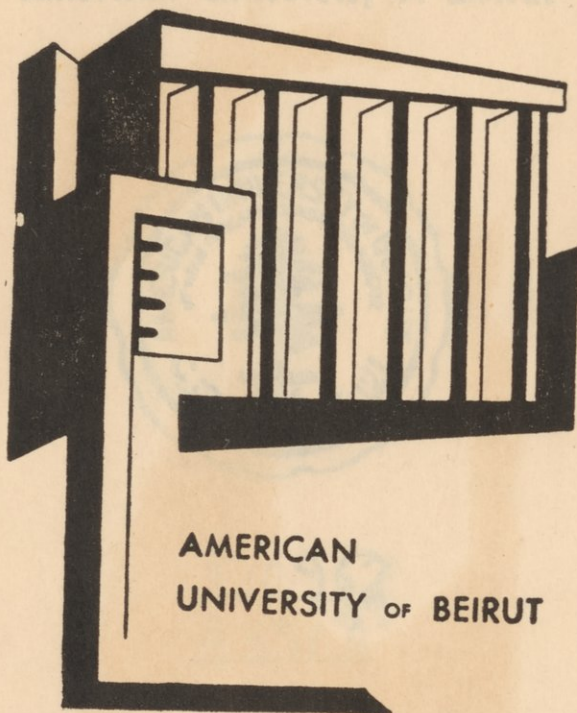
على ،خطاب عطية

التعليم في مصر في العصر الفاطمي ال

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01022419



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

